كتاب
العربي
٥٤
١٥ أكتوبر ٢٠٠٣

مرفأ الذاكرة

أحمد أبو زيد أحمد مستجير شكري عياد ثروت عكاشة جلال أم
إدوار الخراط سهيل إدريس
حنا مينا عبد الوهاب البياتي علي الراعي عبد القادر القط عبد اللطيف ال
طيب تيزيني عبد الهادي التازي فتحي غانم فاتح المدرس عبد الله بش
محمد جابر الأنصاري نقولا زيادة محمد برا
علي زكريا الأنصاري



مــرفــأ الــذاكــرة

نخبة من الكتاب

سلسلة فصلية تقدم مجموعة من المقالات
والموضوعات لكاتب واحد
أو موضوعاواحداً تتناوله عدة أقلام.

عنوان الكتاب: مرفأ الذاكرة
المؤلف: نخبة من الكتاب
الناشر: مجلة «العربي»

الطبعة الأولى:١٥/١٠/٢٠٠٣
تصميم الغلاف: رضا سالم

رقم الإيداع في مكتبة الكويت الوطنية:
ردمك: ٩ - ١٧ - ٣٨ - ٩٩٩٠٦ ISBN: 99906-38-17-9
العنوان: ص.ب: ٧٤٨ الصفاة - الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
برج الإنماء - شارع عبدالله المبارك - المرقاب

AL-Arabi Book, 54st
The Title
The Ports Of Memory
15 October 2003
Publisher: AL-Arabi Magazine.

E. mail: arabimag@arabimag . net

مرفأ الذاكرة..
بحر الحياة!

بقلم: الدكتور سليمان إبراهيم العسكري

ولعُ الإنسانِ بسردِ تفاصيل حياته عميقٌ وأصيلٌ. فهو - حتى قبل اختراع مفردات الكتابة وأبجديات اللغة - كان يحكي، في بطون الكهوف، وعلى صدور الأحجار، قطوفا مصورة من سيرته الذاتية تبين كيف كان يطارد الفرائس، أو تطارده، وكيف كانت الحياة حوله برية ومستأنسة، مثلما وصلتنا بعد ذلك أنباء القدماء من انتصار وانكسار في ما سجلوه على مسلات فراعنة مصر، وجداريات مدن الهند، وألواح معابد العراق، وحفريات أباطرة الصين.

والمثير أن اختراع الكتابة والتدوين لم يجعل فن السيرة الذاتية منتشرًا بالصورة التي انتشرت بها الطباعة، بعد أن استعاض الرواة بسرد سير الآخرين عوضا عن سيرتهم! وصرنا نسأل فيما ندر مما هو منشور: هل هو محاولة للإفصاح، يجلب بها الكاتب فصول حياته جميعها أمام قارئه، أم أنها طريقة للتكتم عما أخفاه من فصول هذه السير؟

وفي حين مثلت السير الذاتية في الأدب الغربي تيارا شديد العنفوان في نهر الأدب، رفد الثقافة العالمية بألوان مميزة من البوح، كان حس الكتابة العربي، الذي ظل يبيت تحت خيمة المحرمات، ولا تشرق عليه سوى شمس الممنوعات، كان هذا الحس أسير مجتمع الكتمان والإخفاء، وكأن السيرة محض كشف ـ وحسب ـ للمخفي من حيواتنا المخطئة. وهكذا رأينا أيضا عنف ردة فعل بعض الأهل عما قدمه المبدعون في سطور سيرهم الذاتية.

ولقي هذا التيار البواح في الثقافة الغربية صدى واسعًا، تمثل في إعادة إنتاج كل ما يتعلق بهذا الأدب، وما أنتج منه خلال عدة قرون، حتى غدت كتابة سيرة ذاتية جديدة لروائي مثل جارسيا ماركيز حدثا استثنائيا لا يقل أهمية عن رواياته نفسها التي حصدت له جائزة نوبل في الآداب، وهو ما حدث مع مذكرات عمالقة الأدب في أوروبا والأمريكتين.

ودعونا نتخيل لو قدم أعلام العرب جميعهم سيرهم الذاتية، لعرفنا ما مر في يوميات توفيق الحكيم وحدث بجلسات العقاد، وعصف بحياة جبران، وألهم قصائد مطران، وأثر في إبداع عشرات سواهم من أدباء ومؤرخين وعلماء، قديما وحديثا.

وإذ تتنبه (العربي) لأهمية هذا الفن الرفيع، الذي ظلمه قهر المجتمع حينا وبخل الكاتب أو خوفه حينا آخر، تفتح صفحاتها لإحيائه عبر باب جديد تسميه (مرفأ الذاكرة). وفي المرفأ رست ـ ولا تزال ترسو ـ سفن مجرية في مختلف مياه الحياة، تضيء المجهول من غرف الماضي المظلمة والمجهولة، وتعيد اكتشاف الذات في مرآة النفس والآخر، وتفسر ما لم يستطع أن يفسره نقاد الأدب فيما يمكن أن يكون قراءات جديدة لعطاء المبدع، وإنجاز العالم، وحياة

الفنان، مثلما هو أيضا رسالة إلى الأجيال كلها تقدم مثال النجاح، وفرادة التجربة.

وفي فصول هذا العدد الجديد من سلسلة (كتاب العربي) يلتقي القارئ بمختارات مما نشر في هذا الباب، مما سمح به الفضاء الورقي المتاح للسلسلة، كتبها نخبة من أعلام وطنه العربي الكبير، من الكويت على الخليج العربي وحتى المغرب على المحيط الأطلنطي، ينسجون في هذه المساحة المكانية سجادة زمنية أخرى نقوشها الصدق مع الذات.

سيجعلنا مرفأ الذاكرة نقلب في الدفاتر القديمة لنأخذ العبرة حينا، والعبرات تجتاح العيون، ونحن نتذكر - كما يقول العلامة المغربي عبد الهادي التازي - الأحداث الماضية، وأسماء الغائبين؛ هؤلاء الذين قال الشاعر عنهم:

مات المداوي والمُداوَى، والذي جَلَبَ الدو
اءَ، وباعَهُ، ومن اشترى!!

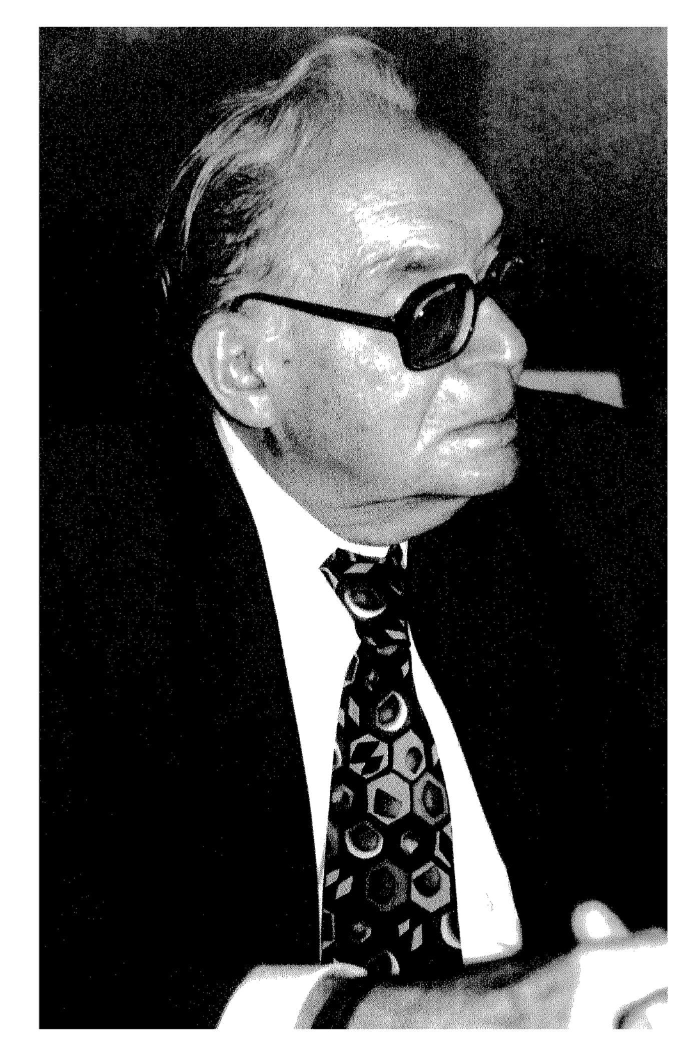
ويعض ضيوف المرفأ سعى لأن يقدم لنا سنواته الأولى، وبعضهم شاء أن يطلعنا على طرف من سيرة الشباب، وظنت مجموعة أن خير السنوات هي التي واكبت العطاء الأكبر، فأسعفتهم الذاكرة بما هو قريب، وبين هذا وذاك نقلب الصفحات، فنلهث وراء إيقاعها حينا، وحينا نهدأ والعيون تعبر الكلمات.

من المحيط إلى الخليج يمتد مرفأالعربي لذاكرة المبدعين، وكلنا أمل أن يسع جزء ثان مرافئ لكثيرين سواهم من أبناء الوطن العربي الكبير الذي أضاءوا ليله بشموع حياتهم، وانطلقت في بحور حياتهم سفن

الإنسان وليد المصادفة *

لكنت دائما أعتقد أن المصادفة تلعب دوراً أساسياً في حياة الإنسان.. ربما أكبر بكثير مما يظن لأول وهلة، وأن العلامات والمراحل المميزة والفارقة في حياة المرء تجيء وتحدث في كثير من الأحيان عن طريق المصادفة البحتة، وأن دور المرء يقتصر على أسلوبه في الإفادة من الفرصة التي تتيحها المصادفة أو إغفالها وتركها تمر دون أن يشعر بها.

ولست أعني بذلك أن موقف الإنسان من الحياة وأحداثها موقف سلبي أو أنه ليست له إرادة في صوغ حياته الخاصة وتشكيل شخصيته ورسم مستقبله ولكن كل ما أعنيه هو أن المصادفة تخلق أوضاعا معينة لم تكن في حسبان المرء الذي ينفعل بها إن إيجابا أو سلباً، وأن هذا الانفعال يؤثر في سلوكه ويدفعه إلى اتخاذ قرارات تحدد مسار حياته والدور الذي يتعين عليه القيام به في المجتمع والمكانة التي يشغلها مثلما تحدد له علاقاته بالآخرين. والأمر هنا أشبه بالتفرقة التي يقيمها الفيلسوف الاجتماعي الألماني فرديناند تونييس بين الإرادة المنفعلة أو الطبيعة العضوية التي هي وحدة الحياة - حسب تعبيره - والإرادة الفاعلة العقلانية الرشيدة التي تسبق القيام بأي عمل إرادي وتساعد على



تحقيقه وإنجازه. فالإرادة الطبيعية إرادة فطرية أصيلة وتلقائية وتخضع للظروف والملابسات والمصادفات وتعبر بذلك عن الحياة بكل جوانبها من عظمة أو هوان، بينما الإرادة الفاعلة تقوم على وزن الأمور بدقة وعلى الاختيار والانتقاء.

فهي إذن محصلة التفكير ونتاجه وثمرته. ومع ذلك فهناك علاقة وثيقة بين نوعي الإرادة من حيث إن عمليات الفكر تعتمد إلى حد كبير على الميول والملكات والقدرات الطبيعية وعلى الاتجاهات الذهنية للفرد. ولكن المهم هو أن التفكير من أجل تحقيق هدف معين هو العنصر الغالب في الإرادة العقلانية الواعية المدركة التي تنظر إلى الأمور نظرة مستقبلية وليس نظرة آنية تلقائية أو «عضوية». فهي التي تساعد على اتخاذ القرار حين تتيح المصادفات البحتة الفرصة غير المحسوبة من قبل. وعلى ذلك فإنه على الرغم من كل إيماني بالدور الذي تلعبه المصادفات في حياة الإنسان والذي لعبته في حياتي أنا بالذات فإن موقفي من الحياة لم يكن في أي وقت من الأوقات موقفا سلبيا أو موقف المتفرج أو المستسلم للأمور، وإنما كان دائما موقفا يقوم على تقييم الأوضاع التي أتت بها المصادفات التي لم يكن لي يد فيها ولكنني استجبت لها بحكم «الإرادة المنفعلة» واخترت طريقي نزولا على تقديرات وأحكام «الإرادة الفاعلة» التي لم تخذلني قط، ولذا فإنني لا أذكر أنني شعرت أبدا بالندم على قرار اتخذته وكان له تأثير بالغ في حياتي وحياة الآخرين.

المصادفة البحتة هي التي جعلتني منذ البداية آتي إلى هذه الحياة نتيجة التقاء عنصرين، أب ينتمي إلى عائلة من رجال المال والأعمال تتصف حياتهم بالجد والمثابرة ووضوح الهدف والنظرة العملية التي تقوم على الحسابات الدقيقة وتأخذ في الاعتبار أمور المستقبل وتقدير العواقب، بينما تحمل تلك البويضة جينات أم تنتمي إلى عائلة يسيطر

على حياة أعضائها جو التدين والميل إلى الأدب والشعر وتذوق الفن وبخاصة الموسيقى. وبذلك تسرب إلى تكوين شخصيتي ودون أي تدخل أو رغبة مني هذان الاتجاهان المتناقضان! الإقبال الشديد على العمل في مثابرة وعناد تصل بي أحيانا إلى حد الإرهاق، والميل الشديد إلى الركون إلى الاسترخاء للاستمتاع بالجمال في الفن وبخاصة الموسيقى التي ربما كانت هي الشيء الوحيد الذي يمكنه أن ينتشلني من عبودية العمل ليلقي بي في عالم الخيال الواسع المترامي الذي لا تحده حدود.. وبين هذين القطبين المتباعدين المتعارضين تتوزع حياتي وأيامي ومعظم الليالي بالذات بحيث لا أكاد أخرج من أحدهما إلا لكي أدخل إلى الآخر وبحيث يستغرقني كل من العالمين الواحد تلو الآخر دون أن أجد بينهما أي تناقض أو تضارب.

كذلك كانت المصادفة هي التي أتت بي إلى هذا العالم في أوائل العشرينيات، وأن أولد وأعيش في الإسكندرية دون غيرها من مدن مصر وقراها، على الرغم من أن الأب تجري في عروقه دماء مغربية وصعيدية بينما انحدرت الأم من عائلة ذات أصول تركية استوطنت منذ أجيال طويلة الصعيد والشرقية، ولم يكن لي أنا أي دخل في اختيار المكان أو الزمان الذي ولدت ونشأت وعشت حياتي فيه، فيما عدا فترات الدراسة أو العمل في الخارج. وكانت الإسكندرية مدينة «كوزموبوليتانية» بكل معاني الكلمة حيث كانت تجتمع فيها ثقافات الشرق والغرب وتتفتح على الفكر الغربي بكل اتجاهاته وتياراته ومذاهبه ومدارسه المختلفة دون أن تتنكر لأصولها الهلينية والقبطية والعربية الإسلامية، ولذا لم يكن غريبا أن أجد في مكتبة جدي لأمي - الذي كان من رجال الدين - ذخيرة كبيرة من الكتب التي تجمع بين الفقه والشريعة والكتاب المقدس وكتب الأدب والتاريخ وشعر الغزل الرقيق لعمر بن أبي ربيعة والأدب المكشوف لأبي نواس علاوة على الكثير من المترجمات إلى

العربية وعدد كبير من الأسطوانات الموسيقية والغنائية بما فيها بعض الموسيقى الكلاسيكية وبخاصة العزف على البيانو، وهو أمر قد يبدو غريبا للكثيرين. وكانت الإرادة المنفعلة ـ إذا نحن استخدمنا مصطلحات تونييس الذي أثرت كتاباته في تكويني الفكري تأثيرا عميقا ـ هي التي تدفعني إلى الإغراق والاستغراق في فترات مختلفة من حياتي المبكرة في تلك الأعمال المتنوعة التي تسرب تأثيرها بغير شك إلى عقلي ووجداني وفتحت عيني على آفاق واسعة من الثقافة العريضة العميقة المتنوعة التي تؤلف في آخر الأمر وحدة متكاملة رغم ما فيها من تنوع واختلاف وتباين، وقادت خطواتي إلى الطريق الذي سرت، ومازلت سائرا فيه.

وإذا كانت الإرادة الفاعلة هي التي أقنعتني بالالتحاق بكلية الآداب رغم معارضة الفريق «العملي» من أعضاء العائلة لهذا الاختيار، كما أنها هي التي حببت إليّ الانتماء إلى قسم الفلسفة الذي كان يجمع في ذلك الحين (الأربعينيات) بين مجموعة ممتازة من كبار أساتذة الفلسفة بفروعها المختلفة وأساتذة علم الاجتماع وعلم النفس، وهي التخصصات الرئيسية الثلاثة التي كانت تدرس في ذلك القسم على قدم المساواة وبالدرجة نفسها من العناية والاهتمام، فإن المصادفة البحتة هي التي جعلت أستاذا كبيرا من علماء النفس وهو المرحوم مصطفى زيور يعهد إليّ القيام بتلخيص وعرض كتاب من الفرنسية عن «سيكولوجيا الصيغة» حول نظرية الجشتالت. ويستهويني الكتاب بطرافة موضوعه ويشدني إليه حتى بعد تخرجي في الجامعة ويؤثر تأثيرا كبيرا ومباشرا في توجهي العلمي فيما بعد وإن كان خارج مجال علم النفس. وفي الوقت نفسه تقريبا وقعت بطريق المصادفة أيضا في إحدى المكتبات على النسخة المختصرة من كتاب سير جيمس فريزر عن «الغصن الذهبي» وعلى كتاب مالينوفسكي ـ أحد أقطاب الأنثربولوجيا الذي لم يكن معروفا

في مصر - عن «الجنس والكبت في المجتمع المتوحش» ويجتذبني الكتابان مثلما اجتذبني «سيكولوجيا الصيغة». وكان هناك خيط واحد رفيع ولكنه متين يصل بين هذه الكتب الثلاثة ويربط بينها برباط وثيق، وإن لم أتبين ذلك إلا بعدها بسنوات. ولكن كان لهذه الكتب الثلاثة على أي حال الفضل الأول في أن أشغف بما عرفت فيما بعد أنه الأنثربولوجيا أو علم الإنسان. فقد كنت أميل إلى هذه الكتب وأمثالها بقوة الإرادة المنفعلة التي تخاطب الميول والوجدانات الطبيعية، ولم يظهر دور الإرادة الفاعلة إلا بعد أن جاء رادكليف براون عميد الأنثربولوجيين البريطانيين إلى مصر في أواخر الأربعينيات، وتصادف أن أكون أنا تلميذه الوحيد في الماجستير. وأدرك الرجل من قراءاتي وميولي واتجاهاتي أنني أقرب في تفكيري إلى الدراسات الأنثربولوجية وموضوعاتها ومناهجها، فإذا به يرسلني إلى أكسفورد لكي أتخصص في الأنثربولوجيا بعد أن كان مقررا لي أن أذهب إلى هارفارد للتخصص في علم الاجتماع.

اختياري السير في تيار المدرسة البنائية الوظيفية كان إراديا وبعد تفكير طويل ومقارنة بين مختلف مدارس علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والنظريات العديدة التي يشغل بها العلماء أذهانهم ويملأون بها كتاباتهم والتي كانت تدرس في أكسفورد ويترك للطلبة حق الاختيار بينها والاسترشاد بها في كتابة رسائلهم. وقد تكون النظرة الكلية الشاملة للثقافة التي تغلغلت إلى عقلي على غير وعي مني منذ بدأت أطالع في مكتبة جدي المتنوعة التي توحي بوحدة المعرفة وتكاملها، وقد تكون دراستي لسيكولوجيا الصيغة وإعجابي وانفعالي بنظرية الجشتالت، وقد تكون قراءاتي المتعددة والمتأنية لكتاب الغصن الذهبي في طبعته المختصرة ثم بعد ذلك في طبعته الكاملة التي تشغل ثلاثة عشر مجلدا والتي يحيط فيها فريزر بجانب كبير جدا من أساطير وآداب وثقافات العالم في تآلف وإحكام بالإضافة إلى أعمال مالينوفسكي وتونييس

المترجمة إلى الفرنسية مسئولة كلها عن اقتناعي بمنهج البنائية الوظيفية التي كانت على أي حال هي الطابع الغالب على تفكير كثير من أساتذة الأنثربولوجيا الذين درست على أيديهم في أكسفورد إلى جانب شيخهم الكبير رادكليف براون. وعلى الرغم من كل الانتقادات التي وجهت إلى هذه المدرسة - وبعض هذه الانتقادات صحيح وسليم - وعلى الرغم من ظهور تعديلات بل وتحويرات عديدة لها، فمازلت أتمسك بصيغتها الأولى الأساسية، ليس عن جمود ولا عن عدم دراية بما فيها من ثغرات أو جهل بالتعديلات التي أدخلت عليها، ولكن لأنها المدرسة التي تنظر إلى الأشياء في كليتها وعمومها وتكاملها وتماسكها، ويستوي في ذلك نظرتها إلى الإنسان الفرد أو إلى المجتمع أو إلى العالم بأسره، وتحاول البحث والكشف عن عناصر التكامل والتكافل والتضامن في الحياة، وترى أن التوازن هو الغاية الأخيرة من كل أنواع النشاط الاجتماعي والعلاقات الإنسانية وأنه هو الهدف الأسمى الذي يعجز الإنسان عن تحقيقه. فالإنسان يرفض الهيمنة بمختلف أشكالها ويقاومها لإثبات ذاته ولذا فإن كل ما ينشأ من صراع بين البشر وبين الطبقات أو بين الدول إنما يهدف في آخر الأمر إلى تحقيق التوازن ،وهذه مبادئ طبقتها في كل دراساتي الميدانية بل وفي نظرتي الخاصة إلى الأمور الحياتية المختلفة وفي علاقاتي مع الآخرين. بل إنني التزمت بها في بحث قديم عن الثأر في إحدى مناطق الصعيد وذهبت فيه إلى أن الثأر ليس مجرد فعل بسيط يهدف الى الانتقام لمقتل أحد أفراد الجماعة، وانما هو (نظام اجتماعي) يهدف في آخر الأمر إلى إعادة التوازن الذي كان قائما بين الجماعتين (المعتدية والمعتدى عليها) قبل وقوع حادث القتل الذي أصاب ذلك التوازن بالخلل نتيجة فقدان أحد أفراد الجماعة المجني عليها. وأن الوسيلة الوحيدة المقبولة لإعادة التوازن هو إنقاص الجماعة المعتدية بنفس القدر الذي نقصت به الجماعة الأخرى، وأن

مبدأ العين بالعين والسن بالسن والأنف بالأنف والأذن بالأذن الذي ورد ذكره في القرآن الكريم هو قانون للتوازن الاجتماعي.

المصادفة وحدها أيضا هي التي جمعت ذات مساء في أواخر عام ١٩٥٨ على عشاء رسمي في لندن بين المرحوم الدكتور عباس عمار، أحد عظماء مصر وأحد كبار علماء الجغرافيا، وإيفانز بريتشارد أحد أساطير الأنثربولوجيا في بريطانيا والعالم. وكان عباس عمار يشغل حينذاك منصب نائب مدير مكتب العمل الدولي في جنيف وذلك بعد أن اختلف وهو وزير للشئون الاجتماعية مع جمال عبدالناصر وترك مصر بأسرها إلى مجال العمل الدولي، بينما كان إيفانز بريتشارد أستاذا للأنثربولوجيا في جامعة أكسفورد حيث تتلمذت عليه لست سنوات في الخمسينيات. ويجري الحديث بين الرجلين، ويرد ذكر اسمي على لسان إيفانز بريتشارد. ولست أدري ماذا قال عني، ولكن عباس عمار الذي لم أكن أعرفه إلا بالاسم ولم يكن هو يعرف عني شيئا بطبيعة الحال أسند إليّ القيام بدراسة ميدانية بين البدو في مصر وفي سوريا أيام الوحدة بين القطرين، ثم عرض عليّ بعد ذلك في أوائل الستينيات، العمل في قسم أنشئ حديثا بمكتب العمل الدولي يختص بشئون المجتمعات الوطنية في العالم الثالث. وكان من الطبيعي أن أنبهر بالعرض خاصة أنني كنت مدرسا في أول السلم الأكاديمي، ولذا قبلت العرض بقوة الإرادة المنفعلة التي هي «مبدأ وحدة الحياة» والتي توجد «كامنة وراء كل نشاط بشري» كما يقول تونييس، وأن أعمل في المنظمة الدولية لعدة سنوات معاراً من جامعة الإسكندرية، أتيح لي أثناءها القيام بدراسات ميدانية موسعة ومكثفة بين الجماعات البدوية في كل صحارى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وكذلك بين قبائل جنوب السودان وشرق أفريقيا وغربها، كان لها ولا يزال تأثير بالغ في تكويني الأكاديمي والتعرف على كثير من الثقافات الأفريقية التي تتفاوت

في مظاهرها ونظمها وسلوكيات الأهالي فيها ولكنها تشترك جميعا في نفس المبادئ الذهنية والقيم الأخلاقية على الرغم من التباين في التعبير عن هذه المبادئ والقيم. وكانت هذه التجارب الميدانية هي الركيزة الأساسية التي يقوم عليها إيماني العميق بوحدة الجنس البشري في كل زمان ومكان، وأن الاختلافات في اللغة أو العرق أو الدين لا تلغي ذلك الأساس المشترك ،وأن ثمة مساحات هائلة لإمكان التفاهم والتقارب بين الشعوب ،وأن معرفة تلك الثقافات المختلفة ودراستها تؤدي بالضرورة إلى احترامها واحترام أصحابها والكشف عن تلك المبادئ المشتركة، وإدراك أن الصراع بين المجتمعات الإنسانية يقوم في جزء كبير منه على عدم المعرفة وعدم الفهم اللذين يؤديان إلى الشك والتوتر والعداء. وقد تبدو هذه أمورا بديهية ومسلما بها، ولكن الادراك العميق لهذه الأمور القائم على التجربة المباشرة يبرز هذه البديهيات والمسلمات في كل أبعادها وأعماقها ويحولها إلى حقائق تكاد تكون محسوسة وملموسة.

وقد تعززت هذه الأفكار بعد ذلك بسنوات طويلة نتيجة لدراسات ميدانية أخرى قد تكون أقصر وأقل كثافة وتعمقا ولكنها لا تقل في مغزاها الأخير عن الدراسات الأولى، وذلك حين أتيح لي القيام بهذه البحوث في بعض مجتمعات الشرق الأقصى حين شاركت في إحدى بعثات اليونسكو لإعادة اكتشاف طرق الحرير، طرق التلاقي الثقافي، وبالذات الطريق البوذي الذي فتح أمامي المجال لأن أواصل ما كان انقطع من اهتمامي المبكر بدراسة ثقافات وديانات الشرق القديم.

ولكن حين جاء الوقت الذي كان يتعين عليّ أن أختار بين الاستمرار في العمل الدولي أو العودة إلى الجامعة قضت الإرادة الفاعلة العاقلة لرشيدة بضرورة العودة إلى الحياة الأكاديمية. والظاهر أنني خُلقت كي أكون مدرسا ومعلما، وهذا هو الذي يدفعني إلى طلب العلم الاستزادة منه طيلة الوقت وعلى طول العمر. فلن يستطيع أن يتولى

التعليم من لا يبدأ بتعليم نفسه. ولم أندم قط على اختياري العودة إلى الجامعة على الرغم من كل ما طرأ على الجامعات في مصر من تغيرات سلبية في المعايير والقيم والسلوكيات والمستوى. كذلك كانت الإرادة الفاعلة وراء استمراري في الاهتمام الفائق بأفريقيا وثقافاتها ونظمها الاجتماعية وعلاقتها بمصر والعرب والإسلام وأن يتجه معظم اهتمامي إلى معرفة العقل الافريقي وإنجازاته في الأدب والفن والفلسفة وكذلك معرفة الهوية الافريقية ومقوماتها الأساسية، وإن كنت لم أغفل الاهتمام بالتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهي الأمور التي تستهوي الكثيرين على أي حال. وبالمثل كانت الإرادة الفاعلة ولا تزال تدفعني إلى مواصلة الاهتمام والانشغال بمشكلات البدو الرحل وحياتهم ونظمهم وتقاليدهم وقوانينهم العرفية التي تعكس نمطا من القيم السامية الرفيعة التي لا تهتم الحضارة الحديثة بإبرازها أو الاعتراف بها. وقد تكون ظروف الحياة ومتاعب الانتقال والسفر قد باعدت بيني وبين القيام بدراسات ميدانية جديدة في أفريقيا لمتابعة التغيرات عن قرب وبطريق مباشر، ولكنها لم تفلح حتى الآن في المباعدة بيني وبين الصحارى المصرية التي أعثر فيها على هدوء نفسي وصفاء ذهني بفضل ذلك الخلاء الفسيح المترامى الذي يدعو إلى الاستغراق في التفكير والتأمل الطويل العميق البعيد عن متاعب الحياة اليومية وأدرانها ويرتفع بالروح إلى طبقات عالية جدا من السمو والراحة والاستكانة والهدوء. وليس غريبا أن تكون الأديان الكبرى نشأت في مناطق الخلاء الواسع الممتد إلى ما لا يدركه البصر والذي لا يملؤه سوى قوة الخالق وعظمة قدرته.

ولقد جمعتني المصادفة ذات مساء في أواخر عام ١٩٦٨ أثناء عملي بجامعة الكويت الناشئة بالمرحوم أحمد مشاري العدواني على عشاء في منزل أحد الأساتذة المصريين، وكان العدواني يشغل في ذلك الحين منصب الوكيل المساعد لوزارة الإعلام التي كان يتولاها الشيخ الجليل

جابر العلي. وبشكل ما وجدتني أدخل في حديث طويل مفتوح مع العدواني وفي ألفة غريبة وحميمة كما لو كان يعرف أحدنا الآخر منذ سنين. ويتطرق الحديث الثنائي بيننا بعيدا عن الآخرين إلى أوضاع الثقافة وأوجاع المثقفين في العالم العربي. ولست أذكر الآن من منّا نحن الاثنين ذكر أن الأمر يحتاج إلى صدور مجلة ثقافية رفيعة المستوى تقدم خلاصة الفكر العالمي وإنجازاته الثقافية والعلمية والفنية وتهتم في الوقت ذاته بالتراث العربي الإسلامي وتقديمه في ثوب جديد وقراءة واعية حديثة تساعد على وصل الحاضر بالماضي وتعرف القارئ العربي بتاريخه الثقافي العريق ومنجزاته الفذة التي تكاد تكون مجهولة إلا للمتخصصين.

وقد انفعلت انفعالا شديدا للفكرة التي سيطرت على تفكيري لعدة أيام وحلق الخيال في أجواء عالية حول ما يمكن أن تكون عليه مثل هذه المجلة والدور الذي يمكن أن تلعبه في تحديث الفكر العربي بوجه عام، إلى أن التقينا مرة أخرى ولكن على موعد لنتحدث جدياً في الموضوع الذي كرسنا له بعد ذلك جانبا كبيرا من الجهد والوقت والتفكير حتى خرجت «عالم الفكر» إلى الوجود، وتحقق بذلك عام ١٩٧٠ ما كان يبدو مجرد حلم جميل عام ١٩٦٨، وذلك نتيجة الالتجاء إلى الإرادة العقلانية الرشيدة الحازمة التي تستطيع التخطيط والتنفيذ. وقد التزمت المجلة منذ صدورها بالسياسة الثقافية التي حددناها لها والتي ترضي الضمير الخلقي وتخضع لأحكام ومقاييس العقل وإرشادته.. ومن تآلف إحساس أوامر الضمير الذي هو أداة الإرادة المنفعلة وأحكام ومنطق العقل لذي هو أداة الإرادة الفاعلة. استمرت المجلة في العمل على تحقيق لآمال العريضة التي تهفو إلى اللحاق بثقافات الغرب المتغيرة المتنوعة إحياء الاهتمام بالتراث العربي الإسلامي والثقافة العربية التي كانت بدو في كثير من الأحيان راكدة ساكنة لا تكاد تتحرك.

وإن كان هذا الركود والسكون الظاهران يخفيان تحتهما براكين من الرغبات المتأججة المكبوتة التي تحاول التنفيس عما تحمله من مشروعات وآمال، والانطلاق لتغيير الأوضاع القائمة وكسر ما بها من جمود.

ولقد كنت دائما شديد الإعجاب بالثقافة الغربية وبرسالتها التنويرية، وذلك منذ أيام النشأة المبكرة في الإسكندرية التي شاهدت كبار رجال الفكر والأدب الأوربيين وبخاصة من الفرنسيين الذين كانوا يفدون إليها للمحاضرة في المركز الثقافي الفرنسي أو «البيت الفرنسي» كما كان يدعى حينذاك، كما كانت تستقبل فرق الموسيقى والباليه والأوبرا التي كانت تأتي تباعا إلى مصر لتقديم عروضها وحفلاتها الرائعة المبهرة في القاهرة والإسكندرية.

وقد عاش في المدينة في تلك الفترة عدد من رجال الفن والرسامين الإيطاليين بالذات الذين أسهموا في تكوين مدرسة من المصريين البارعين في فن الرسم والتصوير والذين أفلح بعضهم في أن ينقش اسمه في السجل الفني لمصر. وكانت مكتبات الإسكندرية تعرض أحدث ما تخرجه المطابع في الخارج من كتب ومجلات بكل اللغات، وذلك إلى جانب المؤلفات والمجلات الثقافية المصرية والعربية التي كانت تشهد فترة ازدهار رائعة في الثلاثينيات والأربعينيات. وقد ساعد على تعميق تقديري وإدراكي لأبعاد الفكر الغربي المتنوع الراقي سنوات الدراسة الطويلة في أكسفورد التي تمثل مركزا إعلاميا وأكاديميا وثقافيا رفيع المستوى إلى أبعد الحدود، ثم سنوات العمل في منظمة العمل الدولية بجنيف التي تزخر حياتها بمختلف التيارات السياسية والحركات الاجتماعية وتشهد كثيرا من المؤتمرات الدولية التي تتعرض لمشكلات العمل والفقر والمرض والتخلف مما أتاح لي الفرصة للتعرف على أشكال عديدة من معاناة البشر في مختلف بقاع العالم إلى جانب ما كنت قد لمسته بنفسي من بؤس وشقاء سواء في صحارى الشرق الأوسط أو في

غابات وأحراش أفريقيا دون أن يمنعني ذلك الشعور من تقدير ثقافاتها والانفعال بكثير من جوانبها الإبداعية التلقائية. ولم تنقطع صلتي بالفكر الغربي بعد أن عدت إلى مصر وإلى الوطن العربي فقد كنت ومازلت كثير التردد على أوربا وإلى حد أقل على أمريكا التي لم أعجب بها كثيرا على أي حال. ولكن هذا الإعجاب الشديد بثقافات الغرب لم يكن يعني الانصراف عن الاهتمام بالثقافة العربية الإسلامية المتأصلة في عقلي ووجداني بحكم النشأة الأولى أيضا وبفضل المناخ الثقافي العام الذي كان يحمل لواءه عدد من كبار المفكرين والأدباء والشعراء العرب الذين كانوا يتخذون من مصر ومجلاتها منبرا لنشر جانب كبير من إبداعهم الفكري والأدبي والفني، ولم تكن الإسكندرية بعيدة عما كان ينطلق في أجواء القاهرة من إنجاز وإبداع.

إنما الذي كان يؤرقني دائما هو نسيان الثقافات الأفريقية وعدم الاهتمام بها في مصر بالقدر الذي ينبغي أن تحظى به تلك الثقافات من دراسة وفهم واحترام، خاصة أن هذه الثقافات تزخر بكثير جدا من روائع الإبداع في الأدب والفن والفلسفة، وهو إبداع يصدر عن روح معذبة غير مستقرة ولكنها متحفزة ومتوثبة وتحاول أن تفهم الحاضر وتستوحي إلهامها من تراث الماضي بكل ما فيه من سحر وأساطير وغيبيات وقيم وتقاليد.

وكان يؤرقني دائما أيضا إغفال بل وإهمال ثقافات الشرق الأقصى القديم والحديث على السواء وهي ثقافات شديدة الغنى والثراء بأديانها وفلسفاتها وأخلاقياتها وآدابها وكتاباتها التي نُقل معظمها إلى اللغات الأوربية دون أن تحظى العربية منها بالكثير. وكنت قد قرأت منذ سني الدراسة الجامعية بعض كتب الفيدا مترجمة إلى الإنجليزية. كما قرأت أجزاء مطولة جدا من ملحمتي الهند الشهيرتين: الرامايانا والمهابهاراتا، وسيطرت على مشاعري أحداث الرامايانا بالذات لما تحمله شخصياتها

من قيم أخلاقية سامية تتمثل في الالتزام بالواجب وإدراك المسئولية وإطاعة التعاليم والصبر على المتاعب ثم إخلاص المرأة الهندية للزوج. ولا تزال أحداث الملحمة تمثل حتى الآن سنويا في بعض المدن الهندية حتى ترسخ في الإنسان الهندي المعاصر تلك القيم والتعاليم والتقاليد السامية. ولم تكن قراءتي للرامايانا التي مازلت أغرم بها غراما شديدا مجرد قراءة للمتعة الذهنية والروحية الخالصة، وإنما هي أيضا قراءة الباحث الأنثربولوجي الذي يهتم بالدراسة والفهم وعقد المقارنات، ولذا كنت أرى فيها دائما صورة أخرى من أسطورة أوزيريس وإيزيس بل ومن قصة أيوب وناعسة. فالرجل في الأعمال الثلاثة يخضع لكثير من العذاب والألم ويتحمل ذلك في كثير من الصبر والاستسلام والخضوع لحكم الأقدار وذلك على العكس من المرأة التي تتحمل هي أيضا نصيبها من العناء ولكن بغير استسلام وفي كثير من التحدي ومحاولة التغلب على الشدائد لإنقاذ الزوج وتخليصه من العذاب. ومازلت أرى الأنثى هي التي تحمل عبء الحياة وتضحي براحتها في سبيل الزوج والولد وللمحافظة على الأسرة وعلى المجتمع بل وعلى الكون بأسره. ولا تزال هذه المشابهات في الأعمال الكبرى تسترعي انتباهي وتستحوذ على فكري وتترسب في أعماق ضميري وأجد فيها ثروة هائلة تكشف عن عمق الطبيعة الإنسانية وما فيها من نبل وسمو ورفعة.

خلال هذه الحياة التي طالت واستطالت حتى بلغت ثلاثة أرباع القرن والتي كانت مليئة بالأحداث والرحلات والعلاقات والاتصال بالمجتمعات البدوية في الصحارى والجماعات القبلية في أفريقيا والثقافات التقليدية العريقة في الشرق الأقصى والدول الصناعية في أوربا وأمريكا كان الإنسان ـ الفرد والفكرة والمفهوم ـ يحتل بؤرة اهتمامي، وهو ما يتفق تماما مع فرع المعرفة الذي قررت بإرادتي الفاعلة أن أتخصص فيه، وهو الأنثربولوجيا أو علم الإنسان، فالإنسان الخلاق هو

مبدع الثقافة وحاملها وهو الذي يستحق في نظري كل العناية والاهتمام عن طريق الدراسة المتأنية المتعمقة التي تبغي الفهم القائم على التعاطف والاحترام.

ولقد علمتني الأنثربولوجيا ودراستي للإنسان في تلك المجتمعات والثقافات المتباينة والتي عرفتها من خلال البحث الميداني، أو عرفت عنها من خلال القراءة، أن التجربة الحسية وحدها لا تفيد ولا تكفي لفهم «الإنسان» في كل أبعاده إن لم يكن وراء هذه التجربة عقل يفكر وينظم ويحلل ويفسر، وإن لم يعزز ذلك كله ضمير وجداني يتذوق ويحكم بتلقائية عفوية بسيطة وبعيدة عن التعقيد. وأعتقد أنني كنت مهيأ لذلك منذ البداية دون أن أدري وذلك بحكم نشأتي الأولى المبكرة في بيت تتحكم فيه قوى العقل العملي الحازمة الصارمة وقوى الضمير الديني والحس الفني والجمالي، وقد أفادني ذلك كله فيما بعد في النظر إلى الثقافات والمجتمعات على أنها تؤلف وحدات متكاملة تندمج فيها النظم الاجتماعية بالمعتقدات الدينية والأفكار الغيبية والإبداعات الفنية والأدبية والفكرية التي يصعب الفصل بينها وتحتاج لفهمها إلى تآزر وتعاون العقل والضمير والذوق. وكان لذلك أثره بغير شك في تمسكي واستمساكي القوي بالمدخل البنائي والمنهج البنائي الوظيفي في دراسة الإنسان والثقافة والمجتمع، ولكن الأهم من ذلك هو العلاقة الحميمة القوية التي تقوم على الفهم والتعاطف والتقدير للثقافات الإنسانية المختلفة باعتبار كل منها يمثل جانبا واحدا بسيطا ولكنه مهم من الطبيعة البشرية الشديدة العمق والتعقيد والتي لن يمكن التغلغل إلى أغوارها البعيدة بغير الإحساس بالحب للإنسان في ذاته وللإنسانية في مجموعها. ولعل أكثر ما يحتاج إليه العالم الآن هو المحبة الخالصة الخلاقة التي تقوم على التفاهم والتي تستطيع أن تمتد بحيث تشمل وتضم إليها كل فئات البشر. فالمحبة تولد المحبة والاحترام يقابل

بالاحترام بينما الشك والريبة يولدان الخوف والتوتر والكراهية التي ليس لها قرار. ولقد كانت الأنثروبولوجيا والآداب، وبخاصة الآداب الكلاسيكية التي مازلت مغرما بها لعمقها وإنسانيتها، هما وسيلتاى لفهم الإنسان وحب الإنسانية واحترام ثقافاتها بكل قوتها وضعفها.

وإذا كانت المصادفات قد لعبت دورا أساسيا في حياتي والتدخل في رسم الطريق الذي سرت فيه فإن العمل الجاد القائم على إرضاء الضمير وتحكيم العقل كان يساعد على تحويل هذه المصادفات بما تحمل من آمال وتمنيات إلى بناء صلب وراسخ ومتماسك أرجو أن يكون فيه بعض النفع للآخرين.

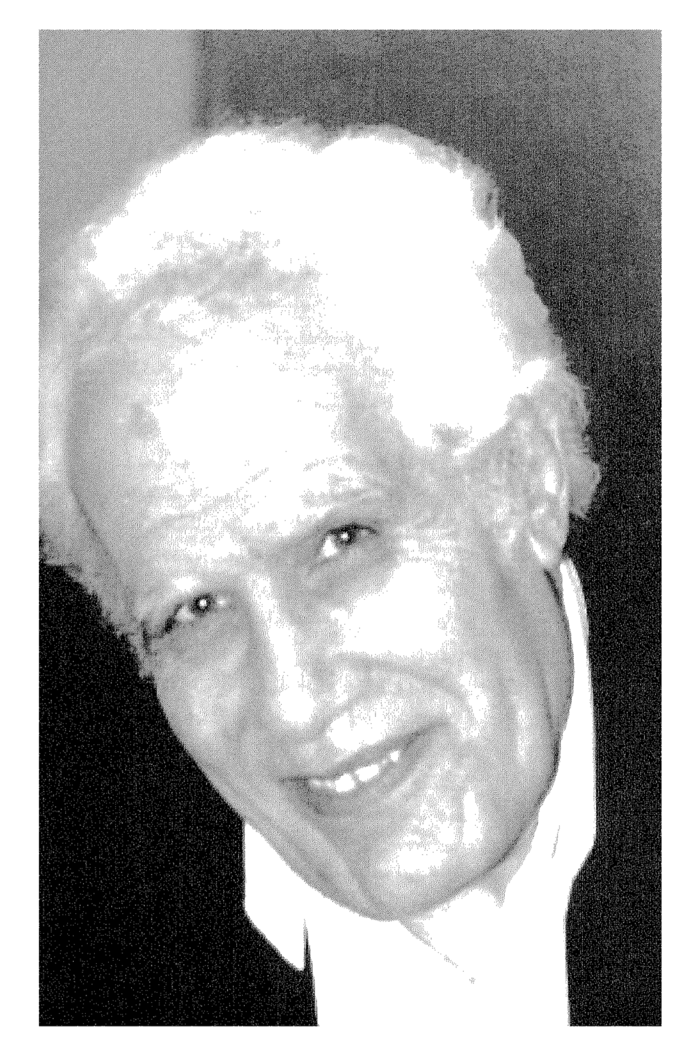
---

* العربي - العدد ٤٨٩ - أغسطس ١٩٩٩م.

في العلم والشعر*

لم أكن قد بلغت العشرين. كنا في أوائل أكتوبر ١٩٥٤. كنت قد عينت بالإصلاح الزراعي في عزبة الفؤادية، قرب قريتنا الصلاحات، دكرنس (شمال القاهرة). وصلت بالأوتوبيس إلى ميت فارس عند بعض أقاربي. أبلغت التفتيش تليفونيا بمكاني. أرسلوا عربة دوكار تقلني إلى الفؤادية. وصلت العربة والشمس توشك على المغيب. ركبت. كان الجو يميل إلى البرودة. ترك الدوكار القرية ومضى يجري بين الحقول. أحب الحقول. فجأة شعرت أنني وحيد. أواجه العالم الآن وحدي. تركت ورائي الأهل والأحباب وأصدقاء عمري. خوف غريب تملكني. خوف لم أعرفه قبلاً. أي بشر في انتظاري؟ أي مستقبل ينتظرني؟ ها أودع الآن عالماً كان جميلاً شغلته في الصبا. ها أقترب حثيثاً من عالم آخر جديد. طافت بعيني دمعة حبستها. أخذت أنظر إلى السماء والظلام يخفيها رويداً رويداً. سألت نفسي، لماذا أحبس الدمعة. سالت، وتركتها تسيل. صامتاً كنت والسائق صامت. تعود الذكريات. الحزينة منها تعود مع الليل

كان وداعا قصيرا. قبلني والدي واحتضنتني والدتي تبكي، حملت حقيبتي الصغيرة وخرجت. لم يكن قد مضى على تخرجي في كلية الزراعة سوى بضعة أشهر.



والوحدة. ها أصبحت حياتي الماضية ذكرى. يا خسارة. وتذكرت.

طفلاً كنت في العاشرة، كنت في السنة الرابعة الابتدائية بمدرسة المطرية دقهلية، كان مدرس اللغة الإنجليزية هو «شفيق أفندي»، سأل المدرس صديقي يوسف شطا سؤالاً، لم يستطع الإجابة، زجره وقال: روح موت. مضت أيام ثلاثة ولم يظهر يوسف. في اليوم الرابع وصلنا خبر موته، بكيت وبكيت. هذا ظلم. هذا ظلم. شفيق أفندي قتله. في «الفسحة» كتبت خطاباً إلى رئيس الوزراء، كان أحمد ماهر باشا. لا أعرف ماذا كتبت! آه لو أعرف! مضيت خارج المدرسة مع زميل، كان اسمه ضرغام، وكان سميناً، اشترينا ظرفا وطابع بريد، عندما هممت بإلقاء الخطاب في الصندوق، إذا بيد تمسك ذراعي، كان سعد أفندي عبدالملك، مدرس الحساب، ما هذا؟ سألني، بكيت، أخذ الخطاب مني، اصطحبني عائداً إلى المدرسة، حاول في الطريق أن يخفف حزني، مضى بي إلى مكتب الناظر: توفيق أفندي عفيفي، كنت على رأس طابور يضم كل تلاميذ الفصل، عددنا كان ثمانية عشر، بكيت أمامه، لم أستطع أن أعتذر عما فعلت، ما الخطأ فيما فعلت؟ في اليوم التالي كنت ثانية على رأس الطابور خلف الجنازة حتى المقابر، كانت في الطرف البعيد من البلدة. السماء تمطر بغزارة، أبعدنا سعد أفندي عن المقبرة، سمعته من بعيد يلقي خطاباً فوق القبر، بصوت متهدج باك: «ولدي يوسف، هل تبكي السماء حزنا عليك يا يوسف؟» عدنا إلى الفصل، كانت الحصة الأخيرة حصة الخط. كتب المدرس على السبورة:

الخط يبقى زماناً بعد صاحبه

وصاحب الخط تحت الأرض مدفون

أذكر هذا البيت. لا أنساه. عاد كل هذا حيا، وأنا أجلس في الدوكار صامتاً.

وصلت العزبة. مجرد شارع واحد على جانبيه اصطفت أكواخ، ثمة كوخ إلى اليمين تضيئه «لمبة سهاري»، تطلق فوقها خيطاً طويلاً من دخان أسود. كان دكان العزبة الوحيد. كان به للعجب راديو. سمعت وأنا أمر أمامه عبدالوهاب يغني. كانت أغنية «أحبك وأنت فاكرني- وأحبك وأنت ناسيني». كم أحب عبدالوهاب، وكم أحب هذه الأغنية.

ثمة مبنى بعد قليل من طابق واحد على الجانب الأيسر.

أخبرني السائق إنه «الإدارة». أمام مبنى الإدارة باب واسع لدوار. في نهاية الشارع إلى اليمين كانت الفيلا التي سأسكن بها. فيلا ضخمة هائلة كانت يوماً لأميرة حولها حديقة واسعة واسعة. حملت حقيبتي ونزلت. استقبلني خادم أسمر نحيل صارم الوجه «حمدا لله على السلامة». قالها في صوت خفيض وهو ينظر إلى الأرض. دخلت الفيلا. قاعة واسعة بها منضدة كبيرة عليها «لمبة جاز». وعشاء. لم أكن جائعاً. طاف بي الخادم في حجرات الفيلا جميعاً. الأثاث فاخر.

أرشدني إلى حجرة نومي، في الركن الأيمن. لها نافذة وحيدة تطل على الحديقة. بها سرير ودولاب كبير وكرسي وكوميدينو عليه لمبة جاز نمرة ١٠. شكرت الخادم وتركني ليمضي إلى منزله. وحيداً جلست على السرير. قمت وفتحت النافذة. أشباح أشجار السرو تبدو حزينة. أصوات الضفادع والجنادب تملأ الحديقة المظلمة. لسعة من هواء بارد تصافح وجهي. أحب هذا البرد الصغير. أخذت أحدق في الظلام ودمعي يجري بلا سبب. عاد لي الإحساس الخائف بأنني أواجه الكون وحدي. وداعاً يا عالمي القديم الحبيب.

كيف سأقضي أيامي هنا. معي كنت أصحب بضعة كتب. ملاذي الوحيد.

في الصباح تعرفت على من سأعمل معهم. أحمد عبدالباقي الرئيس، والمهندس الدياسطي الشربيني زميل. أنجب الدياسطي بعد أسابيع من وصولي طفلاً أسماه الشربيني. خصصت لي فرس بيضاء جميلة كان اسمها «الرهوانة». قالوا إنها كانت تخص إبراهيم عبد الهادى باشا. أوكل إلي الإشراف على «عزبة الربعمية». بعد أيام كنت هناك. كان الأطفال يجمعون القطن. أحب أطفال الريف كثيراً. كثيراً. كنت منهم. وجدت طفلاً فيه وجه مصر، حبيبتي مصر. بهجة غامرة وحزن. خفي وعميق. سألته عن اسمه. أحمد. ثم؟ محمود- ثم؟ إبراهيم، أحمد محمود إبراهيم. اسم أعز أصدقائي. ربت على رأسه باسماً. أعطيته قرشين. قطعة فضية واحدة صغيرة.

كان أحمد محمود صديقاً للشاعر الكبير صلاح عبدالصبور. تزاملا بمدرسة الزقازيق الثانوية. كنت قد قرأت قصيدة «الملك لك» لصلاح. كانت أول قصيدة أقرؤها من الشعر الحر. أحببته على الفور. الشعر الحر، وصلاح. كنت أحفظ كثيراً من الشعر. لا أعرف سبباً لذلك. كانت مجلة آخر ساعة تنشر في كل أربعاء قصيدة جميلة يرسمها بيكار. كنت أحفظها أولا فأولا. مرة حاولت أن أحفظ مسرحية «مصرع كليوباترة» لشوقي! لكن قصيدة «الملك لك» هذه أثرت فيّ كثيراً. كتبت بعدها لأول مرة في حياتي قصيدة. كانت من الشعر الحر. كان عنوانها «غداً نلتقي» كتبتها تحت شجرة الجميز الضخمة عند قمة جزيرة الروضة. طلبت من أحمد أن يرافقني لأقرأها أمام صلاح. كان صلاح أيامها مدرساً. مضينا إلى نادي المدرسين. كان يقع في الطابق الأخير من مبنى مرتفع في أحد شوارع وسط القاهرة، قرب ميدان الأوبرا، وجدنا صلاح. جلست أمامه في خجل أقرأ القصيدة. أرجو ألا تكون قد أصابته بالضجر. ظل ساكتاً، حتى وصلت إلى قولي: «وهذي المياه.. فأصل المياه بكاء

المحبين منذ القدم». نظر إليّ وسأل: ما عملك؟. قلت: مهندس زراعي. كان قد مضى على تخرجي شهران. نظر إلى أحمد وقال: كاتب هذه القصيدة شاعر. كدت أطير يا رباه. أية سعادة ليلتئذ غمرتني!

تمضي الأيام في العزبة بطيئة. انهمكت أقرأ. استولى عليّ تماماً كتاب عنوانه «حدود العلم» كتاب في العلم والفلسفة ترجمته بعد سنين أربع ولم أنشره حتى الآن. سحرني العلم. سحرتني الفلسفة. وكان الشعر أيضاً يسحرني. كثيراً كثيراً. كنت أخرج بعد الغداء وأمضي وحدي بعيداً، أجلس على الأرض في ظل شجرة عند ترعة قريبة. وأكتب الشعر. كنت أصف ما حولي، وما يجول بداخلي. «عند أعواد الذرة. قرب عيدان الحطب. تحت ظل يحتويني. بين همس الكزورينا. وضجيج الذكريات». بدأت أفكر. ترى ماذا أريد؟ انتهت مرحلة من حياتي. حلوة كانت رغم كل شيء. عليَّ أن أرسم لنفسي خطا. شيء واحد كنت متأكداً منه. لن أعمل إلا فيما أحب. لا ولن أصلح في عمل لا أحبه. قدرت علينا هذه الحياة. فلنحياها نعمل ما نحب. أحببت العلم والشعر حباً حقيقاً. لا، بل عشقتهما عشقاً. ولا أزال. كلاهما يخاطب أعماق الإنسان الذي كنته. وأكونه. أي السبيلين طريقي. كلاهما عزيز وقريب. سبيلان؟ لقد توحدا بداخلي. للقلب عالم وللعقل آخر. كذا يقولون. لكن جوته كان شاعراً كبيراً. وكان أيضاً عالماً كبيراً. تتصارع الأفكار في عقلي وأنا أجلس صامتاً أمام المياه. أمام الحياة!

أعود إلى «حدود العلم» يذهلني الكتاب أكثر وأكثر. أنغمس فيه أقرأ. بوانكاريه يقول إن الحل العلمي للمشكلة ليس له من الأهمية مثل ما لجمال الطرق التي أدت إليه. للعلم جمال نصبو إليه. العاطفة التي توجه العالم تشبه عاطفة الناسك أو العاشق. تقرأ قصيدة

لشاعر فتتمنى لو كنت كاتبها. لو لم يكتبها هو لما كتبها أحد. هي الأصالة في الفن. كذا الأمر بالنسبة للنظريات العلمية. العامل الشخصي فيها أساسي. لو لم يوجد آينشتين لما ظهرت النسبية. لم تكن النسبية ذروة طبيعية للأفكار التى سبقتها. كانت أصيلة. لم تكن مفاهيم نيوتن هي الأخرى ضرورة نظرية. كانت أصيلة. العامل الشخصي الذي نلحظه في الفن نجده في العلم. إنما بدرجة أقل. إنا جميعاً نستطيع أن نميز الجمال والصدق. والفن موجه بشكل أكثر قصداً إلى الجمال. لكن، ليس من نظرية علمية نشأت بعيداً عن اعتبارات الجمال. سوى أن العلم بعكس الفن- يا للعجب- يتذوقه الجميع. العلم مفتوح لكل من يود. يستطيع الأعمى أن يُلم بكل نظريات الضوء. لكن العمل الفني لا يتذوقه إلا الخاصة. الشعر لا يتذوقه إلا من له الأذن الموسيقية والقلب الحساس. التبرير الأخير لكل نشاط ذهني هو أثره على زيادة إدراكنا ومعلوماتنا. الفنان الكبير يعرفنا بعالم لم نكن ندركه، يزيد معرفتنا بالحياة. والعلم يقدم لنا طرقاً جديدة في التفكير ويجعلنا أكثر دراية بالعالم الذي نحيا به، يرفع من آماد خيالاتنا. لنحلق أبعد وأبعد، يفتح آفاقاً جديدة للفن. للروح والعقل.

أترك الكتاب وأعود إلي واقعي. حائراً لا أزال. سافرت في إجازة إلى القاهرة في أوائل نوفمبر ١٩٥٤. في محطة الأوتوبيس بالمنصورة أشتريت مجلة «الرسالة الجديدة». بها كانت قصيدة للشاعر كامل أمين أيوب. عنوانها: قيود لا ترى. «يا أخي هذي يدي لا قيد فيها. وحديد الغل لا يربط ساقي. أفأبدو لك حراً؟ عجباً، لكنني أحمل نفسي. وأجر الخطو في غير انطلاق. وأجر الساق جرا. وكأني لست حرا. وكأني مستتيم لوثاق». حفظت القصيدة قبل أن أصل إلى القاهرة. وددت لو كنت كاتبها. فيها الكثير مما

كان يعتمل في نفسي آنئذ.

في الصباح، بعد عودتي بأيام، وصل مفتش من القاهرة. قصير سمين. صارم الوجه. جلس للإفطار معي. المائدة كانت ساعتها عامرة، أرسلها أحمد عبدالباقي. كان أمامي- ما زلت أذكر- طبق قشدة فلاحي.. أعشقها د ائماً. ولا أزال. سألني المفتش: سمعت أنك منحت طفلاً قرشين، هل هذا صحيح؟ نعم. كيف؟ كان له اسم أعز أصدقائي، وكان وجهه بريئاً وجميلاً. انتبه إلي وقال: هذا لا يصح. لا يجوز أن تعامل الفلاحين هكذا. لابد أن يخشاك الناس هنا حتى تحفظ هيبتك. لا يجوز أن يحسوا أن لك قلباً رحيماً.. حتى لو كان كذلك! كيف يا سيدى؟ كذا، ولا أحب أن أسمع أنك كررتها ثانية. صعقت. قرب الغروب ركبت الرهوانة انطلقت لأجلس أمام الترعة وحدي. لا أذكر ما دار بذهني يومئذ. ضجيج ضجيج. صراعات. يا أيتها الشمس الغاربة لماذا تكون الحياة هكذا! يستكثرون أن يحظى منا فلاح ببسمة. أو بكلمة حلوة. يكرهون أن يربت إنسان على كتف إنسان. يستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. يريدون أن يقتلوا فينا الطيبة وحب الناس. من نحن سوى الآخرين؟ من دونهم لسنا بشراً. لا يصح أن نكون. أمن أجل خمسة عشر جنيهاً- أحتاج إليها- يقتلون فيّ الإنسان؟ هذا ظلم. هذا ظلم. نسيت العلم والشعر. وتذكرت أنني قبل كل شيء إنسان. يحب الإنسان. الانسانية قبل العلم وقبل الشعر. لا ولم تدمع عيني.

في نفس ذلك الوقت كانت «الإدارة» منهمكة تحصر أسماء الفلاحين لتوزيع أراضي الإقطاعيين عليهم. يا للمفارقة.

استيقظت مبكراً ذلك الصباح، فتحت نافذة الحجرة. السماء ملبدة بالغيوم. ثمة برد خفيف أحبه. خرجت إلى الحديقة قبل السابعة. الندى يبلل العشب والنباتات. رائحة الياسمين تملأ الجو

وتسحرني. أحبها كثيراً جداً، بجوار السور النباتي لاحظت زهرة فوق شجيرة «الفل المجوز». نادرة في مثل هذا الوقت من السنة. توجهت إليها ومددت يدي كي أقطفها.

سمعت صوت رجلين خلف السور الكثيف يتجادلان. لم يسمعاني اقترب. فلاح كان يهدد أحد موظفي الإدارة بالويل والثبور. لقد دفع له ولم يدرج اسمه في قائمة من ستوزع عليهم الأرض. دفع له الرشوة أفيوناً كما قال. انسحبت في هدوء إلى الفيلا. رباه لِمَ هذا العذاب. انا لا أصلح للعمل هنا. العمل هنا لا يصلح لي.

بعد أيام حل عيد ميلادي العشرون. في المساء كانت السماء تمطر بغزارة غريبة. وقفت أمام النافذة أنظر في الفراغ المعتم الكبير. خلفي مصباح الجاز. شعلته ترتجف. كتبت قصيدة حزينة. «أعشرون عاماً مضت يا أخي؟. مضت، كيف ولت وكيف انتهت؟ أنا من بعيد أنادي السنين. أناجي السنين وأرثي لها. لقد غمرتني ذكرياتها». في الصباح كنت قد حزمت أمري. حملت حقيبتي الصغيرة وخرجت. كنت قد عشت في هذه العزبة خمسة وخمسين ويوماً. ودعت من عرفتهم. ركبت الدوكار. ومضى بي بطيئاً بطيئاً.

كان وداعاً قصيراً. قبلني والدي واحتضنني ووالدتي تبكي. أحبهما كثيراً. كثيراً. تجمع إخوتي حولي يودعونني حملت حقيبتي الكبيرة وخرجت. كنا في أواخر سبتمبر ١٩٦٠. مسافراً كنت هذه المرة بعيداً، إلى إدنبره، اسكتلنده. كنت قد حصلت على درجة الماجستير بمنحة دراسية من المركز القومي للبحوث. عينت بعد ذلك معيداً. تعلمت من دراستي في الماجستير أن الطريق لا يزال أمامي طويلاً. أن العلم صعب وطويل سلمه. ثم عرفت من قراءاتي رجلاً عظيماً اسمه ألان روبرتسون. تراسلت معه. وافق على أن ألتحق بمعهد وراثة الحيوان جامعة إدنبره، حيث يعمل. أدرس أولاً

دبلومة الوراثة ثم أسجل معه لدرجة الدكتوراه. حصلت من جامعة القاهرة على إجازة دراسية بمرتب. اصطحبني في رحلتي زميلي حامد نافع لنتجه معا إلى نفس المعهد. أبحرنا من الإسكندرية على ظهر الباخرة إسبيريا. إلى جنوه، ثم بالقطار عبر باريس إلى كاليه، ومنها بالبحر إلى دوفر. ثم بالقطار إلى لندن. كان ثمن التذكرة من الإسكندرية حتى لندن ٥٣ جنيها و ٢٣٠ قرشا. اشتريتها من شركة «فاروس» بشارع سليمان. وعلى الباخرة تذكرت تلك الرحلة المبكرة على الدوكار إلى عزبة الفؤادية. من سنين ست. كانت هي الأخرى إلى المجهول لكني كنت قد تغيرت. علمتني الحياة كثيراً. أصبح لي الآن هدف واضح. حلم أسعى كي أحققه. في الباخرة وأنا أرقب مياه المتوسط الزرقاء العميقة. لم يكن ثمة حزن. حتى عندما أمطرت ذات ليلة ونحن في البحر– وهذا وقت لاشك للتأملات الحزينة– خرجت إلى سطح السفينة سعيداً. أرشف القطر وأحيا. وأغنى. أنا الآن في طريقي لأسبح في بحور العلم. الزرقاء العميقة. الحنون. هناك في إدنبره يصنع العلم. هناك سألتقى صناع العلم. سيحبونني لاشك. لأني أحبهم. في القطار، ونحن نعبر الأراضي الفرنسية عاملنا الفرنسيون معاملة فظة قاسية. كانت معركة تحرير الجزائر على أشدها. يرحمك الله يا عبدالناصر، كم كنت أحبك. لكن الريف الفرنسي كما شاهدته من نافذة القطار كان رائعاً. مذهلاً. أخذ بلبي. سحرني حقاً. وعندما وطئت قدماي الشاطئ الإنجليزي في دوفر أحببت الإنجليز، فارق واسع بين سلوك حمال الأمتعة بمحطة دوفر وبين السلوك الهمجي لكمساري القطار معنا في فرنسا. تشعر مع الإنجليز بأنك إنسان وبأنهم بشر. وصلت إدنبره مع حامد صبيحة يوم أحد. تركنا الحقائب في الأمانات وخرجنا من محطة ويفرلي إلى برنس ستريت. كل المتاجر مغلقة. لا أحد في الطريق. لا

أحد. أريد أن أرى المعهد. الآن. أزعجنا كثيراً سير العربات إلى اليسار. أخيراً وجدنا رجل بوليس. سألته عن الطريق إلى كينجز بلدنجز. أرشدنا في أدب جم. وصف لنا بالضبط كيف الوصول. بعد نصف ساعة كنت أطوف حول المعهد، ومعي حامد. تذكرت مطلع قصيدة للدكتور إبراهيم ناجي عندما عاد مرة بعد طول غياب إلى دار أحبابه:

هـذه الـكـعـبـة كـنـا طـائـفـيـهـا
والمـصـلـين صـبـاحـا ومـسـاء

هأنذا أطوف. وغدا سأتعبد في هذا المحراب. محراب العلم.

قضينا الليلة في فندق صغير. في الصباح توجهنا إلى المعهد وقابلنا مدير الدراسات. تمكنا في المساء من العثور على حجرتين في شقة يستأجرها طالب نيجيري اسمه ريتشارد أوغيني. في اليوم التالي، الثلاثاء، بدأت دراسة الدبلومة. كنا أحد عشر طالباً من جنسيات مختلفة. لائحة الجامعلة تنص على أن العام الدراسي يبدأ يوم الثلاثاء الثاني من أكتوبر. كانت الدراسة صعبة حقاً. حتى طريقة التدريس كانت مختلفة. تستغرق المحاضرة خمسين دقيقة. نعود بعدها إلى المكتبة لنقرأها في بضعة مراجع- لا أقل من سبعين صفحة. ذهبت إلى رئيس المعهد يوماً- بروفسور كونرادهيل وادنجتون- أشتكي. أنا لا أستطيع أن أفهم إنجليزية الدكتور سيلمان، مدرس السيتولوجيا، استدعاه وأنا موجود. نصحني بأن اكتفي بكتاب عيّنه. يقع الكتاب في أكثر من ٤٠٠ صفحة! الامتحان النهائي يحمل سؤالاً واحداً من كل مادة. انتهينا من الامتحانات التحريرية. أربعة امتحانات في يومين متاليين. في اليوم الواحد ورقتان. وكان هناك امتحان شفوي أمام أستاذنا ومعه أستاذ الوراثة من جامعة أخرى. دخلت فوجدت أوراق اجاباتي التحريرية الأربع أمامهما. قال

وادنجتون إنه لأول مرة يجد طالباً لم يخطئ خطأ واحداً في أوراقه جميعاً. لم يكن ثمة أسئلة. إنما كان يريد أن يعرف رأيي فيما يدرس، وفيما أرى أنه ينبغي أن يدرس. خرجت منتشيا، ومضيت على الفور إلى المنزل. في الثانية جاءني زميل ليخبرني أن البروفسير يبحث عني ويريد مقابلتي. كنت في المعهد في لا زمن. وجدت الرجل مشغولاً في مقابلة. وقفت أمام لوحة الإعلانات قرب مكتبه أقرأ ما بها. ثمة يد بعد قليل تربت على كتفي. التفت لأجد البروفسور. صافحنى. قال إنه قرر لأول مرة في تاريخ المعهد أن يمنحني شهادة الامتياز. يا رباه. أسعد أيام حياتي.

ثم بدأت العمل للدكتوراه مع ألان روبرتسون، في أكتوبر ١٩٦١. كنت أعمل على صفة عديد الشعر على جانبي صدر حشرة ذبابة الفاكهة «الدروسوفيلا». كنت أحاول أن أعرف الجينات ذات الأثر الكبير على هذه الصفة، ومواقعها على الكروموزومات. هي صفة كمية، مثل إنتاج اللبن في الماشية أو عدد البيض فى الدجاج. كنا نذهب كل صباح في العاشرة إلى مكتب ألان، لنجلس جميعاً في فسحة القهوة نسمعه ونسمع الآخرين في مناقشات حول كل شيء. علم وأدب وسياسة، نصف ساعة. استفدت كثيراً كثيراً من هذه الجلسات اليومية. تعلمت كيف المناقشة العلمية. كيف احترام الغير والرأي الآخر، أذكر مرة أن عضواً بالمعهد عرض في جلسة ذات صباح نظرية له جديدة. وجدتها أنا معقولة جداً. كذا وجدها كل الحاضرين. إلا ألان! وقف على السبورة وأثبت أنها خاطئة تماماً. وكانت للعجب بالفعل خاطئة. ناقش الموضوع بذكاء وفي هدوء..وأقنعنا جميعاً.. وأقنع صاحبها، الذي ابتسم وخرج شاكراً، كان ألان في الحق والأذكى، كان أذكى من قابلت في حياتي، وكان خجولاً جداً. خجل حتى أن يقف معنا نحن طلبته لنأخذ صورة

نذكره بها. وكان متواضعاً للغاية. إنساناً. ثمة معادلة لم أستطع حلها. طلبت إليه أن يساعدني. بعد يومين تمكنت أنا من حلها. وجاء هو إليَّ بحل. جاءني في معملي يقول إنه قد تمكن من الحل، فقلت إنني قد تمكنت أيضاً. قفز وجلس على البنش. شرح طريقته في الحل. وشرحت له طريقتي. قال إنه لم يفهم حلي. قالها هكذا ببساطة بالغة، ألان روبرتسون بجلال قدره لم يفهم حلي! ويقولها بهذه البساطة! يا سلام! لكن، مادمنا قد توصلنا إلى نفس النتيجة، فلأكتبها في رسالتي بطريقتي. هي رسالتك أنت، كما قال.

عندما انتهيت من كتابة رسالة الدكتوراه، مضيت بها إليه صباحاً. عندما عدت إلى معملي في الثالثة وجدتها على مكتبي! فتحتها. لم أجده قد صوب إلا كلمات ثماني. ثماني كلمات فقط. مازلت احتفظ بالمخطوطة. توجهت إليه على الفور. هل قرأت الرسالة؟ نعم. لكنك لم تغير فيها شيئاً. نعم. لا أطلب منك أن تكتب أدباً إنجليزياً. ما كتبته مفهوم وليس به أخطاء. هل توافق على آرائي بها؟ ؟نعم،إلا ثلاثة آراء لم تعجبني، لكنها ليست خاطئة: إذا سألك فيها الممتحن فلتدافع عنها. ماهي؟ لن أقولها لك، وأعد بألا أسألك عنها في المناقشة، حتى هذه اللحظة لا أعرف ما لم يعجبه في الرسالة. أخذت المخطوطة إلى سكرتيرة المعهد، الآنسة مانينج. تفحصتها، رأت بها جزءاً كبيراً كله معادلات جبرية، قالت إنها لا تستطيع كتابة هذه المعادلات. عليَّ أن أبحث عن شخص آخر. خرجت من مكتبها مكتئباً. على باب المكتب وقبل أن أقفل الباب خلفي وجدت ألان. مالك؟ حكيت له ما كان. قال زوجتي تكتبها على الآلة. كانت يوماً سكرتيرة هذا المعهد. سمعت مانينج ما قاله ألان. قفزت من كرسيها وأخذت منى المخطوطة. كتبتها في خمسة أيام. أخذت نسخ الرسالة بعد تجليدها ومضيت إلى ألان في مكتبه. سألنى: من تحب أن

يمتحنك؟ قلت: بروفسور ثوداي، أستاذ الوراثة بجامعة كمبريدج. هو يعمل بالضبط في نفس المجال. قال: وهو كذلك. في نفس اليوم أرسلت الرسالة إلى ثوداي جلست إلى الزملاء. حكيت لهم. وإذا بواحد يقول: ألم تجد في إنجلترا كلها إلا هذا الرجل ليمتحنك؟ وماذا في ذلك؟ إنه ألد أعدا آلان روبرتسون. تقدما معا لشغل كرسي الأستاذية بكمبريدج، الكرسي الذي كان يشغله يوماً السير رونالد فيشر، وحصل عليه بالطبع ثوداي، ابن مدرسة كمبريدج. وكان بينهما ما كان! أصبت بذعر. بعد أيام كان ثمة حفلة في المعهد لاستقبال طلبة الدبلومة الجدد. توجهت إلى بروفسور وادنجتون. حكيت له ما حدث، وما سمعته. أصغى في هدوء بالغ بوجهه الصارم. سألني سؤالاً واحداً: هل قرأ آلان رسالتك؟ نعم. قال «ولا يهمك». معنى هذا أنني كنت أستطيع أن أتقدم بالرسالة دون أن يقرأها المشرف؟ أليست رسالتك وأنت المسئول عنها؟ يا رباه!

ناقشت الرسالة صبيحة يوم ١٤ نوفمبر ١٩٦٣، كان ثوداي رجلاً لطيفاً مرحاً، استمرت المناقشة أربعين دقيقة. عرضت في المناقشة رأياً، انفجر ثوداي عند سماعه يضحك ويضحك. خطأ؟ كلا، إنه لا يستطيع أن يقول إنه خطأ، لكنه لا يوافق عليه. هذا شأنك، قلت. قام الممتحنان ليصافحاني ويهنئاني. في الثالثة كنت بمكتبة المعهد، دخل عليّ آلان بعد أن ودع ثوداي على محطة القطار. صافحني وقال: أشكرك على أدائك الرائع في المناقشة. يشكرني؟! كدت أطير فرحاً. لا. طرت فرحاً.

كتبت في إدنبره شعراً كثيراً. ضاع معظمه وأسفاه! ليس لأهمية فنية فيه. لا سمح الله. إلا أن الشعر يعيد لكاتبه الماضي مجسداً. عندما أقرأ قصيدة لي قديمة- وكل قصائدي بالطبع قديمة- يعود إلى ذاكرتي كل شيء عنها بأدق تفاصيله. كل الأحاسيس والانفعالات

التي دفعتني إلى كتابتها، وحتى المكان الذي كتبتها فيه. أعيش تلك الحياة القديمة مرة أخرى. كان بعض شعري هناك حزيناً. لكن الكثير منه لم يكن كذلك. كنت أخرج كثيراً في جوف الليل بعد المذاكرة مرتدياً معطفى الثقيل. اشتراه من غزة صديق وأهدانيه. لا يهم إن كانت تمطر. هي دائما تمطر. رذاذاً على الأقل. أمشى طويلاً طويلاً. و«أغنى تحت المطر» - إذا لم يكن هناك من يسمعني. أذكر كثيراً عبدالوهاب وشوقي وأغنية «في الليل لما خلي». عرفني عسكر الليل. يبتسمون لي ويقرءونني التحية. ثم أعود لأكتب شعراً إن كان لدي ما أقوله. كل ما كتبت كان رومانسياً. الشعر عندي يعني الرومانسية. لا غير. الرومانسية، بكل ما قد يكون فيها من حزن ويأس، تخاطب روح الإنسان، أثمن ما في الحياة.

بعد عودتي من إدنبره، كنت أتلقى من ألان فى كل كريسماس بطاقة تهنئة بخطه الجميل. وفجأة أنقطع عن إرسال البطاقات. علمت أنه توفي. في أغسطس ١٩٩٠، وكنت عميدا لكلية الزراعة بالجيزة، قمت مع زوجتي بزيارة سريعة إلى إدنبره. كانت هي الأخرى تحب إدنبره. تقابلنا هناك وكانت لنا قصة جميلة في ربوعها. كم تجولنا في شوارعها. زرنا الأماكن التي عرفتنا. تغيرت كثيراً. ياه المتحف الذي أمامه تقابلنا بأول مرة. القلعة. نصب السير والتر سكوت التذكاري. هوليرود- كينج آرثر سيت. ثم وقفت أمام المنزل: ٣٨ شارع مونتبيليار بارك. هنا كنت أسكن مع حامد نافع وجلال النجدي. ثم توجهنا إلى بريد ستريت، إلى منزل ألان، وجدنا زوجته تودع شخصاً على باب الحديقة. وقفت أمامها.

نظرت إليّ. لم تعرفني. تغيرت كثيراً. تغيرت هي الأخرى. تماماً ككل معالم إدنبره. ألا تذكرين؟ أوه.. أوه.. وعرفتني. دخلت وزوجتي المنزل. طلبت منها صورة لألان.

وضعت أمامي عدداً، انتقيت واحدة، في المساء كنت في منزل الدكتور هنريك كاتشر، مدير الدراسات، على عشاء صغير. ووجدت هناك زوجة ألان. حكت لي كيف مات زوجها العزيز: «في مؤتمر بباريس، كانت محاضرة الافتتاح له. وقف يلقي محاضرته، وفجأة صمت. ثم سأل: ما هذا؟ من أنتم؟ أين أنا؟ أسرعت زوجته إليه واصطحبته إلى الخارج. كان الرجل مصاباً بمرض الزهايمر. هذا مرض وراثي. كان الوراثي العظيم مصاباً بمرض وراثي خطير، لا يظهر عادة إلا في الشيخوخة». تمضي زوجته تحكي وتبكي: «تصور. هذا الرجل الذكي العبقري الذي تعرفه وقد أصبح طفلاً. لم يعد يعرفني. لم يعد يعرف أبناءه».

أصبح طفلاً فجأة. شريراً. كان قوي البنية. مكث سنين قبل أن يتوفي. ثم أردفت: «كان لدينا كلب عاش معنا طويلاً، ثم أصيب بالسرطان، طلبت جمعية الرفق بالحيوان. أعطوه حقنة مات بعدها في هدوء». يزداد نحيبها وتستطرد: «لا أعرف.. لا أعرف، أليست هذه.. أليست هذه..» ثم غلبها البكاء وصمتت. دمعت عيني. بكت زوجتي. ولم يفتني ماكانت تقصده: الموت الرحيم.

كم أنت قاس أيها الموت! كم أنت قاس أيها الموت! قالها فاروق شوشة.

ومن يومها بدأ اهتمامي الجاد بالأمراض الوراثية للإنسان.

---

* العربي - العدد ٤٨٥ - أبريل ١٩٩٩م.

مرفأ الذاكرة | إدوار الخراط

عن ثمرة التجربة والقناع الذي سقط *



سوف تجد فترة الطفولة عندى شديدة الحيوية والبقاء، هي ليست عندي ماضيا قد اندثر، بل فترة انتفى عنها الزمن، لذلك سوف تجد أنها بؤرة نابضة ومتوهجة، تلقى بجذوة مستمرة في عملي القصصى والروائى، من حيث الواقع إذا شئت، مهما كان لهذه الكلمة من دلالة، فهى طفولة اسكندرانية صعيدية في وقت واحد، فقد جاء أبي من المدينة العريقة أخميم، ومازلت أحلم ولعلى أبدأ قريبا بكتابة رواية بعنوان «صخور السماء» تتناول أساسا هذا الموقع، بما يستقطبه من تيارات وشخصيات، ومشكلات وأسئلة وأجواء.

عرفت مفازع ومباهج عميقة الوقع في تلك السنوات المكونة الأولى من الطفولة، وعرفت الحب والإيمان وصداقات لا تنسى مع «زكي» الذي كنا نقوم معا بطقوس مسرحية بدائية على نحو ما رأينا في الأراجوز أو السيرك، ومع «وطواط» ابن خالتي الذي سقط تحت عجلات الترام أمام عينى، وأنا أطل من «بلكونة» بيتنا دون أن أعرف من كان، ومات، ومع أخواتي البنات اللاتي كن يسمعن منى- وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة-



قصائد الشعر العربى الجاهلي أو العباسي، ألقيها بصوت يهتز انفعالا فيترقرق الدمع في أعينهن، كنت الطفل الصبى الأول البكر- الذي عاش- في العائلة فكنت من ثم موضوع حب خالاتي وأخوالي وجدي في بيت كبير يعج بالحياة والخصوبة، وموضوع التحوط والحرص والحدب المفرط في آن، فلم أعرف اللعب في الشوارع ولا الانخراط في «عصابات» وجماعات الأطفال ولم أتعلم قط لعبة من لعب الشوراع، إلا لعبة «البلى» المعروفة، ألعبها على سطح بيتنا، وحدي أو مع أخواتي، وفي فناء المدارس الأولية أو الابتدائية خلسة.

حكايات ستي هيلانة وخالتي نورة وماتيلده، على سطح بيتنا في غيط العنب، في الليالي المقمرة، وقصص أبي أمام كنكة القهوة على «السبِّرتاية» - موقد بالكحول- في فسحة بيتنا، كونت عندي الوعي الأول للحكاية، عرفت كتبا قليلة - بمجرد أن تعلمت القراءة - كان مقفلا عليها في خزانة صغيرة، فتحتها بعد لأي، وقرأت «كليلة ودمنة» ومنتخبات من الأدب العربي القديم، وكتاب «الأدب الديني عند قدماء المصريين»، ولعلني عندئذ كنت في السابعة أو الثامنة، كأنني قرأتها بالأمس.

وفي الثانية عشرة - هل كنت طفلا عندئذ، بعد أن قرأت «ألف ليلة وليلة» وتيقظت حواسي كلها وشطحت بي خيالات ما أروعها - كنت قد بدأت أقرأ منهجيا، صفحة بعد صفحة، «مختار الصحاح» والتوراة والقرآن الكريم معا، هل تسمي تلك طفولة ؟ كانت يقظتي مبكرة وحارة ومحتشدة ومضطربة المياه.

هي رحلة طويلة ومتنوعة المراحل والملامح وسأكتفي منها بإشارات خاطفة فقد انتقلت إلى العباسية الثانوية، لكي أحصل

منها على التوجيهية في ١٩٤٢، بعد أن كنت قد ألقيت بنفسي كلية في خضم القراءة التي لم يكد يتوقف نهمي إليها، وبعد أن خضت أيضا غمارات الكتابة منذ أن كنت في التاسعة أو العاشرة تقريبا من العمر، كتبت أشياء طفولية وشيئا يشبه الشعر في تلك السن المبكرة، ثم تعلمت كتابة الشعر الموزون المقفى ثم القصائد النثرية والتهويمات الرومانسية، وخطرات المراهق المتحير بين الشعر والفلسفة، ثم ألقيت بكل ما كتبت في حركة كأنها رمزية، في موقدة نار صغيرة، على شباك بيتنا عندما كنت وحدي. لعلني كنت عندئذ في الخامسة عشرة. وكأنني بعد ذلك وصلت إلى نضج مفاجئ. ففي تلك الفترة أو بعدها بقليل كنت جزءا من مجموعتي القصصية الأولى (حيطان عالية).استمرت رحلة الكتابة والقراءة وكأنما لم تبدأ قط بمعنى أنني أحس كل يوم أنني أفعل شيئا في هذا السياق كله وكأنما أريد أن أبدا من جديد.

أما عن المرحلة الجامعية فلعلها كانت مرحلة مفصلية وحاسمة.

ففي أول يوم فيها «وقعت» في حب زميلة لي، حبا عذريا أفلاطونيا صامتا، ثم برئت من هذا الحب لكي أرمي بنفسي في غمار العمل السياسي الثوري. حصلت على إجازة الحقوق من جامعة فاروق الأول سنة ١٩٤٦، ولم أعمل بالمحاماة يوما واحدا. عندما أنشئت جامعة فاروق الأول سنة ١٩٤٢ في الإسكندرية، اختارت موقعها على الربوة نفسها التي كانت تحتلها مدرسة العباسية الثانوية، فكأنني قضيت على هذه الربوة الجميلة في قلب محرم بيه تسع سنوات متصلة، وقد التحقت

بالحقوق فقط لكي أرضى أبي الذي كان يتمنى أن يراني وزيرا على نمط مكرم عبيد باشا، ولكني في واقع الأمر كنت أقضي وقتي كله مع أصدقائي في كلية الآداب على بعد خطوات في هذه الربوة الجميلة حيث سمعت محاضرات يوسف كرم في الفلسفة، وسليمان حزين في الجغرافيا، وكانيف في الأدب الفرنسي، وليدل وانرايت في الأدب الإنجليزي، ومصطفى العبادي الكبير في التاريخ، وقرأت مقررات الفلسفة والإنجليزية والفرنسية والجغرافيا والتاريخ من أصدقائي.

عشت في بيئة عائلية خاصة وعاصرت تحولات فكرية وحضارية مهمة وكان لذلك تأثير في مواقفي الفكرية وفي اختياراتي وتوجهاتي الحياتية، كان لذلك كله تأثير قوي في تكويني- وفي تكوين جيل كامل من معاصري - ولعل ذلك وحده يبرر نغمة البوح الشخصي هنا، فليس الأمر متعلقا بشخصي بل لعله على الأرجح يتناول حقبة تاريخية دالة ومؤثرة.

فمن ناحية المواقف الفكرية والحياتية، ومن ناحية الاختيارات السياسية، فلأقل إن بيئة عائلتي كانت تنتمي إلى طبقة أتى منها كثير ممن لعبوا أدوارا مهمة في تطور مجتمعاتنا وهي الطبقة التي عاصرت حقبة الثلاثينيات، هي بيئة الفئات الوسطى التي اقتربت في الكثير من الأحيان من الطبقة الكادحة وخاصة عقب الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم كله في الثلاثينيات.

لم أتردد، مدفوعا بإيمان محرق بالعدالة، والحيرة، واستقلال الوطن، أن ألقي بنفسي في غمار الحركة الوطنية المضطربة والمتأججة في الأربعينيات والخمسينيات، ودخلت معتقلات الملك فاروق، وخرجت منها، واشتغلت بالدروس الخصوصية، وفي مخازن البحرية الإنجليزية، وفى البنك الأهلي وفي شركة التأمين

الأهلية في الإسكندرية ثم جئت القاهرة في ١٩٥٥. اشتغلت في منظمة التضامن الإفريقي الآسيوي بعد ذلك بقليل. وشاركت مشاركة بسيطة في تأسيس وإصدار مجلة «لوتس» للأدب الإفريقي الآسيوي باللغات الثلاث- العربية والإنجليزية والفرنسية.

كنت أقوم وحدي تقريبا بالعبء الأكبر في عملها، في كل مراحلها، على الأقل بالنسبة للأعداد الأولى. هي مجلة اتحاد الكتاب الإفريقيين الآسيويين، التي انتقلت بعد ذلك إلى بيروت وتونس ثم توقفت عن الإصدار. وفى غمار عملي في التضامن الإفريقى الآسيوي التقيت الصغار والكبار وعرفت باتريس لومومبا، وأحمد سيكوتورى، وأنديرا غاندى، وأجوستينو نيتو، وأميلكار كابرال، وعشرات من الساسة والكتاب من إفريقيا وآسيا والبلاد الاشتراكية طوفت بأنحاء العالم، وترجمت وكتبت عشرات من الكتب والمقالات والأحاديث والبرامج الخاصة في البرنامج الثانى في الإذاعة بمصر، وشاركت في إصدار مجلة «جاليري ٦٨» التي كانت رمزا للحركة الطليعية والمنبر الذي تبلورت حوله إبداعات الحساسية الجديدة في الأدب المصري الحديث.

أهم ما يمكن أن يتذكر المرء الآن، هو تلك الفترة الذهبية التي هبت فيها رياح التغيير العارمة على إفريقيا حاملة معها بهجة الاستقلال، ونشوة ظهور الأمم الفتية الجديدة حيث كان الأفق يبدو كأنه لا تحده الحدود، وحيث الآمال عريضة، وقد طردت فلول الاستعمار الأخيرة.

فى هذه الفترة، فترة الستينيات، قامت منظمة تضامن

الشعوب الإفريقية الآسيوية فيما أتصور بدور له أثره الحقيقي في توثيق الصلات بين شعوب إفريقيا وآسيا سواء من الناحية السياسية البحتة أو من الناحية الثقافية والأدبية عن طريق اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا الذي عملت به أيضا سكرتيرا عاما مساعدا.

أذكر، كما لعلني قلت، لقاءاتي قادة حركات التحرر الوطني في تلك الفترة، وأذكر نفح الأمل الوليد في تلك الأيام قبل أن يسترجع الاستعمار سطوته من الباب الخلفي، عن طريق استعادة سيطرته الاقتصادية، وعن طريق ثقل أعباء الديون الفادحة التي تكاد تقصم ظهور هذه الأمم الفتية التي كانت تتطلع عندئذ، في الستينيات، إلى المستقبل بنظرة ثقة راسخة سرعان ما ثبت أنها لم تكن حقيقية، وأن الأمر يتطلب كفاحا أشق وأطول وأكثر نضجا وأعمق رؤية للحصول على الاستقلال الحق، وعلى حرية الإرادة الحقة.

كنت في السادسة عشرة - في أول دراستي للحقوق - عندما قرأت الأدب الإنجليزي الكلاسيكي والمعاصر، ومن مكتبة الدكتور زكي أبو شادي قرأت «عشيق الليدي تشاترلي» التي لم يكن مسموحا بها في إنجلترا، في طبعة ألمانية - بالإنجليزية طبعا - ولم أكن أفلت كتاب لـ د. هـ. لورنس بعدها، كنت أقرأ الرومانسيين الإنجليز شيلي وبايرون وكيتس وأنا أكتب أشعارا تهيم في أودية حيرة الروح ونزوات الجسد، ثم عرفت فرويد وماركس بعد أن كنت قد ألممت بتاريخ الفلسفة في الوقت الذي كنت أقرأ فيه كتبا مثل «الكامل» للمبرد أو «العقد الفريد» أو «صبح الأعشى» ونحوها من كتب التراث الأبدي.

كيف يمكن للمرء أن يتعرف في هذا الخضم من القراءات على هؤلاء الذين شكلوا في عناصر روحي؟ لم تكن تلك قراءة بل كانت حياة أكمل وأملأ وأعتى وأرق ما تكون الحياة في وقت واحد.

فى معتقلات الملك فاروق علمت نفسي الفرنسية أو جودتها، ومن ثم عرفت السيريالية والوجودية ومغامرات الرواية الحداثية في الخمسينيات المبكرة، وليس للرغبة في المعرفة نضوب، ولا أظنني قد جمدت عند شيء أو عند أحد، مازلت - في غسق هذا العمر- كأنني الطفل الذي يضرب بقدميه على شاطئ بحر ملاطم أو ساج لا نهاية له، ولا بر هناك أرسو عليه.

ما من كاتب واحد، أو مفكر واحد، كان باستطاعته أن يغير حياتى، علمني سلامة موسى، من بين أشياء كثيرة، قيم العقلانية والشك المنهجى التي غيرت نسيج حياتي الفكرية والروحية.

أذكر الفرحة والدهشة وروعة الاكتشاف التي عرفتها عندما قرأت كتب سلامة موسى وأنا صبي في الرابعة عشرة من العمر: مصر أصل الحضارة، نظرية التطور وأصل الإنسان، الاشتراكية، ومقالاته في «المجلة الجديدة» و«الهلال» التي كنت أشتري أعدادها القديمة من بائع يفرش بضاعته على الأرض في شارع صلاح الدين تحت مبنى شركة النور ليبون في الإسكندرية.

روعة اكتشاف قوة العقل وسطوة اللاوعي معا، وتأكيد كرامة الشك في مقابل ذلة الإذعان أمام العقائدية الجامدة المتحجرة، كان ذلك ماتفتحت روحي عليه بفعل كتاباته، وما دفعني بعد ذلك إلى ارتياد أصقاع الفكر ووضع الأسئلة دون وجل أيا كان موضوع الفكر أو السؤال.

أما قصة زواجي فهى قصة حب من النظرة الأولى على إثر
خروجي من المعتقل، حب استمر من ٥٢ إلى ١٩٥٧، ٥ سنوات،
يعني النظرة الأولى التي امتدت خمس سنوات، تزوجت في
١٩٥٨، الزواج؟ لعلني كنت سعيد الحظ فيه جدا من كل الأوجه،
لكن الحظ والسعادة والحب كلها تبنى ولا تعطى مجانا، كلها
تحتاج إلى فكر وعمل وتدبر بجانب الهبة والاندفاع العاطفي،
لي ابنان أسعد أيضا باستقلالهما وإراداتهما الحرة في بناء
حياتيهما، ولي أربعة أحفاد هم الزهور المورقة في حقل هذا
العمر الطويل.

معنى ذلك أنني - بالفعل - تعاملت مع الواقع الذي عشته.
والآن إذ أتأمل تلك الفترة التي تبدو سحيقة البعد وقريبة ماثلة
جدا مع ذلك، فإنني أرجو أن أكون قد صورت هذا الواقع في
كتاباتي.

أظن أنني تناولت هذا «الواقع» على نحو خاص منذ فترة
مبكرة جدا وربما كنت غير مسبوق إلى هذا التناول، وهو التعامل
مع الواقع لا في الظاهر فقط، لا من حيث رصد الظواهر
الخارجية وما يمكن أن أسميه السطح أو القشرة أو ما يبدو
للعين المجردة، من الخارج، وإنما هو التعامل مع الواقع باعتباره
لا ينفصل عن الحياة الداخلية والروحية للإنسان، وسقوط
الحدود بين الشعر والسرد، وهو ما يبدو واضحا جليا في أول
كتاباتي التي نشرت وهى في مجموعة «حيطان عالية» وقد
نشرت في آخر الخمسينيات، ولكنها كانت قد كتبت منذ
الأربعينيات المبكرة. وحتى في هذا الكتاب نجد أن المسعى الفني
هو كسر الحاجز المتصور الموهوم بين الصحو والحلم،بين الخارج

والداخل، بين النفس والمجتمع، بين ما اصطلحنا على تسميته بواقع الحياة اليومية الجارية، حياة السوق والتعامل مع الأشياء، وعالم الفكر والحلم والهواجس الداخلية، بحيث يتكون من هذا كله واقع فنى آخر مواز لواقع موضوعي، أى أن هنا «واقعا» فنيا، «يقع» فعلا وحقا ويحتوي على كل العناصر التي ذكرت على خلاف ما كان «سائدا» في تلك الفترة بالتحديد من تصوير الواقع باعتباره مشكلة اجتماعية أساسا أو اجتماعية فقط وما كان يغلب على الكتابات القصصية خاصة من تناول لظواهر الحياة ومشاكلها الاجتماعية فقط.

أتصور أن كتاباتي الأولى كانت ربما من أوائل ما اخترق وكسر هذه الحواجز الموهومة وجرؤ على تناول الواقع بجوانبه المتعددة المعقدة المختلفة والمتنوعة.

لقد قيل لى إن من يطلع على أعمالي الروائية يلاحظ تحولا من الخمسينيات إلى العقود الأخيرة، من حيث الاعتقاد في قدرة العمل الفني على تغيير الواقع، فبعد الالتزام بالاشتراكية والحلم بالمثل العليا، يقول البعض إن الروائي في داخلي يكتفي بكشف خبايا المجتمع من خلال «رؤية ذاتية».

وبغض النظر - مؤقتا - عن أنه ليس في الفن الحقيقي رؤية «ذاتية» بالمعنى الضيق المغلق المرضي، وأن كل رؤية فنية إنما تقع في نطاق التشارك الإنساني فيما أسميه «منطقة ما بين الذاتيات» فلا شك أن فترة الخمسينيات، فترة المد القومى والأحلام العريضة والآمال البراقة والساطعة والحلم بالأمجاد، كما نعرف، بل كما عانينا في صميم وجداننا جميعا، نحن أبناء هذا الجيل، قد انتهت بالصدمة المزلزلة التي تمت بهزيمة ١٩٦٧

وكشفت عن زيف كثير من الدعاوى أو على الأقل عن هشاشة كثير من الشعارات مما دعا كثيرا من الكتابات تتخذه من «التبشير» واليقين والتغني بالأمجاد إلى موقف وصف بالجنوح إلى الخبايا وإلى التأمل الذاتى.

هذا صحيح كله في مجمله وإن كنت أريد أن أشير إلى أن كتاباتنا، على الأقل نحن الذين يحق لنا أن نسمي أنفسنا بالرواد الأوائل - وليس في معنى «الريادة» هنا تقييم، بل هو مجرد توصيف - كانت تحمل إرهاصات ونذرا بالهزيمة، كانت من غير أن تضع يدها تماما وبشكل واضح على لب القضية مباشرة، تحس وتتلمس أن الشعارات المجلجلة هي أيضا شعارات جوفاء وأن هناك شيئا لا يجري على سننه على الإطلاق وأن منهج الوصاية الأبوية الطاغية، الناصرية على الأخص، بما حملته من عدوان على قيم المشاركة الشعبية الإيجابية، وهي القيم المنقذة الوحيدة، هو منهج يسير بنا نحو الهاوية ومن ثم انعكس ذلك، أو انعكست نذره وإيماءاته في كتاباتنا حتى وقوع الهزيمة مباشرة أو قبلها بفترة، مما كان يشكل نوعا من التنبؤ أو الإرهاصات أو حتى النذير أو التحذير. ولكن ذلك كله لا يقلل من عظمة الإنجازات التي تحققت في العهد الناصري.

تأكد هذا تماما بعد وقوع الكارثة القومية والإنسانية التي لحقت بنا جميعا وتحولت الكتابات الصحيحة والصالحة الآن إلى ما سميته بكتابة المساءلة لا كتابة اليقين، وهى علامة صحية. هذا كله يشير إلى انحسار دعوى امتلاك «الحقيقة» امتلاكا مطلقا - سواء كان ذلك من جانب الراديكاليين اليساريين أو من جانب السلفيين الظلاميين - ويشير إلى دور البحث الصادق

عن هذه «الحقيقة» أو عن وجه من وجوه حقيقة لا بد أن تكون متعددة وليست واحدية.

أما عن رحلتي مع القراءة والكتابة، تلك الرحلة الطويلة، التي وصفتها في موضع سابق، بأنها رحلة كأنها لم تبدأ قط، بمعنى أنك تحس كل يوم وكأنك لم تفعل شيئا في هذا السياق كله، وكأنما تريد أن تبدأ من جديد، هل هو طموح الفنان الذي لا ينتهي؟

فيما يتعلق بالقراءة فإنني أتصور أن المسألة ليست طموحا ما بقدر ما هي تتعلق بما يمكن أن أسميه خصيصة في تكويني كفنان. سمة لا تنفصل عن فعل الحياة نفسه، بمعنى أن هذا التطلع المستمر للمعرفة، شغف - أو ولع أو نهم - مستعر نحو المعرفة، لا يشكل طموحا بقدر ما يشكل في تصوري نوعا من القسر، أو الحافز الذي لا يقاوم، نحو الاغتراف من هذا المحيط الذي لا ساحل له ممكنا الوصول إليه، ولهذا قلت كأنها رحلة لم تبدأ قط، فيما يتعلق بالكتابة هناك نفس الطموح، وهو أن الكتابة عندي هي فعل لاعج نحو المعرفة على نحو آخر، وبأسلوب آخر، فهى لا تمثل في كلا الحالين الطموح بالمعنى السهل المتعارف عليه، هناك بالفعل طموح إذا فسرناه بأنه سعي متسمر نحو مزيد من المعرفة ومزيد من التواصل ومزيد من التقارب مع الناس ومع الأشياء ومع هذا الكون الذي نعيش فيه، مزيد من محاولة البحث عن إجابات لأسئلة لا تزال قائمة أبدا ولا تزال الإجابات عنها تبدو مرواغة أبدا بعيدة المنال عصية.

هذه الرحلة التي بدأتها منذ نصف قرن أو أكثر، أحس كأنها لم تبدأ. كيف أنظر الآن؟

سأكرر إنني أكاد أقرر أنها لم تبدأ بعد، بكل ما حملته السنوات الطويلة إلي من زاد، يظل هذا الجوع المستعر نحو الجمال المروع ونحو الحب المراوغ، نحو المعرفة ونحو التواصل مستمرا، هذا الجوع يظل كأنه في يفاعته وعرامته الأولى، حادا محتدا فلعل في هذا تفسيرا لما قلته بأنني أتصور هذه الرحلة كأنها لم تبدأ بعد.

بعد هذه الرحلة الطويلة يبدو المرء محملا برصيد من القراءات والكتابات يخطو خطوته الأولى في هذه الساحة التي تظل تتسع باستمرار كلما تعمقت فيها، وكلما تقصيت جوانبها فماذا عن قراءاتى تلك، مم تنبع، وإلام تتجه؟

تختلف هذه القراءات ويختلف موضوع القراءة عبر هذه الرحلة الطويلة، في البداية مثلا كنت أقرأ - حرفيا - كل شيء كل ما يقع تحت يدي، وفى فترة الصبا والمراهقة الأولى كانت قراءاتي تتنوع من المجلات، إلى الروايات المختلفة بأنواعها المتاحة، إلى القراءات العصية. كما قلت، لم أكد أفلت ورقة مطبوعة إلا قرأتها وسعيت إليها، ومن ألف ليلة وليلة إلى مسامرات الجيب، من مجلة السكة الحديد إلى مجلة كل شيء والدنيا. أنا أضع كل الأطراف المتناقضة وما بينها على طول وعرض المنشور من الفنون، إذا صح التعبير.

بتقدم الحياة قليلا قليلا يبدأ المرء في الاختيار والتدقيق، خاصة بعد أن يكون قد قرأ أو عرف ما يمكن معرفته وما أتاحت له قراءاته من كنوز الإنجازات الفنية خاصة، وعلى الأخص في ميادين الرواية «الطويلة والقصة» والشعر والفلسفة والتاريخ، وما تستهويني ولا تزال تستهويني قراءته هي هذه الميادين الآن.

توقفت – مثلا – عن قراءة ما يسمى «القصص العلمي» أو روايات الخيال العلمي والروايات البوليسية الجيدة التي كنت شغوفا بها، في فترة المراهقة، وكنت ألجا إليها كنوع من الترويح والتسلية. حتى هذا الترويح والتسلية لا أكاد أجد لهما وقتا الآن، حيث يبدو أن شقة العمر قد ضاقت وأن رحلته قد قاربت النهاية.

ماذا أحب في الحياة؟ وماذا أكره؟

لا أكره إلا القليل، فلنبدأ بعملية العزل أو النفي، مهما بدا ذلك مما تصعب الإحاطة به. بالطبع أكره القبح بأنواعه المختلفة وخاصة القبح الخلقي، لأن القبح الفيزيقي نفسه أو الجسماني قد يخفى جمالا من نوع نادر. لكن القبح الروحي على الأخص هو الشيء الكريه. يمكن للمرء أن يجد معذرة، أو مكانا للفهم حتى بالنسبة للقبح الأخلاقي بمعنى الوقوع في الأخطاء أو حتى الجرائم التي تتعلق بالسلوك. قد يقع الإنسان في هذه الجرائم والأخطاء ويصبح ضحية لهذا القبح على الرغم منه. ما لايكاد يغتفر ولا يكاد يفهم هو الفقر الروحي أو ما تنطوي عليه الروح من معاداة لنفسها حيث تنقلب عدوا لنفسها، حيث يصبح الحقد والصغار والهوان هي المزالق أو الفخاخ التي تتعثر الروح في شباكها. هذه تصبح فعلا كريها. لا أتصور أنني أكره شيئا آخر. أما الحب فحدث ولا حرج. فلعل من الضروري أو المنطقي أن يكون الجمال هو أكثر ما أحب، قد يتمثل في المرأة كما قد يخايلنا في المشاهد الخفية والمرهفة التي لا يمكن الإمساك بها باليدين. أحب كل متع الحياة الحسية، كما أحب متع الحياة الروحية بقدر سواء. أتصور أن في المتعة الحسية دائما عندي على الأقل، وعند الكثيرين ممن أعرف كتاباتهم

عبر الأزمان، هذا الجانب المصفى الذي يشارف النشوة الروحية في قمة اللذة الحسية بحيث تمتزج عندي هذه المتعة الحسية بما فيها، هي نفسها، من جوهر لا يكاد الحس أو الحواس أن تحيط به. معنى ذلك بوضوح أن القبح في اللذات والمتع الحسية هو أيضا نقيض لها وأن الفجاجة والخشونة في هذه الممارسات إفقار لها وتحديد بمعنى أن تصبح محدودة وضيقة، وأكاد أقول تافهة وغير ممتلئة.

ما هي الفلسفة العامة التي تحكم حياتي؟

لعلني قد استشففت شيئا في تناولي للمسائل السابقة، لست أريد أطمع أن أسمى ما يسير حياتي فلسفة، بالمعنى التكتيكي أو المصطلحي، لنقل إن هناك محاور أساسية تسير هذه الحياة، منها شوق دائم إلى الحب، ومنها اعتزاز دائم بكرامة الإنسان وبالتالي غضب مستمر على كل ما يلحق بها مهانة أو هوانا. لعل كلمات مثل الجمال أو الحب أو الحقيقة كلمات قد تبدو في تجردها هذا لا تعني شيئا، ولكن ربما كان لى سعى إلى عطائها معنى متخلفا، أعمق كل يوم، وأكثر حدة كل يوم، هو السعي الذي يحكم حياتي الفنية إذ اعتبرها هي نفسها أو هي بدورها هي الحياة «الحقيقية»، ولذلك فليس لي إلا أن أحيا على كتاباتي للتعرف إلى إجابة عن هذا السؤال، وفى هذا وحده سقوط القناع الذي يحجب الصدق عن الذات وعن الآخر.

يشغلني مشروعان بدأت في تحقيقهما في الكتابة، هما على وجه التحديد، كتابة مجموعة شعرية خامسة بعنوان «صيحة وحيد القرن»، وقد بدأت بالفعل فيها، وتشغلني أيضا كتابة رواية طال إلحاحها علي وطال إعدادي لها وهى بعنوان «صخور

السماء».

هل ظفرت بكل ما كنت أريد من الكتابة ومن الحياة؟ لا.. لا يمكن.

هذا سؤال مفقود دائما. يبدو أنه لم يتحقق شئ على الإطلاق، وفى الوقت نفسه تحقق الكثير والكثير جدا.

يبدو أنه مع تقدم العمر ينبغى أن يكون المرء قد وصل إلى الحكمة والقناعة والاستقرار، هذه أشياء مستحيلة التحقق عندي، كأنني مازلت ذلك الطفل الصبي الفتى الكهل المتوقد دوما بالأشواق إلى مراودة المستحيل.

لا يوجد أي نوع من الاكتفاء ولا الامتلاء ولا ما يشبه ذلك، ويظل السعي إلى المعرفة وإلى الحب - بأوسع معانيه - وإلى التحقق، مستمرا ما استمرت الحياة.

---

* العربي - العدد ٤٨٣ - فبراير ١٩٩٩م.

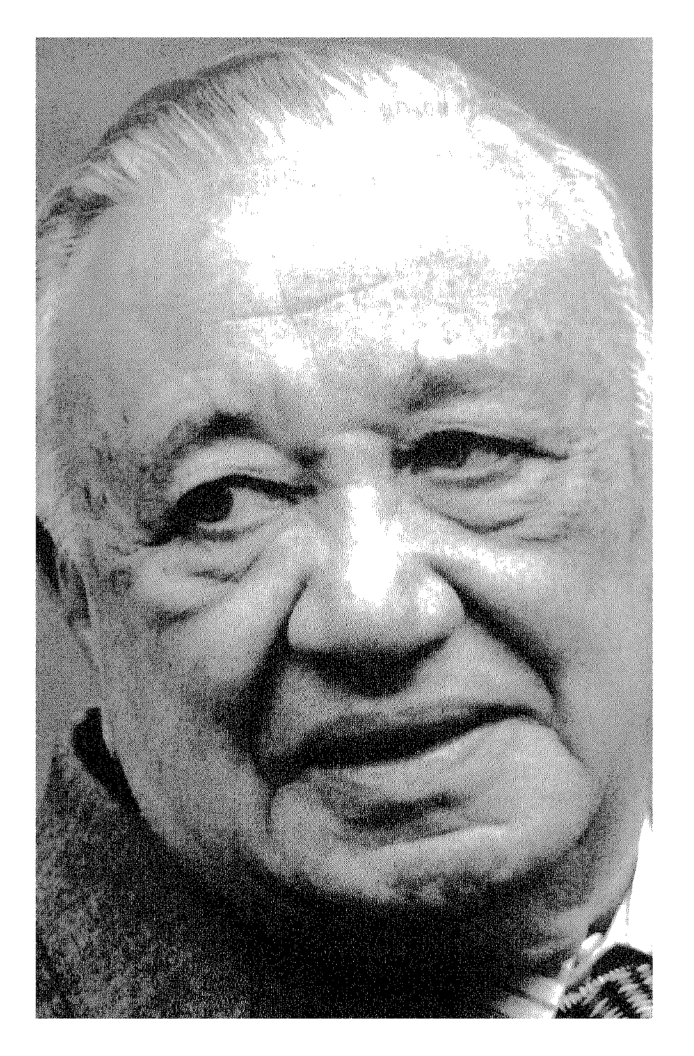
مرفأ الذاكرة | د. ثروت عكاشة

كنت شاهدا على إنقاذ آثار النوبة *



بعد أن اتخذت مصر قرارها الجسور بإنشاء السد العالي في أسوان عام ١٩٥٤، كانت إقامة هذا السد إيذانا بخلق بحيرة فسيحة من المياه تغمر منطقة النوبة الزاخرة بآثار حضارتنا التي شدت إليها عيون العالم على مر العصور. وفي أواخر عام ١٩٥٨ كنت أحمل مهام وزارة الثقافة التي كان من مسئوليتها الأولى الحفاظ على آثارنا القديمة بوصفها جزءا مهما من تراث الحضارة الإنسانية. وفي شهر نوفمبر زارني السفير الأمريكي يصحبه مدير متحف المتروبوليتان بنيويورك الذي بادرني قائلا: جئت أشتري واحدا أو اثنين من معابد النوبة المحكوم عليها بالغرق بعد بناء السد العالي. وقد أثارتني هذه الرغبة المفاجئة وضقت بأن يدور بخلد أحد أن يكون تراث أسلافنا مما يباع ويشترى. لذا سارعت بالقول معاتبا: كان جديرا بمتحف المتروبوليتان أن يبادر بالعون العلمي لإنقاذ هذا التراث الإنساني بدلا من التفكير في شرائه.

وكان هذا اللقاء على قصره بداية ارتباطي بآثار النوبة. فرأيت أن أزورها مصطحبا معي الدكتور أحمد بدوي أحد كبار العلماء الأركيولوجين وأحد كبار مهندسي الآثار وأمضينا في هذه الرحلة أسبوعين. ولشد ما



فزعت عندما اكتشفت أن ما كان يجري على أرض النوبة كان مقصوراً على تسجيل وتوثيق هذه المعابد على أساس أن هذا الجهد هو كل ما تتسع له إمكانات الدولة حينذاك. أحسست بهول المأساة وانتابني الذعر، إذ كيف يترك هذا التراث لتغمره مياه النيل؟ كانت وزارة الثقافة في مصر بعد وليدة لايتجاوز عمرها ثمانية شهور، وكان إنشاؤها علامة من علامات الحيوية في نظام حكمنا الذي خص الثقافة بهذه الرعاية. لذا كان تفريطها في العمل على إنقاذ تلك المعابد يعد سُبة لايغتفرها التاريخ لنا.. وكان معي خلال تلك الجولة كتاب شائق للأديب الفرنسي الشهير بيير لوتي عضو الأكاديمية الفرنسية، كنت قد اشتريته منذ بضع سنين في باريس، جذبني إليه عنوانه الآسر «موت فيله» وكونه الطبعة الأولى الصادرة عام ١٩٠٧، فكنت أقضي نهاري في مشاهدة أوابد العبقرية، وليلى تؤنسنا بصوت لوتي وهو يحدث عنها. وإذا أنا أجد الكاتب ممن يهيمون بتراث مصر ويقدسونه، وإذا هو يفزع لما نال هذا التراث من غمر المياه له بعد أن شيد خزان أسوان في مطالع القرن، وإذا هو يناشد المثقفين المصريين بأن يهبوا للذود عن تراثهم متخذا من غرق جزيرة فيله لؤلؤة مصر وإحدى عجائب الدنيا رمزاً لموت مصر القديمة وإيذانا بنهاية هذه الأمة التي خلقت أول حضارة في العالم وأروعها. على أنه أنهى كتابه بصرخة فاجعة يتمنى فيها على المصريين أن يهرعوا إلى الحفاظ على تراثهم الخالد.

كان المفروض أن تقوم وراء السد العالي بحيرة صناعية فسيحة تمتد حوالي ثلاثمائة كيلو متر في أرض مصر وحوالي مائة وسبعة وثمانين كيلومترا في أرض السودان، ويرتفع منسوب المياه إلى مائة وثمانين مترا فوق سطح البحر. وكان معنى هذا أن تغمر مياه البحيرة الجديدة جميع آثار بلاد النوبة المصرية والسودانية إلى الأبد.

ولم يكن مقدرا لمعبدي أبوسمبل وهما أكثر معابد المنطقة ارتفاعا أن يفلتا من هذا المصير الموجع، فقد كانت مياه التخزين وراء خزان أسوان لاتتخطى مائة وواحدا وعشرين مترا وهو نفس مستوى أرضية المعبد الكبير الذي يبلغ مائة وأربعة وعشرين مترا بينما كان متوقعا أن ترتفع مياه بحيرة

السد العالي إلى مستوى مائة وثلاثة وثمانين مترا أي بزيادة ارتفاع قدره اثنان وستون مترا على مستوى بحيرة خزان أسوان، وهو ماكان يعني غمر المعبدين تماما.

وهكذا ضمت بلاد النوبة أملاً وقلقاً: أملا يتمثل في سد عال يوفر لشعب مصر الخصب والرخاء، وقلقاً على تراث حضاري عال مهدداً بالغرق والفناء. ولم يعد من الممكن أن نقصر تفكيرنا على بناء السد وحده، بل كان من الواجب أن يمتد تفكيرنا إلى إنقاذ آثار النوبة ومعابدها السبعة عشر. هكذا كانت الصورة في أواخر ١٩٥٨: خطوات جادة تجري لإنشاء السد العالي وتسجيلات لآثار النوبة، وأيد مكتوفة أمام الخطر المحدق بآثار النوبة الغالية، وحيرة عميقة في النفوس أمام هذا التساؤل: كيف لثورة يوليو ١٩٥٢ أن تشتري رخاء المستقبل بالتفريط في معالم خالدة من تراث الماضي؟ وكيف يكون مستقبلنا مشرقا إلا إذا كان امتدادا لماضينا العريق؟ وهل يمكن أن يتحقق النمو الاقتصادي دون وعي ثقافي؟ وهل يكتمل الوجه الحقيقي لثورة يوليو إذا شيدت السد العالي الذي يهدف إلى رفع مستوى معيشة الإنسان المعاصر في بلادنا دون أن تحافظ على أسمى ما أبدعه الإنسان في تاريخه البعيد؟ وهل يتألق وجدان إنسان الحاضر إذا وجد مايشبعه من ماديات دون أن يجد إلى جانبه مايشبع حسه من روحانيات؟ ومع كل يوم كان يقترب فيه وداع آثار النوبة كان الإحساس يتضاعف بوجوب عمل شيء من أجل إنقاذها حتى لايأتي هذا اليوم أبدا.. فما أجدرها أن تعيش آلافا أخرى من الأعوام.

وحين وقفت استعرض آثار النوبة متطلعا إلى معبدي أبوسمبل المنحوتين في جوف الجبل، متأملا معابد فيله ومتخيلا المياه وقد ابتلعت هذه الآثار أحسست حسرة شاملة تملأ نفسي وتدفعني إلى التشبث بهذه الآثار، وراودني مايشبه الحلم الأسطوري، وتراءى لي وأنا موزع النفس بين عالمي الصحوة والغفوة أن يداً عملاقة تندس في أعماق التربة وتزحزح هذه المعابد الشامخة من مرقدها وتصعد بها إلى قمم الجبال حولها، وتترك لمياه السد مكانا

تتماوج فيه على هواها . ومع ثقتي في أن حكومتنا مشغولة بهموم فك قيود الفقر عن ملايين المواطنين بما لاتحتمل معه أن توفر من مالها وطاقتها المحدودين ماينقذ للبشر تراث أسلافهم، أخذت نفسي تسترجع ذكريات فترة أثيرة من حياتي حين أمضيت ماينوف على سنوات ثلاث أعمل ملحقاً حربيا بباريس كنت أتابع خلالها بشغف وإعجاب نشاط منظمة اليونسكو الوليدة، والتي كانت تشغل وقتذاك مبنى قريبا من سفارتنا، مؤمنا إيمان المتفائل بما يمكن أن تحققه هذه المنظمة السامية الأهداف من خير للبشرية في ميادين الفن والثقافة والجمال. وتساءلت بيني وبين نفسي هل يمكن لليونسكو أن يكون لها دور في إنقاذ آثارنا؟ فقد رسخ في يقيني أن هذه المنظمة التي ينص ميثاقها على السهر على صيانة الآثار الفنية ذات الأهمية التاريخية هي الباب الوحيد المتاح الذي لامناص من أن نطرقه أملا في إنقاذ تلك الروائع على الصعيد الدولي، فهي القادرة على تفهم المخاطر الجدية على هذا المستوى من الرصيد الثقافي للإنسانية. وإذ كنت وقتها أعيش في عذاب القلق الذي يبعثه الإحساس بمواجهة «المستحيل» تساءلت لماذا لانمنح المستحيل فرصة كي يصبح محتملا .. أو أملاً؟ فعزمت على أن أتصل لساعتي بمدير منظمة اليونسكو لأستوضحه الرأي وأشركه معي فيما أتردى فيه من حيرة، علي أجد عنده ما ينقذني منها، وأعلم منه مدى العون الذي تستطيع المنظمة أن تمنحنا إياه فيما إذا قدر لنا أن نأخذ في إنقاذ هذه المعابد. وإذا بي أعلم أن مساعد المدير العام لليونسكو المسيو رينيه ماهيه موجود في أديس أبابا فاتصلت به لتوي ليلقاني في طريق عودته إلى باريس، فحدد لي موعدا في مطلع شهر يناير ١٩٥٩ ليلقاني بالقاهرة بين موعد طائرتين نظرا لارتباطه بالتزام رسمي في اليوم التالي بمقر المنظمة في باريس.

استقبلته بالمطار في الثامنة مساء لأصطحبه إلى مكتبتي بقصر عابدين، وكنت قد أشرت بإعداد خريطة ضخمة لمجرى النيل من وادي حلفا جنوبا حتى أسوان شمالا مبينا عليها المعابد السبعة عشر المنتشرة على ضفتي

النيل لتكون تحت بصره. وكذا عرضنا صوراً فوتوغرافية مكبرة بارتفاع الحائط لكل معبدعلى حدة كي تكشف له عن أهمية الدور الذي يمكن أن تؤديه منظمة اليونسكو إذا ما شاركت في تنفيذ مشروع قد يغدو أعظم إسهاماتها في الميدان الثقافي. مضيت أشرح له قضية إنقاذ آثار النوبة، وكنت شديد القلق بينما أقترح عليه أن تعد منظمة اليونسكو حملة دولية لإنقاذ هذه الآثار تجمع فيها المساهمات المادية والعلمية التي لم أشك في أن الهيئات الثقافية في العالم ستبادر بتقديمها، موضحا له استعداد حكومة مصر لتحمل نصيب مناسب في هذه العملية الإنشائية التي تفوق الخيال. وكان مما أثار حماسته وإقناعي له بأن مقترحاتي هذه تكاد تكون بمنزلة «هدية» إلى اليونسكو تذيع معها - لو أنها تبنتها - شهرة المنظمة لتتطرق إلى وجدان كل فرد من أفراد البشر. ثم هي لاشك سابقة للمنظمة سيكون لها ماوراءها. وهذا ماحدث فعلا إذ ما كادت منظمة اليونسكو تفرغ من هذا المشروع حتى شاركت في غيره. ودارت المناقشة ساعات ثلاث، وإذا هو يبعث في نفسي الأمل حين همس في أذني بالمثل القائل: إن الحياة إلى زوال ولكن الفن خالد. فعقبت عليه أقول: ولكن ألا ترى أن أسلافنا كانوا يؤمنون بأن الحياة والفن متلازمان لا بقاء لأحدهما إلا ببقاء الآخر؟ وبتلك النظرة من السلف إلى الفن نتقدم إلى اليونسكو بهذا المشروع الذي هو أكبر من أن تضطلع به دولة بمفردها، لاسيما وهي تمر بفترة تنمية تواجه فيها هموما أساسية ينبغي عليها تذليلها، وليس أمامنا غير التعاون الدولي. وحين وجدت منه استجابة لما عرضت وإحساسا منه بمخاوفي ردت إليّ طمأنينتي. ولقد قدرت له قلقه هو الآخر على ضياع تلك الآثار في غمرة الغرق وإيمانه بضرورة مد يد المنظمة لتشارك في تحقيق الأمل. هنا أيقنت أن العناية الإلهية وحدها هي التي أتاحت لي أن ألتقي هذه الشخصية التي تجمع بين الود الصادق والفكر الثاقب. لقد غمرتني فرحة أيما فرحة حين وجدت منه ذلك الاستعداد المبدئي للمشاركة. ليس ذلك فحسب بل إنه بدا - تواضعاً منه - وكأنه الشاكر لا المشكور، وكأنه في هذا يردد قول الشاعر:

شكرا لك يا أخي إذ منحتني دفء أخوتك
شكرا لك إذ أزكيت شجاعتي بثقتك
شكرا ليس فوقه شكر، إذ أتحت لبرهة من حياتي أن تنبض بحلم كبير
شكرا لك إذ هيأت لي فرصة مساعدتك
فوهبتني منحة الخلاص

صحبت رينيه ماهيه إلى المطار حيث استقل طائرته في الثانية صباحا، ومضى إلى باريس بعد أن استمهلني ثمان وأربعين ساعة ليعرض فيها اقتراحي على السنيور فيتورينو فيرونيزي المدير العام لليونسكو ويخطرني بعدها بما يستقر عليه الرأي. وهمست في أذنه مودعا على باب الطائرة وأنا أعطيه نسختي من كتاب «موت فيله» لبيير لوتي الذي كنت قد حملته معي لكي يقرأه، مؤمنا أنه هو الآخر داعية قدير لنفس القضية التي باتت أهم ما يشغلني على المستويين الحضاري والوظيفي. همست في أذنه: فلنتضافر أيدينا كي نسحب المياه من تحت قدمي إيزيس، عسى أن نضيف يوما خاتمة لكتاب «موت فيله» بعنوان «بعث فيله». ولم تكد تمضي اثنتا عشرة ساعة حتى سمعت رنة الهاتف، وما كدت أرفع السماعة حتى فاجأني صوت رينيه ماهية يحدثني من باريس بأنه قد عرض اقتراحي على المدير العام. وما انتظر ردي المتلهف على سماح النتيجة حتى تابع حديث بقوله: إليك هو ليحدثك بنفسه. فاستمعت إلى السنيور فيرونيزي يزف إلي نبأ اقتناعه بالمشروع، وبأنه على استعداد لعرضه على المجلس التنفيذي لليونسكو إذا ما تسلم طلبا رسميا من الحكومة المصرية. ومالبثت أن تسلمت رسالة من رينيه ماهية في أواخر شهر يناير ١٩٥٩ يبلغني فيها رسميا استعداد منظمة اليونسكو للقيام بدراسة الوسائل العلمية لحماية تلك الكنوز الفنية والتاريخية طالبا التفاصيل الخاصة بكلفة المعونة المطلوبة.

كانت هذه الخطوات السالفة كلها من وحي ضميري ومن وازع نفسي لا أستملي فيها عن أحد، فلقد كان الله من ورائي في جميع خطواتي يسددها ويوفقني إلى مافيه الخير.

وجدتني لابد لي قبل البدء فيما أنا مقدم عليه من أن أظفر بموافقة رئيس الجمهورية وتأييده، فأسرعت لكي ألقى الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله، الذي أنصت إليّ طويلا وكأنما أحدثه عن حلم عصي على التحقيق، ثم التفت إليّ مبتسما وهو يخال أن ما حدثته به خيالاً وجموحا وشططا، وإذا أنا يتمثل أمامي لحظتها إقدامه على بناء السد العالي، فقلت له: ياسيادة الرئيس إن ثورة مصر التي تمضي في جرأة وشجاعة لبناء المستقبل يجدر بها أيضا أن تلتفت إلى آثار الماضي فتحميها وتحفظها.. وإذا أنا أرى على وجهه مسحة من الطمأنينة، وإذا هي تغشي صوته، فيتساءل عما يكون من ضمان للتعاون الدولي وسط الظروف السياسية العاصفة التي كنا نمر بها وقتذاك. وحين أحس مني رحمه الله إيماني الصادق العميق بما في الإنسانية من كرم ينبعث دوما مع القضايا النبيلة، وبأنه مما لاشك فيه أن منظمة اليونسكو ستضطلع بعبئها في إنقاذ تلك الآثار الإنسانية التي تعني العالم أجمع على أي صورة كانت وفي أي بلد قامت، بدأ حديثي يستميله، وأخذ يسألني ترى كم سيكون نصيب مصر في هذا المشروع؟ فأجبته أن هذا السؤال سابق لأوانه، إذ لم تحدد بعد نوعيات مشروعات الإنقاذ وتكاليفها، ولكن مانستطيع أن نفعله الآن هو أن نتعارف على نسبة معقولة تكون من نصيب مصر، لكي يرى العالم أننا جادون في إنقاذ تراثنا، وأننا لن نكون عالة على غيرنا. وانتهينا أخيراً إلى أن تكون نسبة إسهام مصر في حملة الإنقاذ هي الثلث. ولم يلبث بعد أن عرف تفاصيل المشروع أن باركه، فما إن سمعت هذه الموافقة اطمأننت الاطمئنان كله ودعوته لزيارة معبدي أبوسمبل، وعرضت الأمر على المجلس الأعلى للآثار الذي سرعان ماظفرت بتأييده وتشجيعه.

تلك كانت بداية القصة، فلقد كانت الجهود كلها قد انتهت إلى الاكتفاء بتسجيل آثار النوبة ومعابدها فحسب، فإذا هذا المشروع الجديد الذي أقدمت عليه وغامرت به تحت إلحاح من إحساسي بالمسئولية يتناول شيئا لم يكن، فقلب الأمور رأسا على عقب، وإذا هو مشروع للإنقاذ لا للتسجيل،

ومشروع لحفظ الآثار ظاهرة على وجه الأرض لامودعا إياها لتبتلعها المياه وتصبح أثرا بعد عين.

ألا ما أكثر التحديات التي واجهتنا عند تنفيذ هذا المشروع فلم تثننا عن المضي فيما أخذنا فيه عقبات كثيرة يضيق بها الحصر، بدءاً بالظروف الدولية العسيرة التي اكتنفت الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة، والصراع المرير بين الكتل الدولية في العالم، وإصرار مصر على استقلالية مواقفها إزاء الأحداث السياسية العالمية، ثم اعتماد الحملة الدولية على المساهمات الاختيارية وتركها الأمر لكل دولة لتقرر موقفها منها، وما يثقل كاهل بعض الدول من التزامات، وماتتعرض له بعضها من أزمات. ثم ضخامة المشروع نفسه والتحدي الذي انطوى على تغيير شامل في طبيعة المنطقة، وانتزاع معبد كامل من بطن الجبل ومن زحف مياه النيل عليه والارتفاع به أكثر من ستين مترا، وإعادة إقامته في مكانه الجديد، ثم إحاطته بهضبة جبلية ليعود أقرب مايكون إلى طبيعته الأولى، ثم احتياج المشروع إلى أعلى كفاية فنية للإشراف عليه والاطمئنان إلى سلامة تنفيذه، وارتياب دول العالم في إمكان تنفيذ ذلك على الوجه المرضي حتى ولو كان واقعا في أرض دولة من الدول المتقدمة، ثم الظروف الشاقة التي تركت فيها منطقة النوبة بعد تهجير أهلها واستحالة الحياة فيها إلا بجهد كاد أن يكون أسطوريا، ثم تيسر ظروف العمل والحياة لآلاف من الفنيين، بينهم عدد كبير من الأجانب. وفضلا عن ذلك كله بعد الشُقة وقسوة الطبيعة وسوء الأحوال الجوية في شهور الصيف القائظة مع برنامج صارم لتنفيذ مراحل السد العالي لاينى أو يتراخى. وإلى جوار هذا أيضا مواقف دولية في المساهمة مترددة، وكثير منها وعود، وعملات حرة مطلوبة بلا رصيد أحيانا. كل ذلك كان يمثل عقبات لابد من أن تكون في الاعتبار أثناء المضي في المشروع. لكن مصر صمدت أمام جميع تلك العقبات والمصاعب التي اعترضتها، فلقد كانت بين يدي تجربة تمس كرامتها وعزتها وتستنفر عراقتها، ومضت الأعمال منذ اللحظة الأولى لاتتوقف، في القاهرة حيث مركز التوجيه، وفي أنحاء النوبة

وفي أبوسمبل خاصة حيث العمل يجري في سباق مع الطبيعة والنيل، والثقة تملأ قلوب العاملين، فلم يتوقف العمل لحظة حتى إبان محنة يونيه ١٩٦٧ إلى أن كللت الجهود الصادقة بالنجاح وتم إنقاذ المعبدين. ففي يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٦٨ شاعت في سماء مصر وأرضها أنسام فرحة غامرة، فرحة النجاح في انتزاع أجمل آثار حضارتنا القديمة من يد الفناء والصعود بمعبدي أبوسمبل إلى منصة الخلود، تلك المنصة التي التقت على صنعها أياد من مختلف أنحاء العالم ضمها تعاون صادق وإيمان عميق بقيمة الثقافة وأهمية الأوابد الفنية، والتقاء روحي حار يذوب معه اختلاف اللغات والأجناس والأديان، ولايطل فيه غير وجه الإنسان بنقائه وسموه. ولولا ما كان يشوب نفوسنا من مرارة هزيمة يونيه ١٩٦٧ لجاءت فرحتنا كاملة بهذا النصر الثقافي الشامخ.

على أن إنقاذ معبدي أبوسمبل لم يكن هو كل ماحدث في بلاد النوبة حيث تناثر التراث الأثري في كل مكان من هذه الساحة الشاسعة. ولكن الشيء الجديد بالتسجيل هو أنه قد تم إنقاذ معابد النوبة السبعة عشر جميعا وأعيدت إقامتها في مواقع متفرقة.

على أن مصر تعرف أيضا كيف ترد الجميل فإذا هي تهدي معبد دابود لحكومة إسبانيا ومعبدطافا لحكومة هولندا ومعبد الليسيه لحكومة إيطاليا ومعبددندور لشعب الولايات المتحدة الأمريكية تقديراً لما نالته من مساهمة كبرى على أيديه.

ومن قبيل قدرة مصر على رد الجميل لمن يسدي يداً إلى تراثها العريق ولتقيم بهذا الدليل الحي على حضارتها في أراض متفرقة من الدنيا وبين شعوب مختلفة من العالم، أنها كانت صاحبة المبادأة بين الدول الأعضاء في اليونسكو التي نادت بضرورة إنقاذ مدينتي البندقية وفلورنسا وماتحويان من كنوز إزاء المخاطر التي تعرضت لها. بل ولقد كان الرئيس عبد الناصر وفياً عندما أذن لي قبل أن أعلن هذه المبادرة في المجلس التنفيذي لليونسكو الذي كنت أتشرف بعضويته لثمان سنين بأن مصر تضع تحت تصرف

المديرالعام لليونسكو أول مبلغ تلقته المنظمة الدولية لإنقاذ آثار فلورنسا عام ١٩٦٧ تلاه مبلغ آخر في عام ١٩٦٩. وحين انتخبت بعد ذلك نائبا لرئيس اللجنة الدولية لإنقاذ البندقية لم أتردد لحظة في القبول وتطوعت للعمل بها ما ينوف على سنوات عشرا. وحين أصدرت منظمة اليونسكو لحسابتها كتابي «رمسيس يتوج من جديد» باللغة الفرنسية الذي تناول فيه بالشرح والتحليل جميع مراحل حملة إنقاذ آثار النوبة تنازلت بدوري عن جميع حقوقي المادية والأدبية لمصلحة مشروع إنقاذ مدينة البندقية، فمصر تؤمن بأنه مما يثري حضارة أمة قدرتها على الأخذ والعطاء معا.

وحسبي أن أتلو فقرة من خطاب مدير عام اليونسكو في مؤتمر الدول المشتركة في إنقاذ معابد فيله بالقاهرة في ١٩ ديسمبر ١٩٧٠ بلور فيها قيمة الحملة الدولية فإذا هو يخاطبني قائلا: «والآن التفت إليك لأقول لقد كنت أنت صاحب فكرة الحملة الدولية التي تقودها منظمة اليونسكو، وكان ذلك في شهر يناير ١٩٥٩ عندما حدثتني عنها لأول مرة، فأيقنت عندها أن الأمر بالنسبة لك لم يكن يعني فقط ـ أو حتى أساسا ـ مجرد وسيلة لجمع الأموال اللازمة، بل إن الأهم في نظرك ـ وفي نظري أنا الآخر ـ هوالدلالة المعنوية للمشروع، والقيمة الثقافية العالية لمصلحة الإنسانية جمعاء. ومنذ ذلك الوقت وعلى مدى أحد عشر عاما ذلل تصميمك كل العقبات ومكننا إيمانك بالتعاون الدولي من القيام معا بهذا المشروع، ومن إتمام ما كان يبدو لأول وهلة يوتوبياً. وأنا لا أعني الأحجار العريقة التي تم إنقاذها بقدر ما أعني الاستجابات الجديدة التي تشكلت في عقول الناس وفي قلوبهم. لقد أصبح الحلم حقيقة وفكرة التراث الثقافي المشترك للإنسانية ـ تلك الفكرة التي كانت بالأمس مجرد تصور غامض ـ اتخذت منذ هذه اللحظة فصاعدا شكلا أكثر تحديداً في الضمائر بينما أعطى التعاون العالمي برهاناً ساطعا على فعاليته».

ألا ما أبعد هذه الصورة الرفافة بعد إنقاذ معبد فيله ـ آخر معابد النوبة ـ عن الوضع الذي شهده بيير لوتي في مطلع هذا القرن حين ظلنها تسلم

أنفاسها الأخيرة، والماء يعلو رويدا رويدا ليبتلع كل يوم مزيدا من جسدها العملاق. غير أن ثورة يوليو ١٩٥٢ التي أقامت السد العالي لم تشأ لهذا الجزء من حضارة الوطن أن يندثر أو أن يتخطفه ملك الموت في زحمة انشغالها بهموم المصريين. فلم يكد جسد السد العالي يكتمل حتى هرعت نفس الأيادي وبنفس الحماسة لتركز أسوار الحديد الهائلة حول الجزيرة لتعصمها من الطوفان، ثم لتسحب المياه من تحت قدمي إيزيس وتصعد بها بعد ذلك إلى قمة جزيرة إيجيليكا كي ترفرف من جديد راية من رايات الحضارة الإنسانية خالدة. ليت بيير لوتي يبعث من موته ليشهد بعينيه كيف بعثت إلى الحياة معابد فيله، وإذن لأضاف إلى كتابه - كما تنبأت - خاتمة بعنوان «بعث فيله»، فلم تكن اللحظة التي شاهدها لوتي هي لحظة «موت فيله» بل كانت لحظة التأهب للعودة إلى الحياة من جديد.

كم أحس اليوم بالرضا كله حين أرى هذا المشروع الضخم الذي سعيت إليه يوما، والذي استغرق أعواما أحد عشر ينتهي إلى ما انتهى إليه من نجاح. لقد كان من بين مشروعات الوزارة كلها أكثرها إلحاحا عليّ، حتى لقد كان طوال هذه السنوات محط اهتماماتي، فكانت كثرة أسفاري في مناحي العالم المختلفة من أجله، وأكثر لقاءاتي مع أهل الثقافة والسياسة العالميين في سبيله. لم تشغلني مشكلات الحقل الثقافي رغم إلحاحها وكثرتها وتعقدها عنه، ولم تصرفني ليلة عن متابعة خطواته، فقد جعلت منه مسئوليتي الأولى بقدر ما كان أملي الذاتي. وكنت شديد الإيمان بالنجاح يشدني إلى ذلك إصرار بأن عليّ واجبا يدفعني مع غيري لأن نحفظ للأجيال القادمة أثراً من أعظم ما أنجزته أيدي آبائنا الأولين، أقاموه يوم كانت البشرية تتلمس طريقها نحو مأوى تسكنه في كهوف الجبال، وكانت مصر تنحت للخلود معابد تسكن فيها الروح وتحيل الصخر إلى متحف للفن والجمال. وما من شك في أن هذا المعنى هو الذي حدا بمن تعاونوا معنا لبذل أقصى التضحيات لتحقيق هذا الأمل النبيل.

---

* العربي - العدد ٤٧٧ - أغسطس ١٩٩٨م.

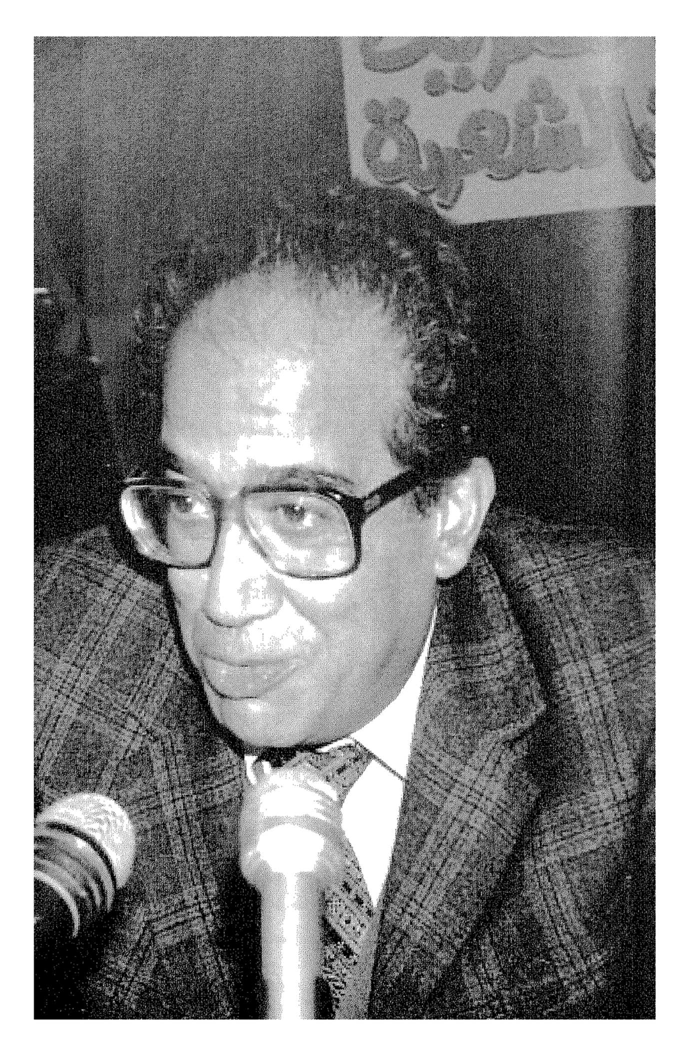
مرفأ الذاكرة | د.جلال أمين

عن العلم والميتافيزيقا ... والنهضة *

إن السفن وهي تعبر المحيط بالليل، تكلم بعضها بإشارة من ضوء أو صوت يتباعد في الظلام، وهكذا في محيط الحياة نحن نعبر ويكلّم كل منا الآخر، نظرة وصوتاً، ثم يعود الظلام ويطبق الصمت.

لو ينظر المرء منا إلى وجهه في المرآة، يوماً بعد يوم، فلا يرى التغيرات التي تطرأ على وجهه بالتدريج، ويظن أنه هو هو لم يتغير، مهما مرّت الأيام والشهور والسنوات، ومع ذلك، فهو إذا رأى صورة قديمة لنفسه، وهو شاب يافع، يصعق إذ يلاحظ فجأة ما فعل به الزمن، ولا يكاد يتبين في تلك الصورة القديمة أيّ شبه بالوجه الذي يطالعه اليوم في المرآة.

كلا الاستخلاصين صحيح، فالمرء يظل في الحقيقة هو هو لا يكاد يتغير مع مرور الزمن، هذا صحيح، ولكن صحيح أيضاً أن



الفارق شاسع بين ما كان في الماضي البعيد وما هو كائن اليوم، لا عجب أن شاع استخدام هذا المثل الفرنسي القديم، وما أكثر ما يتكرر استخدامه: «كلما تغير المرء ظل على ما هو عليه»، أو بترجمة أقل حرفية: «مهما تغير المرء، فهو يظل في الأساس كما كان دائماً».

الذي دفعني إلى هذا المنحى من التفكير، محاولتي وأنا أكتب لـ«مرفأ الذاكرة» في مجلة العربي، أن أجيب عن السؤال الآتي: «ما الذي بقي من أفكاري على ما هو عليه، وما الذي تغير في رحلة العمر؟».

في البداية، قد تبدو التغيرات شديدة، والتقلبات عنيفة، ولكن لا يمكن أن تكون الحقيقة كذلك، بل لا بد أن وراء كل هذه الأفكار، بكل تغيراتها وتقلباتها، شيء ثابت أو أشياء ثابتة تحددها ميول المرء الدفينة، أو شخصيته، أو طبيعة نظرته للأمور أن «مزاجه»، وقد يكون كل هذا قد ولد معي ولا حيلة لي فيه.

كان آخر ما طرأ على تفكيري من تطورات (أو ما يبدو لي الآن أنه آخرها) ذلك التحوّل الذي طرأ عليّ من الانبهار الشديد بفلسفة الوضعية المنطقية بكل عدائها للميتافيزيقا، وكل حماسها للعلم والموضوعية إلى موقف أكثر تعاطفاً بكثير مع الميتافيزيقا، وأكثر شكّاً وحذراً بكثير مما يعتبر علماً وموضوعياً، كنت أتفق مع الوضعية المنطقية، بل ومؤيداً متحمّساً لها، في قلة صبرها على المقولات الغامضة وغير المحددة تحديداً دقيقاً، إذ لم أكن متردداً في وصفها بأنها «كلام فارغ خال من المعنى»، وكانت تعتبر من قبيل هذا الكلام الفارغ، أيّ كلام لا يمكن إثبات صحته أو خطئه بالتجربة أو الملاحظة.

الآن أجدني لست فقط أكثر صبراً، بل ومتعاطفاً مع كثير من

المقولات التي يصعب أو يستحيل «إثبات صحتها أو خطئها بالتجربة أو الملاحظة»، بل وأصبحت أكثر ضيقاً وأقل صبراً على كثيرين ممّن يهاجمون الميتافيزيقا تشدّقاً بدقة موهومة في العلم، وأتبرّم بثقتهم المفرطة في العلم والتكنولوجيا، وبأنهما قادران على حل مشاكل الإنسانية، ولم أعد أتحمّل بسهولة ميل هؤلاء المفتونين بالعلم والتكنولوجيا إلى درجة الهوس، وإلى حد السخرية من أشخاص «ذوي نزعة ميتافيزيقية» إذ إني لا أجد أن هذه النزعة الميتافيزيقية في كثير ممن أعرفهم من الناس قد أضرّت بأخلاقهم أو أفسدت سلوكهم، بل أصبحت أميل إلى الاعتقاد بأن نهضة أي أمة منوطة باعتقاد ميتافيزيقي قوي، ومن ثم بوجود مثل هؤلاء الذين وصفتهم حالاً، فلا أتصوّر نهضة لأمتنا دون أمثالهم: ثقة بالنفس، واعتزازاً بالكرامة، وقوة في العزم، وشجاعة في الانتصار للحق، وهي صفات استمدّوها كلها من اعتقاد ميتافيزيقي قوي، ولا أجد أن هذا كله يتعارض بالضرورة مع تمتع المرء بصفاء في الذهن، واتساق في المنطق، واحترام للدقة العلمية عندما يكون مجال الكلام هو العلم.

***

ما الذي جعلني أتحوّل هذا التحوّل؟ هذا التحوّل الذي يبدو لأول وهلة خطيراً، ويكاد أن يكون انقلاباً من النقيض إلى النقيض؟ رحت أفتّش فيما حدث لي، فوجدت أن هذا التحوّل قد حدث لي في وقت ما في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، لا أستطيع – بالطبع – أن أحدد تاريخاً واضحاً، فلاشك أن التحوّل قد حدث بالتدريج، مهما بدا الانقطاع حادّاً إذا نظرت إليه بعد اكتماله، سألت نفسي إذن: ما الذي حدث في أواخر الستينيات أو أوائل السبعينيات مما قد يجعلني أفقد الثقة في كمال العلم،

وأكتسب احتراماً متزايداً للميتافيزيقا؟

خطرت ببالي احتمالات عدة، سوف أذكرها للقارئ واحداً بعد الآخر.

كنت في منتصف الستينيات قد أتممت دراستي للدكتوراه في الاقتصاد في جامعة لندن، وعدت إلى مصر بعد ست سنوات في إنجلترا، إن من الممكن لست سنوات من الدراسة الأكاديمية في علم من العلوم الاجتماعية أن تحدث آثاراً مختلفة مع اختلاف الأشخاص، وقد انتهت معي إلى إثارة قدر كبير من الدهشة من درجة «عدم الانضباط» في هذا العلم. الاقتصاديون يعتبرون الاقتصاد «علماً»، وهم منبهرون بما حققه من صياغة رياضية لكثير من أفكاره، وبإمكان استخدام الرسوم البيانية للتعبير عنها، ولكن الحقيقة أن درجة الدقة والانضباط في النظريات الاقتصادية، كما بدت لي بعد ست سنوات من الدراسة، ضعيفة للغاية، وما يبدو لها أحياناً من دقة وانضباط لا يتحقق إلا بناء على عدد لا نهائي من الافتراضات غير الواقعية، بغيرها يصبح التعميم صعباً للغاية، والوصول إلى قوانين صارمة شبه مستحيل، كانت حصيلة ست سنوات من القراءة في الاقتصاد إذن، أن فقدت جزءاً كبيراً من ثقتي بـ«كمال» هذا العلم، وانسحب هذا، بحق في رأيي، بل وربما بدرجة أكبر، على سائر ما يسمى بالعلوم الاجتماعية.

والحقيقة أن هذا لم يصبني بخيبة أمل بقدر ما أصابني بالراحة والاطمئنان، فما هو الضرر من اختلاف آراء الاقتصاديين، و «علماء» الاجتماع؟ وما هو العيب في استحالة الوصول إلى قوانين حتمية في الدراسات الاجتماعية تشبه ما يصل إليه العالم الطبيعي؟ بل أليس هذا أجمل وأعظم؟ ألا يتفق هذا مع طبيعة

الإنسان الثرية، وقدرته المستمرة على الإدهاش والقيام بغير المتوقع وما لا يمكن التنبؤ به؟

ولكن إذا كان «العلم» بقواعده الصارمة وقوانينه الحتمية عاجزاً عن الإحاطة بالسلوك الإنساني، على النحو الذي تحيط به العلوم الطبيعية بسلوك الظواهر المادية، أليس معنى هذا أن للمشاعر الإنسانية ونزعات الإنسان الدفينة دوراً أكبر في تشكيل سلوكه، مما يصعب جداً (أو يستحيل) الكشف عن أسراره وخباياه، ويصعب أو يستحيل قياسه بأي درجة معقولة من الدقة، ومن ثم يصعب أو يستحيل التنبؤ به؟ ألا يعني هذا دوراً أكبر لـ«الميتافيزيقا»؟

كان هذا، فيما أظن، سبباً من أسباب تحوّلي إلى تعليق أهمية أكبر بكثير من ذي قبل على الميتافيزيقا، ولكن كان هناك، بلاشك، أسباب أخرى.

***

كنت في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات قد بدأت ألاحظ ما طرأ على الحياة في الغرب من نزعة استهلاكية متزايدة القوة، كنت أزور أوربا على فترات متقاربة، وبدأت ألاحظ هذا التغير المتسارع نحو الاعتراف بأي رغبة أو نزوة أو هوى طارئ قد يخطر بالبال، والاعتراف بحق أي من هذه الرغبات والأهواء في الإشباع.

لم يكن هذا تضخيماً من جانبي لعيوب الغرب، بل كان حقيقة واقعة، كان الغرب، بالفعل، يتحول بسرعة وبدرجة لم يعهدها من قبل إلى مجتمع شعاره المزيد والمزيد من الاستهلاك، والمزيد والمزيد من الإباحية، كل شيء ممكن، وكل رغبة مباحة.

وانعكس هذا، ليس فقط في أسواق السلع، بل وفي الإنتاج

الثقافي، من سينما ومسرح وكتب وتلفزيون، كان هذا هو الوقت الذي أقبل فيه الشباب على إطلاق شعرهم، وإدمان الأنواع المختلفة من المخدرات، وترك المدارس والجامعات ليطوفوا بالعالم في فسحة، وبداية الممارسة العلنية للشذوذ الجنسي.. إلخ.

كان الرخاء الذي حققه الغرب بعد ربع قرن من نهاية الحرب العالمية الثانية، والتقدم التكنولوجي الذي صاحب ذلك، عاملاً أساسياً في ظهور هذه النزعة الاستهلاكية والإباحية، واستمرت هذه النزعة تزداد قوة ولاتزال، وبقدر ما كرهت واستنكرت هذه النزعة، بقدر ما فضّلت عليها كثيراً من جوانب ثقافتنا نحن، المصرية والعربية والإسلامية، كلما قويت في ذهني فكرة بعينها، هي ما يمكن أن أعبّر عنه بكلمتين «خصوصية الغرب».

كان هذا بالنسبة لي لا أقل من «اكتشاف»، أو هو بالأحرى أشبه بالنظر إلى شخص لم يكن يثور في ذهنك قط أي شك في أنه دائماً على صواب، يقاس الناس جميعاً بمقياسه، فأكملهم من كان مثله، والنقص هو العجز عن الوصول إلى ما وصل إليه، ثم إذا بك فجأة تراه بعينين مختلفتين، وتكتشف أنه رجل كغيره من الرجال، يخطئ ويصيب.

أو لعل هذا «الاكتشاف» كان أيضاً شبيهاً بالتغير الذي يلحق رجلاً كان يعشق امرأة معينة عشقاً كبيراً، ويعتبرها أجمل المخلوقات طرا، ثم لسبب ما يموت الحب، فإذا بهذه المرأة في عينه لاتزال جميلة، ولكنها ليست بالجمال نفسه، ويبدأ في ملاحظة أشياء فيها لم يكن يلاحظها، بل لم يكن يراها أصلاً من قبل: خدش صغير هناك، وأنف أكبر من اللازم قليلاً، أو فم بارز بعض الشيء.. إلخ.

فجأة، ظهرت الحضارة الغربية أمامي، لا كحضارة بل كـ

«ثقافة»، والحضارات بالمعنى الذي أقصده قليلة، والحضارة السائدة في وقت ما هي عادة حضارة واحدة، ولكن «الثقافات» كثيرة، وقد توجد وتتعايش كلها في وقت واحد، دون أن يكون من الممكن القول إن واحدة أفضل أو أرقى من الأخرى، بعضها أفضل في أشياء، والأخرى أفضل في أشياء أخرى.

كان هذا الاكتشاف يمثّل لي تحرّراً حقيقياً، ربما انطوى على شيء من خيبة الأمل، ولكنه كان تحرّراً حقيقياً مع ذلك، أقرب إلى تحرّر العاشق من عشقه، أو تحرّر المرء من عبوديته لنظرية أو فلسفة ما في الحياة، أو من تقديسه لشخص ما تقديساً مبالغاً فيه، وفي غير محله، متى حدث هذا التحرر، إذا بالمرء يكتشف كل يوم شيئاً جديداً كان غائباً عنه، ويرى أشياء لم يكن يراها، وكأنني خلعت نظارة ملوّنة كانت أمام عينيّ، وكانت تلوّن كل شيء بلون معين، وكنت أظن أن هذا اللون في الأشياء نفسها، فإذا بي أكتشف أن اللون في النظّارة، وإذا بي، وقد خلعتها، أرى كل شيء بلونه الحقيقي.

***

ولكن اكتشافي لـ«خصوصية الغرب»، كان لابد أن يقترن به، في الوقت نفسه، اكتشافي لخصوصيتي أنا أيضاً، أو خصوصية ثقافتي التي أنتسب إليها وتشرّبت بها، ودخلت في تكويني العصبي والعاطفي والعقلي، لقد كنت أرى، كل شيء بمنظار الغرب، وكنت أظنه المنظار الوحيد الممكن، أو أنه أفضل منظار ممكن، ثم اكتشفت أن منظار ثقافتي جدير بالدرجة نفسها من الإحترام، بل هو أفضل لي أنا، على الأقل، لأنه منظاري أنا، وأن استبدال غيره به قد يكون فيه هلاكي أو عذابي.

هل يستطيع القارئ أن يتصوّر مدى سروري بما اكتشفت؟

وكأن شيئاً مهملاً كان في حوزتي دائماً، ولم أكن أحتفل به الاحتفال اللائق، قد اكتشفت فجأة أن له قيمة كبيرة، هل يتصوّر القارئ فرحة البجعة الصغيرة في قصة هانس كريستيان أندرسون الشهيرة، التي اكتشفت فجأة أنها ليست بطة قبيحة وسط مجموعة من البجع الجميل، كما كانت تظن، بل هي في الحقيقة بجعة جميلة أخرى؟

هكذا كانت فرحتي بلغتي العربية، وبديني، وتاريخي وأبطالي، وبالمعمار الإسلامي، والموسيقى العربية والخط العربي، والأمثال العربية والمصرية، والشعر العربي، بل وبالعادات المصرية وعبارات المجاملة التي نتبادلها، وحياء الفتاة العربية، وطريقة معاملتنا للأطفال، ونظرة الصغير منا إلى الكبير.. إلخ.

طبعاً فينا عيوب كثيرة، ولكنها ليست شيئاً يستوجب الشعور بالتخاذل أو الانكسار، كل شعب فيه الخصال الجميلة والقبيحة، وكل ثقافة فيها الجيد والسيئ.

إذا كان الأمر كذلك، ففكرة التقدم نفسها لابد أن تصبح محل نظر، لم تعد الأمم في نظري تقف في صف واحد طويل، فبعضها «متقدم» في أول الصف، وبعضها «متخلف» واقف في آخره، والتاريخ الإنساني ليس كدرجات السلم تصعد فيه الأمم من الأدنى إلى الأعلى، بل إن قصة التطور قصة أكثر ثراء وتعقيداً، فيها تحوّلات إلى الأفضل، وتحوّلات إلى الأسوأ، نعم، هناك أمم غنية وأمم فقيرة، بل هناك أمم ناهضة وأمم خاملة، ولكن هذا لا يعني أن الأولى في «قمة السلم» والأخرى في أسفله، نعم، إن الأمم الخاملة لابد لها أن تحاول النهوض، ولكن النهوض لا يعني «اللحاق بالغير» بل تعني اليقظة بعد سبات، والحركة بعد خمول، والإبداع بدلاً من التقليد، والتعبير الحرّ عن النفس بدلاً من

الانقياد للغير.

ما علاقة هذا «الاكتشاف» الذي وصلت إليه، لخصوصية الغرب، وكذلك لخصوصيتي أنا وثقافتي وأمتي، بتغيّر موقفي من «الميتافيزيقا»؟، العلاقة وثيقة فيما أظن، فأنا أفهم كلمة «الميتافيزيقا» فهماً واسعاً، لا يشمل الدين وحده، كما أن تعريفها بأنها «ما وراء الطبيعة» لا يدل، بالضبط، على مفهومي لها. «الميتافيزيقا» كلمة يمكن أن تُستخدم للتعبير عن كل ما لا يظهر للعيان، مالا يمكن لمسه وتحديد مكانه، كل مالا يمكن قياسه وتحديد أبعاده قد يؤثر في الماديات، ولكنه هو نفسه ليس مادياً، أو على الأقل لا يبدو لنا كشيء مادي، مفهوم الميتافيزيقا وثيق الصلة إذن بالحياة، بالجزء الحيّ منا، وليس بالجزء المادي، ومن ثم فهو أثمن ما لدينا.

لكل أمة إذن، ولكل ثقافة «ميتافيزيقاها»، هي التي تحدد شخصيتها وتميّزها عن غيرها، بل هي التي تعطي لحياتها معنى، إنها ليست ما تنتجه من آلات وسلع، بل هي «اختيارها» لنوع ما تنتجه هذه الآلات والسلع، ولكل شيء آخر تنتجه أو تفعله أو تفكر فيه أو تشعر به.

يترتب على هذا أن للميتافيزيقا صلة وثيقة بنهضة الأمة، وأن من المستحيل أن نتصوّر أمة تنهض إذا تخلّت عن «ميتافيزيقاها» وأن من أسوأ ما يصيب أمة تخليها عن ميتافيزيقاها وتبنيها لميتافيزيقا الغير، من الممكن أن نتصور أن يحدث هذا دون ضرر، إذا كان من الممكن تصوّره على الإطلاق، إذا حدث عبر فترة طويلة من الزمن، دون قهر، بل كجزء من التطوّر الطبيعي والتلقائي للأمور، وكنتيجة عفوية لاحتكاك أمة بغيرها، دون أن تفرض أمة إرادتها و (ميتافيزيقاها) بالقوة على

غيرها، سواء كانت هذه القوة عسكرية أو اقتصادية أو فكرية.

هكذا أدركت ضرورة تمسّكنا بميتافيزيقانا من أجل إحراز النهضة، ضرورة التزامنا بها واحترامنا لها وثقتنا فيها، كما يتمسك المرء بأمة ويصونها ويدافع عنها، ولا يكاد أن يكون هناك شيء أسوأ من خيانة فرد لميتافيزيقا أمته إلا خيانة المرء لأمّه.

***

هذا هو بعض المتاع الذي مازلت أحمله وأنا أقترب من مرفأ الوصول، تخليت عن قطع أخرى من المتاع في الطريق، وتزوّدت بقطع جديدة، وهذه هي واحدة من أثمن ما ملكنا، مازلت أحتفظ بها (أو هكذا أظن) ولعلها تبقى معي حتى النهاية. ومع ذلك، فإني أتساءل أحياناً، هل كانت هذه القطعة الثمينة من متاعي قطعة جديدة حقّاً اكتسبتها خلال الرحلة، أم كانت في الحقيقة معي منذ البداية دون أن أفطن إلى وجودها معي؟ هل أنا حقاً شخص مختلف عن الشخص الذي بدأت حياتي به، في نوازعه ومزاجه وميوله وطريقة تفكيره، كما يبدو لي، مثلاً، من مقارنة صورة حديثة لي بصورة قديمة، أم أني كنت في الحقيقة دائماً كما أنا الآن، كما يبدو لي يوماً بعد يوم من مطالعة وجهي في المرآة؟

أعود فأتذكر أني حتى وأنا صغير كنت أميل دائماً إلى الجمع بين الجاف من العلم والحارّ من العاطفة، ولا يشبعني هذا وحده ولا تلك وحدها، بل أنفر من هذا إذا كان وحده، ومن تلك إذا كانت وحدها، أذكر، مثلاً، أنني ترددت طويلاً جداً قرب نهاية دراستي الثانوية، عندما كان عليّ أن أختار بين التخصص في العلوم الطبيعية والتخصص في الإنسانيات، لا أدري ما أختار، وظللت فترة أحضر دروساً في هذه العلوم، ودروساً في تلك،

واجداً من الصعب تفضيل إحداها على الأخرى، وكأني كنت أتمنى أن أجد ما يجمع بين الاثنين.

ثم أجد أني بعد أن انتهيت إلى التخصص في الاقتصاد، كنت دائماً أجده، على الأقل كما كان ولايزال يدرّس ويُكتب، جافّاً أكثر من اللازم، بعيداً جداً عن حياة الناس الحقيقية، فأجد نفسي أحاول محاولات تخيب أحياناً وتنجح أحياناً، للمزج بين الاقتصاد وغيره من جوانب الثقافة.

كنت منذ صغري أحب الموسيقى، ولكني أذكر أني وأنا في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمري، ثم مرة أخرى وأنا في إنجلترا في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، أفكر وأقرأ كثيراً محاولاً أن أجيب عن السؤال التالي دون جدوى:

هل يمكن فعلاً للموسيقى أن تعبّر عن أفكار؟ وكأني كنت أشعر دائماً أن الميتافيزيقا وحدها غير كافية، بل لابد أيضاً من «علم»، أو كأني كنت أشعر بأن التقدم المادي وحده غير كاف وأنه لا قيمة حقيقية له بغير ميتافيزيقا، بل وبأن الميتافيزيقا شرط من شروط هذا التقدم المادي نفسه.

* العربي - العدد ٤٩٤ - يناير ٢٠٠٠م.

مرفأ الذاكرة | حنا مينه

الكتابة... هي الحياة *

لم أكن أتصوّر، حتى في الأربعين من عمري، أنني سأصبح كاتباً معروفاً، فقد ولدت، كما هو معروف عني، بالخطأ، ونشأت بالخطأ، وكتبت بالخطأ أيضاً. لنبدأ بالكلام عن حياة الطفولة، هذه التي أصبحت بعيدة جداً الآن، وكل ما أذكره عنها أنني بدأت رحلة التشرد وأنا في الثالثة من عمري، وهذه الرحلة، من حيث هي ترحال مأساوي في المكان، عمرها الآن سبعون عاماً، أما رحلتي في الزمان، فهي أبعد من ذلك، وستبقى ما بقيت، بسبب أن التأمل، التلفت، الاستشراف، تمثل الوعي الأول للوجود، وكل هذه الذكريات التي تتثال في الخاطر، أصبحت مرهقة الآن، وأنا ألعنها لأنها تغتالني بلا رحمة.

والدتي اسمها مريانا ميخائيل زكور، وقد رُزقت بثلاث بنات كنّ، بالنسبة لذلك الزمان، ثلاث مصائب، عانت منهن الكثير الكثير، فالوسط الفقير إلى حد التعاسة، كان يشكّل عقلية سلفية بالغة القسوة، وقد تعاون هذا الوسط، وما فيه من ظلم ذوي القربى، على إذلال والدتي، باتهامها أنها لا تلد إلا البنات، وكأن المطلوب أن تلد المرأة الصبيان، وفي الأقل الأقل، أن تلد صبياً بعد بنت، لكن القدر



شاء أن تحمل وتلد البنات الثلاث بالتتابع، الأمر الذي كان يحمل إليها مرارة الشقاء، بالتتابع أيضاً.

وستقول لي أمي، حين أكبر: (اسمع يا حنا! أنت ابن الشحادة، فقد شحدتك من السماء، منذ تزوجت أباك، وفي كل مرة كنت أحمل فيها، كانت السماء تعاقبني، فأرزق ببنت، أنا التي كنت أسألها الصبي، أسألها أنت، وأنت لم تأت إلا في الحمل الرابع، الذي بكيت فيه من الفرح، بينما كنت، قبل ذلك، أبكي من الحزن. لقد منحتني السماء إياك بعد طول انتظار، وطول معاناة، لكن المنحة كانت، حتى مع الشكر، منحة مهددة بالأمراض، والخوف عليك منها، ثم الدعاء إلى الله، في أن تعيش، كرمى لي، حتى لا أعيش الخيبة من جديد، وهذا ما حدث، فقد ولدت عليلاً، ونشأت عليلاً، وكان الموت والحياة يحومان حول فراشك، الذي كان طرّاحة على حصيرة في بيت فقير إلى حد البؤس الحقيقي، كنت شمعة تتوس ذبالتها في مهب ريح المرض، وكنت أسأل الله، وأنذر النذور، وأسأل الريح، بكل ما في الابتهال من ضراعة، ألا تنطفئ الشمعة التي كنتها، حتى لا أفجع فجيعة تودي بي إلى القبر، وشاء الله، سبحانه وتعالى، أن تعيش، في قلب الخطر، وهذا الخطر، لازمك حتى الشباب، وعندها تحوّل من خطر الموت إلى خطر الضياع، في السجون والمنافي، هذه التي أبكتني بكاء مضاعفاً، خشية ألا أراك، وأنت تعطي نفسك للعذاب في سبيل ما كنت تسمّيه التحرر من الاستعمار الفرنسي، وتحقيق العدالة الاجتماعية!).

هكذا ولدت في قلب الخطر، وترعرعت في جوف حوته أيضاً، وناضلت ضد هذا الخطر بلا هوادة، فكان المبدأ الذي شببت عليه، عاملاً أساسياً في شفائي الجسدي والنفسي، لذلك قلت يوماً، بعد أن صرت كاتباً: (أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين) فالكفاح له

فرحه، له سعادته، له لذّته القصوى، عندما تعرف أنك تمنح حياتك فداء لحيوات الآخرين، هؤلاء الذين قد لا تعرف لبعضهم وجهاً، لكنك تؤمن، في أعماقك، أن إنقاذهم من براثن الخوف والمرض والجوع والذل، جدير بأن يضحى في سبيله، ليس بالهناءة وحدها، بل بالمفاداة حتى الموت معها أيضاً.

إن وعي الوجود عندي، ترافق مع تحويل التجربة إلى وعي، وكانت التجربة الأولى في حي (المستنقع) الذي نشأت فيه في اسكندرونة، مثل التجربة الأخيرة، حين أرحل عن هذه الدنيا، ومثل تجربة الكفاح ما بينهما، منذورة كلها لمنح الرؤية للناس، لمساعدتهم على الخلاص من حمأة الجهل، والسير بهم ومعهم نحو المعرفة، هذه التي هي الخطوة الأولى في (المسيرة الكبرى) نحو الغد الأفضل.

لقد تقضى العمر، في حلقاته المتتابعة، بشيء جوهري لدي: هو تحقيق إنسانيتي، من خلال تحقيق إنسانية الناس، أنفقت طفولتي في الشقاء، وشبابي في السياسة، ولئن كان الشقاء قد فُرض علي من قبل المجتمع، فعشت حافياً، عارياً، جائعاً، محروماً، من كل مباهج البراءة الأولى، فإن السياسة نقشت صورتها على أظفاري بمنقاش الألم، فتعلمت، مبكّراً، كيف أصعّد الألم الخاص إلى الألم العام، وكيف أنكر ذاتي، وأنتصر على رذيلة الأنانية، وكل إغراءات الراحة البليدة، التي توسوس بها النفس، فكان الإنسان في داخلي، إنساناً توّاقاً إلى ما يريد أن يكون، لا إلى ما يُراد له أن يكون.

وكان المحيط الاجتماعي الذي نشأت فيه، بتمام الكلمة، أميّاً، متخلّفاً، إلى درجة لا تصدّق، لم يكن في حيّ المستنقع كله، مَن يقرأ ويكتب، كان سكان هذا الحي، والأحياء الفقيرة الأخرى في مدينة اسكندرونة، يتلمّسون في الظلمة سبيلهم إلى النور، والذين ساعدوهم في ذلك كانوا المناضلين الأول، ضد الانتداب الفرنسي والإقطاع،

وكان لي – وأنا فتى في الثانية عشرة من عمري – حظ التعرف على هؤلاء الحاملين المشاعل، وشرف الانتماء إليهم، والتعرّف إلى حقيقة الكلمة وشرفها من خلال إرشاداتهم، هذا المجتمع، في الطفولة واليفاعة والشباب، أعطاني تجارب لا تُنسى، أفدت منها في كفاحي بالقلم على امتداد حياتي الأدبية التي قاربت الخمسين الآن. وكي أختصر الكلام عن المحيط السياسي أقول: عرفته، رافقته، كنت قريباً من أبرز رجاله، منذ هجرة عائلتي من اللواء العربي (الاسكندرونة) إلى اللاذقية، وقبل ذلك بقليل، وبعد ذلك إلى الوقت الراهن، غير أن كفاحي، على الجبهة الثقافية، وما فيها من كرم الكفاح، قد جعلني أكتشف حقائق كثيرة، ومنذ وقت مبكّر، لذلك تركت الانتماء الحزبي، منذ منتصف الستينيات، وكرّست حياتي للأدب، وللرواية تخصيصاً، وسأبقى كذلك، دون أن يعني ذلك نسيان الماضي، أو عدم الأمانة للمنطق، فأنا أعرف أن اليوم الذي أنسى فيه ناسي، أو أدير لهم ظهري، أو ينقطع حبل السرّة الذي يربطني بهم، سيكون يوم توقفي عن الكتابة، وتالياً عن الحياة.

ولندع الكلمات الكبيرة. فإنني لا أنسجم معها، رغم أن الحديث قد اضطرني إلى مقاربتها، فما أقوله لقرّائي أنني ولدت في حيّ فقير بائس في مدينة اللاذقية، وفي دار تتقاسم عائلات فقيرة غرفها، وقد اضطرت أمي إلى حرماني من نصف حليبها، وبيع النصف الآخر إلى ابن عائلة ثرية كانت تعمل عندها، يُقال إن أخي في الرضاعة كان (جول فيتالي) وهو من الأغنياء الذين عاشوا حياة ترفة، ولم أر له وجهاً، لأنه ارتحل قبل سنوات. لقد صوّرت وضعي الصحي العليل في سيرتي الذاتية، ومنها تعرفون وضعي العائلي الغارق، حتى الاختناق، في حفرة شقاء تدافعناه، بكل ما نملك من إرادة، فلم يندفع! أمي وأخواتي الثلاث، عملن خادمات، عملت أنا

الصبي الوحيد، الناحل، أجيراً، كذلك عمل الوالد، سليم حنا مينه، الخائب في كل أعماله ونواياه، حمّالاً في المرفأ، بائعاً للحلوى، وللمرطبات، مرابعاً في بستان قاحل إلا من أشجار التوت، ومربيّاً لدود القز، ثم عاود، بين كل هذه الأعمال وأثناءها، سيرته في الترحال، كأنه (موكل بفضاء الله يذرعه)، كان أبي، رحمه الله، رحّالة من طراز خاص، لم ينفع ولم ينتفع برحلاته كلها، أراد الرحيل تلبية لنداء المجهول، تاركاً العائلة، أغلب الأحيان، وفي الأرياف، للخوف والظلمة والجوع، ولطالما تساءلت: وراء أي هدف كان يسعى؟ لا جواب طبعاً، إنه بوهيمي بالفطرة، وقاص بالفطرة، يصنع من أي مشهد حكاية شائقة، وقد أفدت منه، في هذا المجال فقط، كان رخواً إلى درجة الخور أمام شيئين: الخمر والمرأة! لم يفز بالمرأة ولم يستمتع بالخمر. كان يسكر إلى درجة التعتعة والسقوط والنوم حيث يسقط، لمجرد شرب كأس أو كأسين. يا للأب المثالي، الذي كافأته، في السنوات الخمس عشرة الأخيرة من عمره، مكافأة حسنة، متجاوزاً عن كل ما ألحق بالعائلة من أذى، وليس في ذلك منّة، بل واجب البنوّة وحده.

من اللاذقية، حيث ولدت، تشرّد الوالد، وجرّ العائلة معه، إلى متاهة الضياع، وهذا التشرد فرض علي البحث عن اللقمة أولاً، وفرض علي، ثانياً، العمل الشاق في السياسة، وأمنيتي، الآن، أن أتشرّد من جديد، لأنني أكاد أتعفّن بين الجدران الأربعة من مكتبي في الوظيفة، ومن مكتبي في البيت، الذي أعمل فيه وسط شروط لا إنسانية!

الرحلة، في الخطوات الأولى، انطلقت من اللاذقية إلى سهل أرسوز قرب أنطاكية، مروراً باسكندرونة، ثم اللاذقية من جديد، وبيروت، ودمشق، وبعد ذلك تزوجت، وتشردت مع عائلتي لظروف

قاهرة، عبر أوربا وصولاً إلى الصين، حيث أقمت خمس سنوات، وكان هذا هو المنفى الاضطراري الثالث، وقد دام، هذه المرة، طويلاً، حتى قارب العشرة من الأعوام، لم أكتب فيها حرفاً واحداً، وبذلك ضاع استواء رجولتي بين الثلاثين والأربعين من عمري، سدى، فالنبتة قلّما تعيش إلا في تربتها! هناك استثناءات كثيرة طبعاً، لكن غربتي، وهي مهنتي الشاقة، تختلف جداً، بسبب ما ترتّب عليّ من كدح لإعالة أسرتي، التي كان نصفها معي، والنصف الآخر في اللاذقية.

لقد تزوجت مريم دميان سمعان، أصلها من بلدة السويدية، مصب نهر العاصي قرب أنطاكية، وكانت مقيمة في اللاذقية عندما التقيتها وتعارفنا بعد هجرة العائلة من اللواء العربي السليب، إنها إنسانة طيبة، شعبية، لم تتجاوز دراستها الصفوف الابتدائية، أي أنها مثلي من ناحية التحصيل العلمي، لكنها بذكائها الفطري، تفهّمت ظروفي كمناضل سياسي ضد الانتداب الفرنسي قبل الزواج، كما تفهمت ظروفي بعد الزواج ككاتب، فوفّرت لي، في الحالتين، جوّاً أسرياً سعيداً، قوامه نكران الذات إلى حد التضحية، في سبيل إنشاء الأسرة، ومشاطرتي آلام الغربة، وتوفير الهدوء والصفاء اللازمين لي ككاتب، وإني مدين لها بنجاحي، وهذه مناسبة أتحدث فيها لأول مرة عن هذه الإنسانة الرائعة، التي كانت معي على الدهر، لا مع الدهر علي، وهذه مأثرة المرأة الرائعة دائماً، التي تتحلى بصفات نبيلة، ومنها الصبر، والتدبير، والخلق الكريم، حتى أجد نفسي عاجزاً عن الكلام الذي يفيها حقها، بسبب أنها تفانت، ولاتزال، لإسعادي، وللسهر على الأسرة في غيابي وحضوري.

إننا، هي وأنا، نقترب من نصف قرن من الزواج الناجح، والفضل في نجاحه يعود إليها حصراً، لأنها تتيح لي حرية اكتساب التجارب من جهة، والمناخ الملائم للكتابة عن هذه التجارب من جهة أخرى.

رزقنا خمسة أولاد، بينهم صبيان، هما سليم، توفي في الخمسينيات، في ظروف النضال والحرمان والشقاء، والآخر سعد، أصغر أولادي، وهو ممثل ناجح جداً الآن، شارك في بطولة المسلسل التلفزيوني (نهاية رجل شجاع) المأخوذة عن رواية لي بهذا الاسم، فأبدى مقدرة غير عادية، في أدار دور (مفيد الوحش) عندما كان صغيراً، وهذا المسلسل لقي إعجاباً مثيراً، وبث إلى كل أنحاء العالم، كما شارك بدور البطولة (شاهين) في المسلسل التلفزيوني المهم (الجوارح) وكلا المسلسلين من إخراج نجدت إسماعيل أنزور، هذا الإنسان الموهوب إلى درجة الإبهار.

لدينا ثلاث بنات: سلوى (طبيبة)، سوسن (مخدرة وتحمل شهادة الأدب الفرنسي)، وأمل (مهندسة مدنية) وقد تزوجن، ولم يتبعنني على طريق جهنم: طريق الأدب!

بداياتي الأدبية الأولى كانت متواضعة جداً، فقد أخذت، منذ تركت المدرسة الابتدائية (هذه التي تعلمت فيها فكّ الحرف كما يقولون) بكتابة الرسائل للجيران، وكتابة العرائض للحكومة، كنت لسان الحي إلى ذويه، وسفيره المعتمد لدى الدوائر، أقدم لها، بدلاً من أوراق الاعتماد، عرائض تتضمن شكاوى المدينة ومطالبها، هنا كنت صدامياً ومنذ يفاعتي: إننا جياع، عاطلون عن العمل، مرضى، أميّون، فماذا يريد أمثالنا؟ العمل، الخبز، المدرسة، المستشفى، رحيل الانتداب الفرنسي، مطالبة الحكومة، في فجر الاستقلال، أن تفي بوعودها المقطوعة لأمثالنا.

هذه كانت بدايتي، وقد دفعت الثمن، لأن المسئولين، آنذاك، وجدوا فيّ مخلوقاً يطالب بقوة، بإلحاح، بجرأة، مع أمثاله، بما هو حق لهم، وماذا كنا نخشى؟ في السجن نجد اللقمة، وفي تحقيق هذا المطلب أو ذاك نلقى العزاء، ولم يكن لدينا ما نخاف عليه، لأننا،

أصلاً، مخلوقات العالم السفلي.

بعد ذلك، وأنا حلاّق في اللاذقية، كنت أبيع جريدة (صوت الشعب) الناطقة باسمنا ونيابة عنا، وعن المسحوقين من أمثالنا، كان ذلك خلال الحرب العالمية الثانية، وكنا ضد النازية، وضد الاحتلال الفرنسي، وضد آغواتنا، وقد تدرّجت، من كتابة الأخبار والمقالات الصغيرة، في صحف سوريا ولبنان، إلى كتابة القصص القصيرة.

بدأت حياتي الأدبية بكتابة مسرحية دونكيشوتية، صرخت فيها على كيفي، غيّرت العالم على كيفي، أقمت الدنيا ولم أقعدها، ضاعت المسرحية ومنذئذ تهيّبت الكتابة للمسرح، ولاأزال. القصص ضاعت أيضاً، لم أشعر بالأسف، وكيف أشعر به وحياتي نفسها ضائعة؟ المهم أنني لم أفكر، وأنا حلاق، وسياسي مطارد، بأنني سأصبح كاتباً، كان هذا فوق طموحي، رغم رحابة هذا الطموح، صدّقوني إنني، حتى الآن، كاتب دخيل على المهنة، وأفكر، بعد هذا العمر الطويل، بتصحيح الوضع والكف عن الكتابة، فمهنة الكاتب ليست سواراً من ذهب، بل هي أقصر طريق إلى التعاسة الكاملة. لا تفهموني خطأ، الحياة أعطتني، وبسخاء، يقال إنني أوسع الكتّاب العرب انتشاراً، مع نجيب محفوظ بعد نوبل، ومع نزار قبّاني وغزلياته التي أعطته أن يكون عمر بن أبي ربيعة القرن العشرين.

يطالبونني، في الوقت الحاضر، بمحاولاتي الأدبية الأولى، التي تنفع النقاد والدارسين، لكنها، بالنسبة إلي، ورقة خريف سقطت!

وقد كنت، كما هو معروف، يسارياً وسأبقى، أما لماذا الأمر كذلك، فإن هذه (اللماذا) في غير محلها! تصوّروا ابن العالم السفلي، العاري، الحافي، الجائع، مثلي ومثل ناسي، ثم نكون في اليمين، الذي يتغذى أطفاله بالشيكولاته، ويركبون الكاديلاك! مفارقة أليس كذلك؟!

الرواية الأولى التي كتبتها كانت (المصابيح الزرق) لكنني لم أفكر بشرارتها، أهي حمراء أم زرقاء؟! وهل أنا نيرودا حتى تطلق قصائدي شرارات؟! إنني بابا نوئيل أوزع الرؤى على الناس، كي أفتح عيونهم على الواقع البائس، وأحسب أنني ناجح إلى حد ما، لأن كلماتي التي أكلت عيوني، على مدى نصف قرن، لم تكن مجانية، لقد حرصت دائماً على شيئين: الايقاع والتشويق! وكتبت لغايتين: توفير المتعة والمعرفة للقرّاء، وهذا سر نجاحي الكبير، فلا أبوح به إلا للنشر! تأملوا!!

يقال إن البحر كان دائماً مصدر إلهامي، حتى إن معظم أعمالي مبللة بمياه موجه الصاخب، وأسأل: هل قصدت ذلك متعمّدا؟ في الجواب أقول:

في البدء لم أقصد شيئاً، لحمي سمك البحر، دمي ماؤه المالح، صراعي مع القروش كان صراع حياة، أما العواصف فقد نُقشت وشماً على جلدي، إذا نادوا: يا بحر! أجبت أنا! البحر أنا، فيه وُلدت، وفيه أرغب أن أموت.. تعرفون معنى أن يكون المرء بحّاراً؟ إنه يتعمّد بماء اللجة لا بماء نهر الأردن، على طريقة يوحنا! أسألكم: أليس عجيباً، ونحن على شواطئ البحار، ألا نعرف البحر؟ ألا نكتب عنه؟ ألا نغامر والمغامرة احتجاج؟ أن يخلو أدبنا العربي، جديده والقديم، من صور هذا العالم الذي هو العالم، وما عداه، اليابسة، جزء منه؟!

البحّار لا يصطاد من المقلاة! وكذلك لا يقعي على الشاطئ، بانتظار سمكة السردين التافهة. إنه أكبر، أكبر بكثير، وأنا هنا أتحدث عن البحّار لا عن فتى الميناء! الأدباء العرب، أكثرهم لم يكتبوا عن البحر لأنهم خافوا معاينة الموت في جبهة الموج الصاخب. لا أدّعي الفروسية، المغامرة نعم! أجدادي بحّارة، هذه مهنتهم، الابن

يتعلم حرفة أهله، احترفت العمل في الميناء كحمّال، واحترفت البحر كبحّار على المراكب.

كان ذلك في الماضي الشقي والماجد من حياتي، بعد ذلك، وفي الحرب العالمية الثانية، توقف العمل في البحر، اشتغلت في مهن كثيرة، من أجير مصلّح دراجات، إلى مربّي أطفال في بيت سيد غني، كان يسومني العذاب مرّاً إذا بكى طفل، أو مرضت طفلة، إلى عامل في صيدلية، إلى حلاّق، إلى صحفي، إلى كاتب مسلسلات إذاعية باللغة العامية، إلى موظف في الحكومة، مع كل ما تقوم به الوظيفة من تدجين بطيء، إلى روائي، وهنا المحطة قبل الأخيرة، أي قبل غزل الظلمة في حضن الثرى.

هذه المسيرة الطويلة كانت مشياً، وبأقدام حافية، في حقول من مسامير، دمي سال في مواقع خطواتي: أنظر الآن إلى الماضي، نظرة تأمل حيادية، فأرتعش. كيف، كيف؟! أين، أين؟! هناك البحر وأنا على اليابسة؟! أمنيتي الدائمة أن تنتقل دمشق إلى البحر، أو ينتقل البحر إلى دمشق، أليس هذا حلماً جميلاً؟! السبب أنني مربوط بسلك خفي إلى الغوطة، ومشدود بقلادة ياسمين إلى ليالي الشام الصيفية الفاتنة، وحارس مؤتمن على جبل قاسيون، ومغرم متيّم ببردى، لذلك أحب فيروز والشاميات.

هذا كله جميل، لكنني غريب في غربته، قولة أبي حيان التوحيدي، غريب عن البحر: بيتي، حديقتي، ملعبي، فكيف تكون الهناءة والحبيب الأزرق بعيد؟ تعويضاً أسترجع الماضي، أكتبه، أعوّض بما هو كائن، عمّا كان، أهدم العالم وأعيد بناءه، أستحضر تجارب البحر، أشدّها هولاً، أكتب وأكتب: ثماني روايات عن البحر، ولم أزل في المقدمة من هذا السفر الذي سيكتبه الآتون بعدي من الأجيال الشابّة، إذا لم تكن قلوبهم من تراب!

أكره الطرق المعبّدة، دأبي اكتشاف المناطق المجهولة في أدبنا: البحر، الغابة، الجبل، الثلج، المعركة الحربية، البلدان البعيدة، النضال الوطني السري، الموت، الجنون، الشجاعة، البطولات الشعبية، الموروثات والمأثورات والصور الغريبة، أكره، أيضاً، نصفي العاقل، لماذا، نحن الأدباء العرب، في العقلاء جداً، ولماذا في القعدة؟ وأين الجنون والانتحار وعدم الانتماء؟ لا أحب الذين يستريحون على مؤخراتهم؟

في أعمالي الأدبية (٣٠ رواية حتى الآن) شخصيات كثيرة جداً: هناك عالم متكامل من مخلوقات متنوعة متباينة، على أرضية واقعية، تمتزج معها الرومانتيكية وتتبلور في تصرّفاتها والأقوال، (روائي واقعي رومانتيكي)، هذا هو عنوان دراسة الدكتورة نجاح العطار، التي نُشرت في (الطريق) و (المعرفة) ومجلات أدبية أخرى، ذلك أن الواقعية، كما ترى الناقدة الدكتورة العطار، تتسع وتستوعب، كل المدارس الأدبية.

أذكّر هنا بطرفتين: أولاهما أنني كلفت صديقاً بأن يجمع لي أسماء شخصيات رواياتي، قبل أن أبدأ كتابة رواية (النجوم تحاكم القمر)، فقام بالمهمة حتى عجز عنها. قال لي: (هناك أكثر من (٥٦٠) شخصية، في عشر روايات فقط، فكم يكون العدد في الروايات العشر الأخرى؟ إنني، وأنا أقرأ الرواية، تستهويني الأحداث، فأنسى إحصاء الشخصيات، ويكون علي أن أعود من جديد، وهذا مالا أستطيعه، يا للغرابة إن ضحكت طبعاً وقلت: (أنا تلميذ بالنسبة لأستاذي نجيب محفوظ، فكيف لو كلفك هو بما كلفتك أنا به؟).

الطرفة الأخرى أن أديباً من اللاذقية، هو الأستاذ سمير سكاف، قام بمحاولة من هذا النوع، دون تكليف طبعاً، وقد كتب إلي، بعد أن أعياه الجواب عن السؤال التالي: (من أي متحف بشري جئت بهذا

الحشد من المخلوقات، الذين لا يشبه أحدهم الآخر؟! إنني ألجأ إليك، وأنتظر الجواب!) ضحكت ولم أجب، أنا نفسي لا أعرف، وأحسب أن هذا السؤال من باب التعجيز، وأشهد أنني عاجز!

إذن، بمقياس كهذا، كيف أحصي الشخصيات الروائية التي تركت بصماتها في ذاكرتي؟ كيف أعد الشخصيات التي لم أكتبها بعد، والتي لاتزال حبيسة في طاسة رأسي، تدق على صدغيّ طالبة الخروج إلى النور؟ أحيلكم، في الجواب، إلى روايتي (النجوم تحاكم القمر)، و(القمر في المحاق)، ففيهما متحف مخلوقات أكبر بكثير من المتحف الذي سألني عنه الأديب سمير سكاف، عرفتم الآن، لماذا أنا معذّب، ولماذا أفكّر باعتزال الكتابة؟! إنها (ملهاة إنسانية) كاملة! وإنها لسخرية أن تحاكم الشخصيات الروائية مبدعها الروائي، بكل ما تعنيه المحاكمة، التي يتهم فيها المؤلف عناد الزكرتاوي بقتل ديمتريو، بطل (مأساة ديمتريو) ويُحكم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ، حتى يكمل كتابة ما تبقى من روايات وقصص! وهو، المؤلف، يصرخ ناشجاً: (نفّذوا! نفّذوا!) ذلك أننا، بعبارة واحدة، محكومون جميعاً بالإعدام مع وقف التنفيذ، حتى نواصل حياة الأديب العربي التي هي، مع التخفيف والرحمة، حياة تعاسة دراماتيكية بامتياز!

أحب أكثر شخصياتي. إنها منقوشة في الذاكرة. ليتها لم تكن كذلك، وليتني أصاب بفقدان الذاكرة حتى أنساها، مرة واحدة وإلى الأبد! تعرفون لماذا؟ لأن مصيرنا إلى الجلجلة، وعندئذ نصلب فنموت، ونُنزل صليبنا الذي نحمله منذ أمسكنا القلم! هذا ليس من التشاؤم، فالمعروف عني أنني بائع تفاؤل، إلا أن الكاتب، الذي يرى مالا يراه الآخرون، يعرف أن كل إنسان يحمل صليبه في هذه الحياة، مع الفارق في حجم الصليب وثقله، فالمليونير، وبالدولار كوحدة نقدية، يحمل صليب الشره للاستزادة من جمع المال، بينما نحن، الأدباء

الفقراء، وكذلك أبناء الشعب الذين مثلنا، نحمل صليب الركض وراء اللقمة!

الإنسان ابن تاريخه الاجتماعي، والتاريخ حقب ومراحل، ونحن الآن في مرحلة المجتمع الاستهلاكي، حيث النفعية عنوان كبير وبارز له، مع كل ما ينطوي تحتها من شرور وآثام، لكننا، في الوطن العربي مكتوب علينا أن نواصل الكفاح، في سبيل التحرير واسترداد الحقوق، وضد التطبيع الثقافي، وكل تطبيع، مع إسرائيل، التي تحتل أرضنا وتقتل وتشرّد إخوتنا في فلسطين، وهذا الكفاح مجيد، وسيكون مجيداً أكثر، ومجدياً أكثر في مناخ الحرية التي يريدون وأدها، كما في حادثة التفريق الجائرة والظالمة بين نصر حامد أبو زيد والسيدة زوجته. الإبداع رسالتنا إلى العالم، به وحده نُجابه التحديات الثقافية في الجوار وفي العالم، لكن الإبداع نبتة تحتاج إلى الشمس، وهذه اسمها الحرية الفكرية.

* العربي - العدد ٥٠٨ - مارس ٢٠٠١م.

مرفأ الذاكرة | د. سهيل إدريس

محاولة للانتصار على الهزيمة *

انبثق وعيي الثقافي مع وعيي القومي من مأساة ١٩٤٨ التي ظلت تطرح السؤال المعذب: كيف السبيل إلى التغلب على الهزيمة؟ ما عساه يكون دوري في أمة تطمح لأن تسترد مكانة كانت لها في الحضارة العالمية؟

من نشأة دينية دفعني إليها والدي وعملٍ صحفي دفعني إلى ممارسته وضع عائلي فقير، كنت مرصوداً لأكون «مثقفاً» ولكن لا النشأة الدينية القاصرة ولا العمل الصحفي المحكوم برغبة توفير بعض أسباب الرزق، كانا كافيين لتوفير الحد الأدنى من وسائل الثقافة، فكانت رحلة باريس التي استغرقت ثلاثة أعوام كافية لمنحى العزيمة على إصدار مجلة للمثقفين العرب وكتابة رواية أولى تصور مسيرة شاب شرقي نحو اكتساب ذخيرة تمكنه من أن يصبح «مثقفاً». وكان نجاح مجلة «الآداب» عام ١٩٥٣ وصدور رواية «الحي اللاتيني» في العام نفسه، يفتحان الأفق للاضطلاع بالدور المطموح إليه. وكانت افتتاحية العدد الأول من المجلة بعنوان: «رسالة



الآداب» تعبر عن هذا الوعي المبكر لدور يرسمه لنفسه «مثقف» يود، برغبة محمومة، أن يُسهم في محاولة الانتصار على هزيمة قوضت كل أمل في إنشاء حضارة عربية جديدة.

ولكن ما كان أثقله عبئاً هذا الذي حاول «المثقف» أن يحمله على عاتقه!

هل كان من السذاجة بحيث إنه لم يع قط العقبات والمثبطات التي كانت تنتصب في وجه مشروعه؟

بالرغم من تبني «الآداب» لثورة عبدالناصر فور قيامها وقد تزامنت مع صدورها فقد وجدت نفسها تواجه معظم الأنظمة العربية التي كانت تستمد سلطتها من علاقتها بالقوى الاستعمارية، وكان نموذج هذه الأنظمة حكم نوري السعيد في العراق وحكم كميل شمعون في لبنان. ولأن المجلة التزمت الفكر القومي، فقد تعرضت للقمع في العراق حيث كان لها حظوة كبيرة لدى الكتاب والقراء على حد سواء. أما في لبنان، فقد كان حكم شمعون أعجز من أن يقمع أصوات المثقفين الذين تجمعوا على صفحات الجرائد الوطنية، وكنت أحدهم لأن «الآداب» احتجبت طوال ثلاثة أشهر لوقوع مكتبها في منطقة المقاومة الشعبية. حتى قامت ثورة ١٤ تموز«يوليو» في العراق فكانت ضربة للحكم الشمعوني بالرغم من أنها بررت للقوات الأمريكية النزول على الأرض اللبنانية.

هكذا وجد «المثقف» نفسه في صميم المعركة القومية العربية، يخوضها بقلمه ومواقفه، ويزداد حدة في التزامه القومي، وينحاز إلى الفكر الناصري، ويسجل ذلك في قصص رافقت الأحداث وأدانت الانفصال في مجموعة «رحماك يا دمشق» التي منعت في سوريا، وتعاني مجلته ما تعاني من قمع ومنع. وقد وصف هذه المعاناة في روايته «أصابعنا التي تحترق» التي أراد بها أن يصور الهموم والمتاعب التي يواجهها المثقف العربي حين يحاول أن يحتفظ بنظافة قلمه ويده وموقفه.

وفي موازاة ذلك، كان لابد له من أن يخوض المعارك الأيديولوجية مع مذاهب قادمة كانت ذات نزعات شديدة التناقض بين أقصى اليسار كالشيوعية وأقصى اليمين كالسلفية، وقد هاجمت كلتاهما مجلة «الآداب» و «الحي اللاتيني». أما المجلة، فقد هاجمها الشيوعيون لأنها شاءت الإفادة من الفكر الوجودي، علماً بأن سبب التعاطف مع هذا الفكر كان منطلقاً من تأييده لنضال الشعوب في وجه الاستعمار، ومثاله نضال الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، وليس تبني الفكر الوجودي. أما «الحي اللاتيني» فقد هاجمها من أقصى اليسار رضوان الشهال وآخرون من الشيوعيين الشديدي التطرف، ومن أقصى اليمين عيسى الناعوري الشديد السلفية.

وخاضت «الآداب» في الوقت نفسه معركتها مع المجلات المشبوهة ذات التمويل المخابراتي، وعلى رأسها «حوار» التي توقفت عن الصدور بعد انفضاح أمرها.

وإذن، فقد كان مفروضاً على «المثقف» أن يقاتل على عدة جبهات في وقت واحد، وهو الأمر الذي يؤكد أن الالتزام الحقيقي يربط أوثق الربط بين النظرية والتطبيق وأن سلوك المثقف الواعي لدوره لا يحتمل التناقض بين القول والفعل.

على أن في رأس هموم المثقف منذ اضطلاعه بدوره، كان همّ الحرية، هذه الحرية التي كانت الأمة العربية محرومة منها بسبب الأنظمة القمعية والأصوليات الخانقة، ولاسيما حرية التعبير. وأذكر هنا أني شخصياً تعرضت عام ١٩٥٨ لتهديد بالاغتيال على أيدي بعض المتعصبين الملتحين الذين قصدوني في المكتب ليستنكروا ما قلته في احتفال لحزب الكتائب بذكرى الاستقلال من أن لبنانياً مسيحياً يؤمن بالعروبة أقرب إلي من لبناني مسلم يكفر بالعروبة، فزعموا أن هذا يناقض الإسلام، وهددوني بهدر دمي، بالرغم من معرفتهم بأني كنت آنذاك رئيس جمعية متخرجي

المقاصد الإسلامية. وقد شكوت الأمر إلى الشرطة، فتم اعتقال بعضهم إلى ان فضلت التنازل عن شكواي. ولكن ما كان أسوأ من ذلك الحملة التي شنها علي في أحد المساجد مُفت سابق بعد صدور روايتي «الخندق الغميق» التي تحدثت فيها عن نشأتي الدينية، وأراد أن يثير ضدي جمهور المصلين الذين كان بينهم أخ لي نهض يذكر المفتي بأني كنت زميلاً له في الكلية الدينية وأني كنت أجلس إلى جانبه، على طاولة الدراسة نفسها، فسارع المفتي يصدر عفوه عني بقوله: «عفا الله عنه!».

هذا على الصعيد الشخصي. أما على صعيد «الآداب» فإن مفهوم الإبداع في تخطيطها، لا ينفصل عن الحرية والديمقراطية، كانت حرية الأديب والمثقف العربي همنا الرئيسي، نرفع رايتها ونتحدى من أجل تحقيقها والحفاظ عليها جميع سلطات القمع والإرهاب. وقد دفعت المجلة ثمن مواقفها هذه غالياً، حتى أن «مصادرة الآداب وإحراقها والتنكيل بها، أصبحت - على حد تعبير نزار قباني - تقليداً عربياً راسخاً». على أن معركتنا من أجل الحرية اتخذت ساحة أخرى غير «الآداب» هي ساحة المؤتمرات الأدبية التي شارك فيها مشاركة فعالة «اتحاد الكتاب اللبنانيين»، هذا الاتحاد الذي شكلته مع بضعة مثقفين لبنانيين عام ١٩٦٨ وكنت أميناً عاما له عشر سنوات حضرنا فيها خمسة مؤتمرات أدبية أقامها الاتحاد العام للأدباء العرب. وبفضل ما كان يتميز به هذا الاتحاد عن سائر الاتحادات الأدبية العربية من استقلال عن السلطة، تمكنا من حمل لواء الدفاع عن حرية الأديب العربي وشجب القمع الذي يتعرض له. وربما كان المؤتمر التاسع للأدباء العرب الذي عقد في تونس عام ١٩٧٣ أهم مناسبة أدبية خاض فيها أدباؤنا معركة حرية التعبير، وأصر الوفد اللبناني على إثارة موضوع اضطهاد نظام السادات لما لا يقل عن مائة أديب مصري فصلوا من أعمالهم التحريرية وأبعدوا عن ممارسة نشاطهم الأدبي. وقد كشف هذا المؤتمر ارتباط معظم اتحادات الأدباء

بالسلطة السياسية وتبعيتها لها وعجزها عن اتخاذ الموقف الذي كان يفرضه الدفاع عن الحرية والانتصار للمقموعين، بحيث اضطر الوفد اللبناني إلى الانسحاب من المؤتمر واضطر اتحاد الكتاب اللبنانيين إلى الاستقالة من الاتحاد العام للأدباء العرب، وقيادة معركة قاسية طوال أشهر كسب فيها اتحادنا تأييد الرأي العام الأدبي ومنعت فيها السلطة السياسية في عدة بلدان مجلة «الآداب» التي حملت إلى جانب الصحافة الوطنية في لبنان لواء الدفاع عن الحريات.

نجحت هزيمة ٦٧ في اشاعة إحباط في نفس «المثقف» قارب اليأس، فالتمس لإزالة هذا الاحباط عملاً يستغرقه وينسيه المأساة العربية الجديدة، فتحول إلى إعداد معجم فرنسي عربي كان ينوي المشاركة في تأليفه لحاجة طلابه الجامعيين وحاجة المترجمين. وقد غرق فعلاً في هذا المعجم الذي لقي نجاحاً، ولكنه صرفه عن التأليف القصصي والروائي وأغراه بالعمل المعجمي الذي أقبل عليه مع المرحوم صبحي الصالح. وحين زور ذلك المعجم أخذه الندم لقضاء أربع سنوات مرهقة أتى بعض القراصنة يسرقون جهدها بلا وازع من ضمير، حتى لتمنى لو لم يحظ ذلك المعجم بالنجاح!

على أن مهنة النشر، التي اضطر إلى ممارستها ليحمي حقوق التأليف التي تستحق له من مؤلفاته ومترجماته هي بالأصل مهنة عاقة، ونادرون هم الشرفاء الذين يتعاطونها. وإذا كانت بعض المكتبات تستغلها أبشع استغلال وتجني منها الأموال الطائلة المسروقة من جهد الناشرين، فإن هناك مؤلفين متعبين بل مزعجين، بما ينساقون إليه من شكوك يوجهونها ظلما وبهتاناً إلى ناشرين شرفاء صادقين في المعاملة. وقد عانى «المثقف» من بعض هؤلاء المؤلفين الذين هم في الغالب كتاب فاشلون لا يلقون حظوة لدى القراء فيمضغون خيبتهم تهماً وسوء ظن وافتراء.

على أن ما يُعزي «المثقف» الذي أصبح بالمصادفة والاتفاق ناشراً أنه

موضع ثقة وتقدير من عشرات الأدباء والشعراء والروائيين، والنقاد الذين يدينون بالفضل لدار الآداب التي احتلت المقام الأول في إصدار روائع الروايات والشعر والدراسة والتي تسهر على نشر أفضل نماذج النتاج الحديث، تأليفا وترجمة، ولو أن هذا السهر أوشك أن يجعل من «المثقف» الناشر ضحية «المثقفين» المؤلفين!

ولكن عنوان «المثقف» الأول وموضع اعتزازه، إنما هو هذه المجلة التي تبلغ الآن عامها السادس والأربعين، وستحتفل بعد أربعة أعوام، أي في عام ٢٠٠٢ بيوبيلها الذهبي، إن مد الله في العمر، والا فسيواصل سماح ادريس، مسيرتها الشاقة، بالرغم من أنه يعتبرها عبئاً ثقيلاً يدعي أنه يحرمه فرصة عمل يبتكره بنفسه ولا يكون إرثا يئول إليه حتى من أبيه. إنه طموح لا يسع الأب إلا أن يباركه، رغم إيمانه بأن الإرث هو من التراث مفهوماً وصلة لغوية، وأن متابعة هذا الإرث قدر تاريخي ليس من الممكن ولامن المرغوب فيه التخلي عنه، شرط أن يتم العمل على تجاوزه. ولولا إيمان الابن بأنه سيتجاوز الأب في العطاء لما ارتضى تسلم هذا الميراث من يد أب أدركته الشيخوخة.

هي ذي العناوين الكبرى لتجربة مثقف عربي حاول أن يعيش عصره ويكون شاهداً صادقاً عليه.

ولكن هذا المثقف، وقد استعرض تجربته، لن يكون صادقاً كل الصدق إذا لم يعترف بأنه آثر أحياناً ألا يقول الحقيقة، كل الحقيقة، بدافع من هوى يخون الموضوعية، أو خطأ كان يستطيع تجنبه.

أما نموذج الهوى الذي يخالف الموضوعية، فإن المثقف قد سبق له أن اعترف علناً في ندوة أدبية عقدت في المغرب أنه لم يرفع صوته للاحتجاج على اضطهاد تعرض له بعض الأدباء المصريين في عهد عبدالناصر، وعلى رأسهم محمود أمين العالم. إن الامتناع عن كشف الحقيقة، كل الحقيقة، خيانة للصدق الذي يدعيه المرء.

وأما الخطأ الذي كان «المثقف» يستطيع تجنبه فقد أوضحه في رواية «أصابعنا التي تحترق» بصدد حذف صفحات من ثلاثة أعداد من «الآداب» من النسخة المرسلة إلى العراق في عهد نوري السعيد، خوفاً من منع المجلة التي كانت تلقى في السوق العراقية أكبر الرواج.

وفي قول الحقيقة ينتصب ادوارد سعيد ضميراً للمثقف العربي الملتزم، ونموذجاً للكاتب المعارض، المقاتل الذي لا تخلف الهزائم والنكسات إحباطاً في نفسه ولا يأساً، بل تزيده اصراراً على الاستمرار في النضال والقتال والمقاومة.

على أن «قول الحقيقة» إنما ينفجر في أنصع صورة وأعظمها جرأة في آخر مقال قرأناه له في جريدة «الحياة» بتاريخ ١٩حزيران «يونيو» الماضي. فهذا المقال الذي كتبه بمناسبة انقضاء ثلاثين عاماً على هزيمة حزيران، مثال لروح الشمولية التي يتميز بها إدوارد سعيد في مواجهة الوقائع وتعرية الحقائق واستيعاب الوضع من جميع وجوهه في آن، من غير إهمال أي عنصر من عناصر القضية. وهو يجمع إلى هذا الوعي الكبير للحقائق حساً عميقاً بالديمقراطية والحرية، إلى جرأة بالغة لا يتحلى بها سواه من المفكرين المعاصرين في مواجهة الأنظمة، يتوج ذلك كله نزعة الاستقلال الكامل عن جميع هذه الأنظمة التي يحملها، من غير تفرقة ولا تمييز، مسئولية الهزائم التي تعانيها الأمة العربية منذ عقود طويلة.

«نحن محكومون بالمقاومة ومواصلة القتال».

ونحن بحاجة إلى دروس كثيرة نتعلمها من إدوارد سعيد.

---

* العربي – العدد ٤٧٨ – سبتمبر ١٩٩٨م.

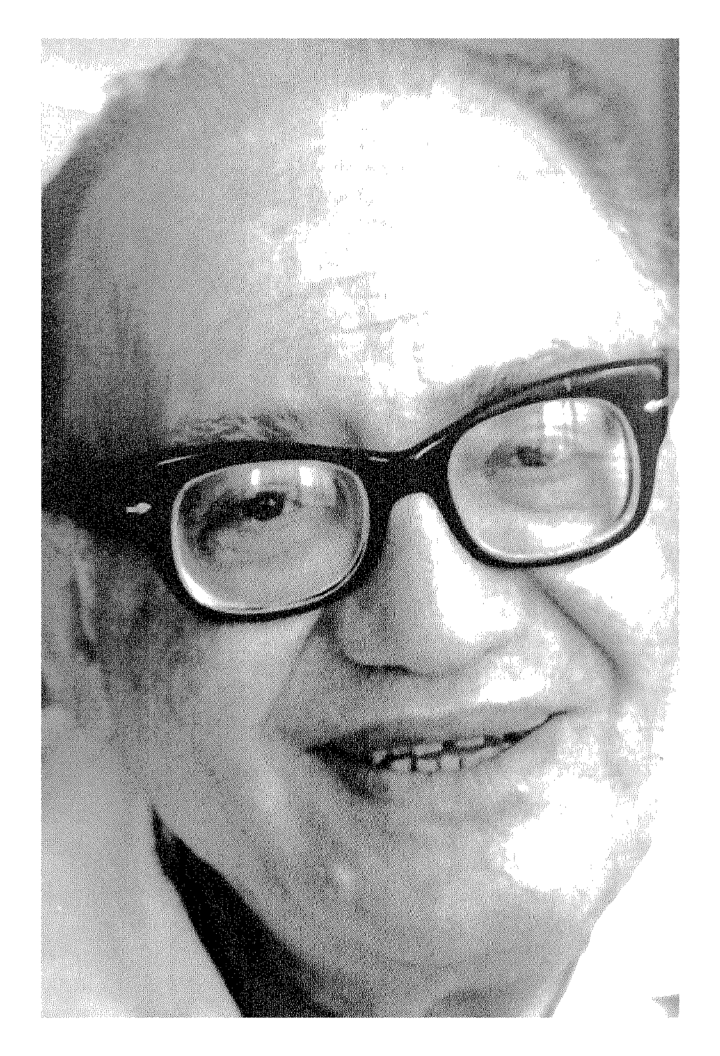
مرفأ الذاكرة | د.شكري محمد عياد

العاشق المصري *

قال رجل لامرأة: ما رأيت أعدل من فلان القاضي، قالت: نعم، لكنه يكره النساء، ويمكر بهن فما من مرة تقف أمامه امرأة إلا ويسألها عن عمرها أمام الناس!

أعترف أنني وقفت حائرا أمام هذا الموضوع مدة طويلة. وتذكرت حكاية قديمة، أن ملكا من الملوك أرسل إلى كبير مؤرخي عصره، طالبا منه أن يلخص له تاريخ الإنسانية في كتاب واحد، لأن هذا الملك كان رجلا رشيدا، وكان يريد أن يستهدي بحكمة الدهور فيما يعالج من أمور الملك. بعد أن غاب المؤرخ الحكيم عشرين سنة، قدم إلى القصر ووراءه جمل محمل بعشرين مجلدا ضخما، ما إن رآها الملك حتى عرته الدهشة، وكان قد نسي ما رغب فيه يوما من الاطلاع على سير الملوك السابقين، وأخبار الدهور السالفة، فلما ذكره المؤرخ الذي أنفق أخصب سني عمره فيما كلف به من عمل، قال له الملك: ها أنت ترى ما أنا غارق فيه من شئون الحكم، ألا يمكنك أن تختصر لي هذه المجلدات كلها في مجلد واحد أو مجلدين؟ وليتك تعمل، فإن الوقت يمضي سريعا.

عكف المؤرخ على النظر والتحرير خمس سنوات أخرى وهو يشعر



كلما حذف جزءا من مؤلفه الضخم أنه يقطع رقعة من جلده، ورجع متأبطا مجلدين كبيرين، فنظر إليه الملك بشيء من الأسف، وقليل من الخجل، فقد كان المجلدان أضخم مما تصوره، وفهم المؤرخ الإشارة فانصرف بمجلديه، وعاد بعد عامين وفي يده مجلد واحد لطيف الحجم. ولكنه وجد جلبة في القصر، وأخبروه أن الملك مريض جدا، والأطباء داخلون خارجون عليه، فهم بالانصراف، وإذا بكبار رجال الخاصة يترقبون حضوره، فربما كان لقاؤه هو آخر رغبة لمليكهم المشغوف بالحكمة.

قدم المؤرخ العظيم مجلده الصغير بيد أرعشها كبر السن، فوضعه الملك بجانب فراشه وتمتم: لا أظنني أعيش حتى أقرأه. ألا تستطيع أن تخبرني بمجمله؟ اقترب حتى أسمعك.

قال الحكيم: نعم يا مولاي. إنها كلمات ثلاث: ولدوا. تعذبوا. ماتوا.

***

أنتم المؤرخون يا سادتي وأنتم الملوك. ولست إلا إنسانا يعيد بغبائه تاريخ البشرية. وهأنذا أدلف نحو الثمانين ويعذبني السعي لإصدار مجلة مستقلة، وأغلب الظن أني سأموت قبل أن يسمح أولو الأمر بإصدار هذه المجلة. ولكنكم لم تطلبوا مني أن اكتب هذا المقال لأتحدث عن عذابي أو عن غبائي، بل لأنكم تحسبون أني أنجزت شيئا في حياتي الطويلة هذه، وأني لو تمهلت وترويت قليلا لوجدت شيئا له قيمة أحدثكم عنه. لقد غمرتموني بعطفكم، لا أنكر، ولكنني كلما دنوت من النهاية ملكتني العصبية، وتعلقت بأفكار تحتاج إلى عمر ثان لأحقق القليل منها. وبما أن العمر واحد، فلماذا لا أنفض هذه الأفكار بين أيديكم، فقد تجدون فيها شيئا يستحق أن يلتقط، وإذا لم تجدوا فيها شيئا فستأتي ريح ما وتذروها هنا وهناك، وإذا كان فيها

شيء يستحق أن يعيش من جديد فسوف يعيش في غيري. يا سادتي أنا لم أتغير عن ذلك الشاب ابن العشرين، الذي قال في نوبة من نوبات اليأس والكبرياء - اللذين ورثتهما عن جدي المتنبي:

يا ظالميّ إذا أودعتمو جسدي
سجن التراب ووارى أعظمي القبر
فلي على الدهر أفكار مخلدة
لا يزهق الفكر حتى يزهق الدهر
وما أبالي بأوراق مسودة
كتبت أو يزدهيني القول والشعر
ففكرة في سماء الروح عارية
تبقى ويمحو البلى ما خطه الحبر

غير أني لم أعد ذلك الصبي الساذج، فأين هي هذه الأفكار؟ ومخلدة أيضا؟ ياه! أنا طائر دائم الهجرة، وله قدرة على أن يتلون مثل الحرباء، فإذا رأيته في مكان لم تعرف أنه هو بعينه ذلك الذي رأيته في مكان آخر، وإن كان في قلبه وصميمه طائرا وحيدا وحزينا، لم يتغير قط، ولا يريد أن يسكن، ولكنه كلما حط في مكان نبا به المكان، وكلما انتقل من مكان إلى مكان نصل لونه أو انجرد ريشه وأصبح له لون آخر وريش آخر، وهو لا يزال بعيداً عن السكون الذي يبحث عنه بعد الأرض عن السماء.

***

يُعرفني المذيعون عادة بأني ناقد، وقد حاورتني تلميذة قديمة لي، هي اليوم شيخة: الناقد إذا نضج استقر على مذهب معين، ونحن لا نعرف لك مذهبا معينا في النقد. فما تفسيرك لذلك؟ وكان الجواب في ذهني حاضرا: أنت يا سيدتي صاحبة مذهب في النقد، أعلنته في أول بحث كتبته، ومازلت تتمسكين به، فهل تحسبين أنك بدأت

ناضجة حقا، أم أنه يكفي ليكون الناقد ناضجا أن يستقر على مذهب كما يستقر في بيت يسكنه، وهو ومقدرته: فقد يكون غرفة في بولاق، أو شقة فاخرة في الزمالك؟ ولكنني طويت المعنى في نفسي، كما أطوي أشياء كثيرة، وقلت لها كلاما آخر.

ومرة أخرى قال لي صحفي أديب: لقد حققت نصا قديما، ووضعت قصصا، ونظمت شعرا، وأنشأت دراسات، وكتبت نقدا، وترجمت كتبا. ألم يكن الأولى بك أن تقتصر على نوع واحد من هذه الأنواع، فتنال شهرة أكبر؟

وكان جوابي الذي لم أقله كالعادة: يا سيدي أنا لست بياعا. أنا أكتب ما أكتبه، وأصنع ما أصنعه، لأني أرى في وقته أنه يجب أن يكتب، ولو كان غيره رائجا في السوق.

ولم أكن قد كتبت روايتي الوحيدة «الطائر الفردوسي» وفيها يحدث البطل نفسه: «إنه العاشق المصري الذي يبحث عن توأمه، القوة الهائمة التي تبحث عن شكلها، إرادة الحياة التي تبحث عن روحها». نعم أنا ذلك الإنسان الواقف بين العدم والوجود، لأن زمني لم يقرر بعد هل أوجد أو لا أوجد. لذلك أضطرب وأتخبط، كالجنين في رحم أمه. من المبكر جدا أن يسأل أحد عن ملامحي أو صفاتي.

ربما أولد عندما أموت.

ولكن لماذا كان هذا العاشق، أو هذا الإنسان، مصريا بالذات؟

ليست المسألة تعصبا أو «شوفينية» كما يقال: ولكنها رؤية المصري، من أقدم العصور، للكون ولنفسه أيضا. رؤية تتلخص في كلمتين «البا» و«الكا». البا هي القوة المطلقة التي تملأ الوجود، ولكنها لاتتحقق إلا بقرينتها «الكا»: الصورة المتشخصة التي تتحمل الأوصاف والأبعاد، هذا الاتحاد بين المطلق والجزئي بين الشامل والمحدود، هو الذي سمح للمصريين القدماء أن يملأوا عالم الآلهة بما لا يحصى من

الكائنات، أو بالأحرى أن يروا في كل شيء صورة ما من صور ذلك الاتحاد. كل ما في الوجود مظهر أو ذرة أو قبس منه، تحقق كما سمحت له الظروف في شيء مادي، ومهما صغر أو حقر فهو يمثل الكون الكبير أو يرمز له. أحسب أن هذه هي الفكرة التي عبر عنها أرسطاليس بصورة مشوهة في قوله بالعلتين الأساسيتين من علله الأربع: الهيولي والصورة. وأحسبها الفكرة التي استوحاها لايبنتس وصاغها في اصطلاحه المشهور: «الموناد» أو الوحدة الروحية التي لا تقبل التجزئة وإن كثرت صفاتها ومظاهرها.

وأنا حين أشير إلى هذه الفلسفات، التي لا أحسن أيا منها، لا أبغي إلا أن أجد مبررا معقولا لقلقي الدائم، وبحثي المستمر عن شكل قديم أو جديد أدخل فيه. ولعله من باب التبرير أيضا، أو الزعم بأني لا آتي شيئا منكرا، قولي بأن هذه هي حالة زمني، ليست حالتي أنا وحدي، فالعالم يتغير كل يوم تقريبا، وإذا اقتصرنا على التغيرات الأساسية أو البارزة، قلنا إنه يتغير كل عشر سنين، أو على الأكثر كل عشرين سنة، ومعنى ذلك أنني عشت في ثلاثة عوالم مختلفة، فأين أضع نفسي بينها؟ وربما كان الناس الذين يقومون بهذا التغيير منهمكين فيه إلى الدرجة التي تجعلهم غير واعين، ولكنني أنا المصري، أو أنا العربي «لا فرق» أجدني في موقف المتفرج، أو من يجري في ذيل الركب، فإذا تأملت ما يجري من حولي، ونظرت إلى حالي، تناوشتني الشكوك، وأصبح همي همين: أن أجري حتى لا يفوتني الركب، وأن أعرف ما أنا، وأين أنا من هذه القدرة التي عمت الكون كله. اعترف أني شخصيا مشغول بالهم الثاني أكثر من الأول، وأقول لنفسي، وأنا مستمر في الجري، ربما كان الأحجى أن أترك القوم في سعيهم، أو عدوهم، وأقرر، بعد أن ألتقط أنفاسي، أن أسير في اتجاه آخر.

***

هذه الرغبة الخفية في الانفصال، والشك في جدوى ما يجري في العالم الآن، هي التي تحكمني.

أقول لنفسي: لماذا أجدني دائما مضطرا!

وأقول لنفسي: أن يكون الركب دليلي، هذا هو الضلال بعينه.

وأقول لنفسي: استمع إلى الهاجس في داخلك، حاول أن تميز نبرة الصدق من نبرة الكذب في ذلك الهاجس، ثم حاول أن تجعله كلاما، وأن تسمعه للحائرين أمثالك، ربما، ربما كان هو ما يريده الروح الأسمى لك ولبني جلدتك. أستعيذ بالله من الكبر والغرور، ولكن المرء يجب أن يكون على شيء من الحماقة حتى يلقي بنفسه في المهالك.

وأسأل نفسي: لماذا أكون أنا أحمق القبيلة؟ لماذا لم أستمع يوما إلى قول ناصح؟ لماذا ـ وقد اخترت أن أكون كاتبا ـ لم ألزم طريقا واحدا في الكتابة، على الأقل حتى لا يتهمني من ينكرون عزوفي عن طريقهم بأني كاتب بلا شخصية، أو بلا «موقف»؟

ولكن ما حيلتي إن كنت كذلك؟

أنا أول من يدهش لما أصابني من تكريم لم أكن انتظره، ولم أسع إليه.

وأنا اليوم شيخ، ولم يبق حيا من لداتي إلا القليلون، ولكنني لا اختلف كثيرا عن صبي صغير.

بل إنني لأتصور أن الذي صنع شخصيتي، إن كانت لي شخصية، هو شعور صبي صغير بين أناس أكبر منه وأقوى منه.

فقد نشأت في بيت ليس فيه أطفال. ودفع بي إلى المدرسة قبل سن المدرسة، فكان من حولي دائما أكبر مني سنا.

كنت، ولا أزال، أشعر كلما تصديت لعمل أنه فوق قدرتي، وكان الإقدام عليه يتطلب مني مزيجا من الشجاعة والتسليم بأنه لابد مما

ليس منه بد. ولذلك كان أي نجاح أحصل عليه مفاجأة لي، قبل أن يكون مفاجأة لأي إنسان آخر.

أول نجاح أحرزته وفوجئت به كان عندما وقف أستاذ الجغرافيا فصل ٢/٢ بمدرسة المساعي المشكورة الثانوية بشبين الكوم، ليعلن نتيجة امتحان ما، فقال: أعلى درجة حصل عليها أصغر تلميذ.

وعندما بدأت أكتب رسالة الماجستير، لم أكن أصدق أني سأحصل على الماجستير. وكانت دهشتي عظيمة لما أعاد إلي أستاذي أمين الخولي القسم الأول مبديا رضاه.

يظنني الناس متواضعا لأنني لا أستصغر عملا أقدم عليه، ولا أستعظم شيئا أنجزه، ولست متواضعا في الحقيقة، فقد تعودت أن أتطلع إلى ما أظن - في بادئ الرأي - أنه يفوق قدرتي، وأن استعذب العذاب في سبيل إنجازه.

ولست أرى في ألفاظ الأضداد أصدق من هذه المادة «عذب» يراد بها العذاب مرة والعذوبة مرة أخرى، ولا في أشعار العرب أصدق من هذا البيت:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها

تنال إلا على جسر من التعب

وإذا كان العذاب هو خلاصة حياة الإنسان بين الميلاد والموت، كما قال ذلك المؤرخ الحكيم، فإنه عذاب عذب إذا اختار الإنسان أن يمضي حياته سعيا إلى شكل يرتضيه للقوة التي تمور في داخله، مثل بحر بلا شطآن، ولكنه عذاب صرف إذا أسلم هذه القوة للضياع أو للاستعباد.

---

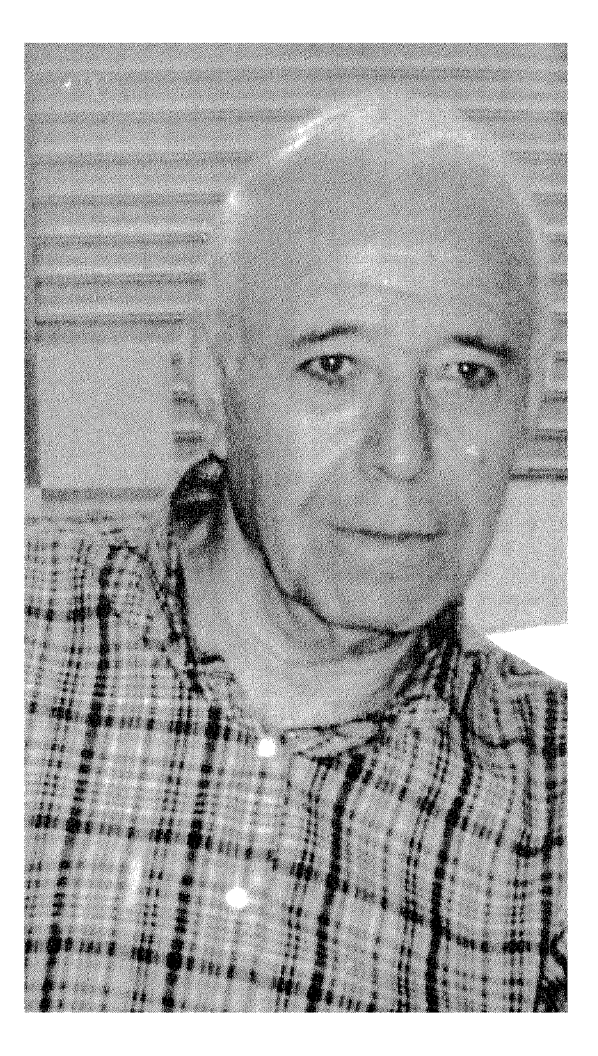
* العربي - العدد ٤٩١ - أكتوبر ١٩٩٩م.

 | د. طيب تيزيني

وهج الطفولة.. والجدلية المفتوحة *

لعل الذكرى الأولى من طفولتي الباكرة، تتمثل في حدث مؤلم ألم بي. فقد كان من العادة أن تخزن العائلة مئونتها السنوية من عصير الحصرم، بعد غسله وغليه ممزوجاً بكمية كافية من الملح، وصبه بعد ذلك في طبق نحاسي كبير يبرد فيه تهيئة لتعبئته في قنان أو علب مناسبة. ومن طرفي، كنت ذات يوم من أيام ذلك العمل المنزلي- وربما كان عمري آنئذ بحدود الخامسة- ألعب لعبة «الغميضة» وحيداً في ساحة منزلنا العربي، مستمتعاً بقدرتي على الخطو الحذر الوئيد والمفعم بألوان ساذجة زاهية من التخيل. وإذا كنت أتذكر بمرارة شيئاً مما حدث بعد لحظات من الخطو المذكور، فهو انزلاقي السريع باتجاه الطبق النحاسي والغوص فيه لهنيهات، أحسست بعدها أن يداً انتشلتني منه، لتضعني تحت مضخة المياه القريبة، حيث راح الماء يتدفق على جسمي الصغير.

كانت تلك اليد، يد أخي الثاني ضمن ترتيب إخوتي من أمي. ذلك



لأن الوالد كان قد تزوج خالتي، أولاً، ثم تزوج أمي بعد وفاة الخالة عن طفلين (فتاة وصبي). وقد انطلق بي أخي هذا، بإشارة من أمي وبعد اضطراب قصير حدث في العائلة إلى «أم مكاوي» المرأة العريقة المجربة والتي غالباً ما كانت تزورنا لتقدم مساعدة جادة في شئون المنزل. وأظن أنها قدمت من الخدمة العلاجية ما سكن من آلامي، وأسهم في شفائي.

كان علي بعد ذلك الحدث أن أحذر ما أواجهه وألمسه وأفكر فيه، إن «الغميضة» أيقظت في طفولتي الوجه المقابل لها، وهو «الفتيحة»، ومع استمرار ذكرى الحدث إياه، استمرت عملية تقوم على «التحذير» و «الهجاء»: التحذير من مسببه (إغماض العينين والسير في طريق مجهولة)، والهجاء لكل انزلاق عن هذه القاعدة الذهبية، وسوف تتبلور عملية التحذير والهجاء هذه، حيث يلح عليها الأبوان (والوسط القريب)، محاولين أن يعمماها على كل المستويات الحياتية لطفل آخذ في النماء الجسمي والعاطفي والعقلي. والحق، كان الوالد أكثر حزماً من الوالدة في المطالبة بالتعميم المذكور. وهذا أمر لعله يدخل في طبائع الأمور ضمن مجتمع ذكوري، فالوالد كان واحداً من مثقفي مرحلته، يقرأ ويحاور، أحياناً بشيء من القسوة، نظراً لاقتناعه بموقفه، الذي يراه صحيحاً، والذي يسعى إلى إقناع ذويه وأصدقائه ومعارفه به.

كان ذلك يتم في لقاءات دورية وغير دورية، تنعقد في «المنزول» أو «المضافة» الكائنة في منزلنا، مع الإشارة إلى أن هذه الأخيرة كان يطلق عليها تعبير آخر ينحدر من التركية، وهو «قناق»، وما هو جدير بالذكر أن ذلك جميعاً كان يتصل بمرحلة دقيقة من تطور العالم، ومن ضمنه سوريا، تلك كانت أواخر الحرب العالمية الثانية باتجاه النصف الأول من هذا القرن، فهي مرحلة أتت نهاية وبداية، نهاية الاحتلال الاستعماري الفرنسي لسوريا، وبداية الاستقلال الوطني والبناء الداخلي، الذي سيخترق من موقع عدد من الانقلابات العسكرية، ويتواكب معها، في

هذا وذاك وذلك، كان «المنزول» الإطار الجغرافي والاجتماعي المناسب. وإذا كانت تلك المرحلة قد جسدت الإرهاصات الأولى من ذاكرتي الثقافية والاجتماعية والسياسية، إلا أن أصداء كثيرة متلاحقة ومتشابكة من سنوات قليلة سابقة كانت تختلط مع هذه الإرهاصات وتتواشج، لتكون معها حالة ذهنية وعاطفية نفسية مفتوحة ومتحفزة.

كانت تلك الأصداء تدور حول آراء ومواقف رواد المنزول، وحول ذكرياتهم القريبة، التي اتصلت ب «الخلافة العثمانية»، وبمصائرها التاريخية المأساوية. كان ذلك يطرح على خلفية دينية إسلامية، غالباً، وعروبية، أحياناً، أما السلطان عبدالحميد والملك فيصل، فكانا من الأسماء، التي جرى تداولها بكثافة، بحيث كان ذلك بمنزلة توضع أولي لبعض المفاهيم والمشكلات السياسية والدينية في ضمير الطفل المتنامي. وقد زاد الموقف الحواري غنى وتعددية أن كان رواد المنزول منحدرين من مرجعيات دينية واجتماعية (وربما كذلك سياسية) متعددة، فعلى الصعيد الديني، كان هنالك مشايخ مسلمون بتعددية مذهبية مفتوحة ورجال دين مسيحيون، أما أولئك فكانوا كثراً، وربما مثلوا - في حينه - طرفاً من أعيان الوسط الديني ونخبته، في مدينتي حمص وحماة. وكان منهم من كنت أراه دورياً في المنزول، ومن لم يكن يأتي إلا في حالات خاصة، وأذكر من أسمائهم مفتي مدينة حمص الشيخ طيب الأتاسي، والشيخ محمد ياسين، والشيخ طاهر الرئيس، والشيخ الكيلاني، وهاشم بك الأتاسي الذي تسلم منصب رئيس الجمهورية السورية، أما من الرواد المسيحيين، فأذكر الخوري عيسى الأسعد، وكان هذا رجلاً ضليعاً باللاهوت المسيحي وبكثير من قضايا الفقه والكلام الإسلاميين، إضافة إلى ممارسة دءوب للتأريخ خصوصاً لمدينة حمص، هذا مع الإشارة إلى أنه كان ذا شخصية دمثة ودود ومرنة متسامحة إلى حدود لافتة. ولعلي أذكر أصداء مناقشة بينه وبين الشيخ راغب الجمالي، تركت في نفسي

أثراً حياً ونموذجاً طريفاً لما ينبغي أن يكون الحوار عليه.

لم يكن دوري في المنزول، في بداءة الأمر، أكثر من منصت خجول لما يدور فيه من حوارات وسجالات، ومن مساعد في تقديم القهوة المرة أحياناً، وحين كان هذا الأمر الأخير يحدث، فإنه كان يظهر بوصفه «تعدياً» على «أبوعبود»، الذي نيطت به هذه المهمة، أساساً، ويثير انتباهي أن ذكرياتي عن هذا الرجل لا تخرج عن أمرين اثنين، أولهما يتمثل في دوره المذكور، أي دور «القهواتي»، في حين يفصح الأمر الثاني عن نفسه من خلال ما غدا وشماً لاحق أبا عبود حتى وفاته، وهو أنه كان مصاباً بالنوم في صحوه ورقاده، كليهما، ومن طريف ما فعله مرة، كما تناهى إلي، أنه شوهد (والبعض قال: ضبط) نائماً واقفاً أمام منزله، حيث كان يهم في دخوله. ومن طرف آخر وعلى نحو متمم، كان هنالك «منتدى» في منزل الفتى، يقارب المنزول، ويختلف عنه، يقاربه باتجاه تماثله في حيويته الثقافية المتدفقة، وفي مثابرته على طرح أسئلة كانت قد بدت – في حينه– وكأنها تحرث في البحر، ويختلف عنه في رواده من الشباب المفعمين بمطالب التغيير في العادات والتقاليد، كما في الحياة السياسية، إضافة إلى التوجه صوب ثقافة عصرية مرنة ومفتوحة، أما صلة الوصل بيني وبين هؤلاء فقد جسدها، بحميمية أخي الذي انتشلني من خنق محقق في عصير الحصرم الغالي، على نحو ما أوردته سابقاً. كان أخي هذا، وهو عبدالودود الذي خلف موته جرحاً سأحمله إلى قبري، شاباً بل فتى متألقاً في عقله وهيئته، اجتمع حوله عقد من الفتيان المتألقين المحبين بعضهم بعضا، فلقد جمعت بينهم حياة الفتوة والشباب المترعة بالمغامرة والأحلام والدعابة والبحث عن مكان يحقق لهم الكسب والمتعة اللطيفة، وربما كذلك بعض التألق الاجتماعي.

كان أولئك يجتمعون في منزلنا على نحو غير دوري، ومفاجئ أحياناً، فيجلسون ويهذرون وينشدون ما طاب لهم وقد ازدادت لقاءاتهم طيباً

وعذوبة، بعد أن كسبوا لصفهم واحداً من كبار المطربين الحمصيين، وهو ممدوح الشلبي. في إطار ذلك كله، كانت مناقشات مثيرة تنشأ بينهم حول الفن (الغنائي) والأدب والشعر، وحول مشكلات اجتماعية ودينية، بألفة وروح تلقائية مرنة، ومفتقدة، إلا أحياناً، العمق، كما قد يبدو الأمر لي الآن، وحدث أني تعرفت إلى شاب جديد من رواد المنتدى ما كنت قد رأيته من قبل، فأحسست أني منشد إليه، حالما راح، بحماسة ورفق، يتحدث عن الحرية والمساواة بين الرجال والنساء، مهاجماً ما اعتبره مؤسسات إقطاعية وبورجوازية لها الحضور الأقوى في البلد، وكان، بين الحين والآخر، يأتي على ذكر كتاب وبعض عناوين كتبهم، ومن بين هؤلاء، كان يشير إلى عبدالحميد الزهراوي وسلامة موسى وطه حسين وجورج حنا، في حين كان قد وقر في ذهني، قبل حين، ذكر أسماء أخرى من الكتاب من أمثال مصطفى لطفي المنفلوطي ومحمد عبدالحليم عبدالله وساطع الحصري وعباس محمود العقاد وغائب طعمة.

وراح الصبي المتصاعد فتوة يعيش هذه التجربة، الأخرى، معملاً عقله باتجاه المقارنة بينها وبين تجربته الباكرة في «المنزول» وحوله، وهو في هذا وذاك، يحاول طرح أسئلة صغيرة، ولكن جديدة، على نفسه، تتصل بمسائل بدت- في حينه- غير مألوفة ومعقدة، وغير مرغوب فيها أحياناً.

وقد لاحظ الفتى ذلك، خصوصاً بعد أن قطع بعض السنين في المدرسة الابتدائية، فلا هذه المدرسة، ولا الكتاب من قبلها، كانا قادرين على الاستجابة لمطامحه الذهنية والإنسانية. فشيخ الكتاب، الذي انتمى إليه لحين، وهو الشيخ (ع. ب)، لم يكن - في سلوكه مع صغاره - ليخرج عن النمط التلقيني الإملائي والوعظي، ناهيك عن أن «المادة الدرسية» لم تكن لتتجاوز قراءة «أحزاب» و «آيات» من القرآن وضرورة اختزانها

في الذاكرة، دون إيضاح أو شرح، إلا فيما ندر. والطريف أن الشيخ المذكور- وكان فقيراً وذا أخلاقية عالية- كان يقوم بعمل آخر مزامن لتعليمنا، وهو الحياكة على «نول عربي- يدوي»، بهدف تغطية حاجاته المادية المتواضعة.

بيد أنني، فيما أذكر، لم أتمكن من «التخرج» من ذلك الكتاب على نحو ما فعله آخرون، مثل أختي سهام، فلقد تخرجت، بعد أن «ختمت المصحف»، أي حفظته عن ظهر قلب، مما جعلها تعيش احتفالا رمزيا طريفا في بيتنا، شارك فيه الشيخ، وانتهى بتقديم هدية طيبة له، وكان ذلك التخرج بمنزلة «إجازة» في إجادة القراءة والكتابة وفي حفظ القرآن ومعرفة أحكام الدين الأولية، أما المدرسة التي ارتدتها فكانت، هي كذلك، دون مستوى رغباتي الذهنية، وربما كذلك الجمالية، هذا بالرغم من أن من تعرفت إليهم من معلميها، كانوا لطفاء، بل إن مديرها كان ذا صوت جميل في إنشاد الأناشيد الوطنية. وأذكر أنه كان يحذر أحد «المجاهدين» ضد الاحتلال الفرنسي، وهو نظير النشيواتي. أما موضع حذره فقد تمثل في أن ابنًا لهذا المجاهد كان يثير بعض الشغب في صفه أثناء الدرس. لكن معلم الحصة، ومعه المدير، لم يكونا ليردعا هذا الابن احتراما لأبيه. وقد لفت نظري ذلك الموقف، حيث تساءلت فيما بيني وبين نفسي: أيصح هذا، حتى لو كان الأمر متصلا بمجاهد؟ ولعل ذلك قد أثار في ذهني ملاحظات وتساؤلات تتصل بما سأتعرف إليه لاحقا تحت حد «دولة القانون».

ولم تكن المدرسة هذه- وقد حملت اسم «الإرشاد» لتكتفي بذلك في علاقتها بالتلميذ الصبي، فلقد تركت في نفسه أثرا سيبقى مديدا، خصوصا في إطار تكوينه الفكري. فالطريق الذي يقود إليها من بيته كان «طريقا آخر» بالنسبة إليه، أو هكذا خيل إليه. ذلك أنه اكتشف في بعض منعرجاته منازل تقيم فيها عائلات تمارس طقوسها الدينية، على

نحو مخالف لما ألفه. وكان التلميذ- في هذا- يشعر بالفضول والدهشة، لكن دون أن يعتريه شعور ب «الحذر» و«التوجس»، وشيئا فشيئا «اكتشف» أن تلك العائلات تنتمي إلى «الشيعة»، وكان هذا بالنسبة إلى التلميذ بمنزلة «فكرة جديدة» يضع يده عليها، تلك هي أنه يوجد أكثر من فريق أو فئة في الدين الواحد، وأن الآراء مختلفة ومتعددة لا يمكن ضبطها تحت مظلة واحدة، سواء تعلق الأمر بالعقائد الدينية، أو بالآراء الأخرى التي يأخذ الناس بها، بوعي أو دون وعي.

ولقد عمقت ذلك الميل لدى التلميذ الصبي خطوة لاحقة تمثلت بانتسابه إلى «المدرسة الإنجيلية»- وكان ذلك واردا بالنسبة إلى فريق كبير من عائلات حمص نظرا لانتشار الوعي الوطني التنويري يدا بيد مع نهوض أولي على صعيد التجربة السياسية والثقافية الديمقراطية بعيد الاستقلال وحتى عام ١٩٥٨.

فهاهنا، سوف تتضح في ذهنه اللوحة الاعتقادية بعيدا عن اللون الواحد، بحيث إنه يصل شيئا فشيئا إلى ما سيقرأه لاحقا في «فصوص الحكم» لابن عربي، وفي غير قليل من شعر أبي العلاء، وفي «حي بن يقظان» لابن طفيل، وفي «ناتان الحكيم» للألماني «لسنج»: الحقيقة واحدة من حيث العموم، ومتعددة من حيث الخصوص، أي تعدد مع يقفون أمام المرآة (الحقيقة).

كانت المدرسة الإنجيلية، بمعلميها المتعددي الانتماءات الدينية والطائفية والثقافية والسياسية، حقلا خصبا مناسبا للتعرف إلى أصدقاء وزملاء جدد بأنماط متعددة من السلوك والتفكير والانتماءات، وفي سياق ذلك، كان إحساس عميق يتنامى في عقلي وعواطفي بأن احترام الناس، كائنا من كانوا في تعدديتهم، واجب منوط، بالحد الأدنى والأقصى، بكل إنسان، خصوصا إذا اقترن ذلك بالانتماء إلى وطن واحد، وعلى هذه الطريق، كانت فكرة «الإنسانية» توغل عمقا في حياتي، وفي ضوء

ذلك، كان أي استفزاز أو أي إساءة متعمدة لأقراني والآخرين من أديان وطوائف أخرى، بمنزلة إيذاء لعواطفي الوطنية (والقومية وقد وعيتها لاحقا) والإنسانية، وتحفز باتجاه مزيد من النشاط الثقافي التنويري في منزلي، كما في الحقل المدرسي والمجتمعي العام.

ويلاحظ التلميذ الفتي - وقد أخذ يتقدم باتجاه الشهادة الإعدادية، البروفيه، ثم الشهادة الثانوية، أن ذلك، إجمالا، أسهم في تسهيل عملية انتقاله إلى النشاط السياسي في أفقه «اليساري» وفي تجليه النظري والعملي العام، دون الانخراط في تنظيم سياسي إلا في مراحل لاحقة متأخرة ولفترة محددة. بيد أنه في لجة التغير، الذي كان يخترق شخصية الصبي التلميذ بكيفية سريعة متصاعدة، غالبا، كانت تواجهه «مواقف اختبار» من موقع الكبار من ذويه ومن غيرهم، ففي حمأة حماسته للكتب واقتنائها وقراءتها وتكوين مكتبة منزلية خاصة، كان أخوه الأول من أمه ينظر إليه نظرة ريبة وارتياب. فأخوه هذا، ويكبره بخمس وعشرين سنة ونيف، اتخذ في نموه الباكر طريق التصوف الزهدي العملي، ثم أتجه صوب الفقه، في صيغة متزمتة ذات طابع وعظي، وهجومي إذا اقتضى الأمر، وحدث يوما أن زار هذا الأخ، الدمث والطريف والطيب مع ذلك، أخاه التلميذ الفتي وما يختزنه من كتابات تنويرية نقدية (فلسفية وسوسيولوجية خصوصا) في غرفته، التي غدت «غرفته الخاصة» على سبيل التعود، وراح يحاوره ويسايره، مظهرا له الود والرغبة في الاطلاع الصادق على ما يقرأ.

لقد دلل الفتى على أنه يملك من القوة العضلية ما يكفيه للدفاع عن نفسه، مع العلم أن هذا المشهد كان فيه من الجد، بقدر ما انطوى على الدعابة، إنما «الدعابة» من نمط «جاد»، ولم يدر الفتى أن مثل هذا المشهد عاشته الإنسانية في تاريخها وتعيشه في راهنها، حين يتوقف البشر عن الحوار العقلاني الديموقراطي بوصفه حلا لمشكلاتهم الفكرية

والاعتقادية، وقد كان من نتائج تلك «المنازلة» أن أدرك الفتى أن هنالك حدودا عليه أن يلتزمها في أثناء الحوار مع أخيه، إلا إذا أراد أن يداعبه بصورة «مثيرة استفزازية» لطيفة تبقي على الود والمحبة. وسوف يكتشف الفتى- الشاب لاحقا- أن ذلك الخلاف بينه وبين أخيه هو- في صيغته المعممة- إحدى خصوصيات الفكر العربي الحديث والمعاصر، وقد راح الأمر يزداد وضوحا في ذهنه مع أحداث سياسية وتحولات فكرية في شخصيته. أما ذاك وهذا فقد تمثلا في حدثين اثنين كونا منعطفين مركزيين في حياته. الأول: منهما- وهو ذو طابع سياسي- فقد أفصح عن نفسه بصيغة المعركة السياسية، التي نشبت بين تجمع سياسي واسع في سوريا والحكم الذي قاده أديب الشيشكلي في طلائع النصف الثاني من هذا القرن العشرين. أما الحدث الثاني، فقد تجلى في محاولات الفتى اليافع الأولى على صعيد الكتابة الصحفية، مع الإشارة إلى أن رغبته في الكتابة كانت قد سبقت هذه المحاولات ببضع سنوات.

كان لمشاركة الفتى اليافع الصاعد في حركات طلابية متواضعة ضد النظام العسكري الدكتاتوري في مرحلة الشيشكلي، أثر سياسي وفكري وعاطفي أخلاقي في تبلور شخصيته. لقد تظاهر ضد هذا النظام، وتوارى عن الأنظار لأيام عدة، وعمل على تعزيز الحركة الطلابية الوطنية إلى أن سقط ذلك النظام. وكان هذا السقوط أمرا أذهله فرحا، بقدر ما عمق فكرة «التاريخية» التي بمقتضاها لا يستطيع الظلم والاضطهاد أن يستمرا، مهما طال أمرهما. وقد تمخضت عن هذا الحدث بعض النتائج الكتابية، كانت في مقدمتها محاولة كتابة رواية بعنوان «العجول السمينة» إشارة إلى «المترفين الظلمة» في مقابل «الفقراء التعسين»، وأظن أن الفتى كان قد وقر في ذهنه مالم ينسه فيما بعد، وهو الدلالة الفنية والاجتماعية التي استقاها من لوحة «الحطاب» للفنان الحمصي الراحل «صبحي شعيب».

كانت التجربة الجامعية ممتعة ومثمرة، حيث بدأ الطالب الفتي الجديد بتحقيق «مشروعه الفكري»، فانكب على أسماء جديدة من الكتاب، وكان في مقدمتهم شكسبير، حيث كان يظن أنه ربما تابع دراسته في حقل «الأدب الإنجليزي» جنبا إلى جنب مع «الفلسفة». وفي دمشق، تبدأ مرحلة جديدة على الصعيد السياسي، وكانت هذه قد أخذت تتبلور في تصاعد العمل الحزبي بأنساق متعددة، كان من عقابيله نوع من ازدهار الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية. لكن ذلك لن يطول كثيرا، حيث تبدأ مرحلة «الوحدة» بين مصر وسوريا، وكانت مرحلة بدأت بالترحيب الشعبي والحزبي معا، إلى أن ظهرت اتجاهات إلغاء الحياة الحزبية في سوريا، إضافة إلى إلغاء المنابر الثقافية المتعددة.

كان كثير من الناس قد أخذوا يعيشون حالة من خيبة الآمال، مع تعاظم الأجهزة الأمنية ونشاطها المقلق في أوساط من لم يرغب في التنازل عن نتائج التطور السياسي في سوريا منذ مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وكان الطالب يعيش هذه الوضعية بقلق على مصيره الجامعي، حيث بدأت حالة من الاضطراب بسبب انقسام الطلبة سياسيا، وعلى وضعه الاجتماعي المادي، حيث راحت مراكز وظيفية تشغر من العاملين فيها لصالح سياسة خاطئة تمثلت في جلب أعداد كبيرة من المواطنين المصريين للعمل في سوريا. وكان من نتائج ذلك، أنني فقدت إمكانية الحصول على عمل يساعد على اجتياز المرحلة الجامعية، ويذكر الطالب أن أحد الوزراء- وكان صديقا لأخ لي- أشار لي أنه لا يستطيع مساعدتي بتقديم مكان شاغر في وزارته لتعاظم أزمة العمل داخلا وخارجا.

ولم يطل قرار الطالب في ضرورة التفكير بحل آخر، يكون بمنزلة بديل عن «الجامعة السورية» خصوصا أن حالة من القمع أخذت تجتاح البلاد لتشمل حتى أولئك الذين قبلوا - في البداية- بكل مقتضيات

الوحدة. لقد برز «الحل» ممثلا – أولا- بالمغادرة إلى لبنان، ليفكر هناك فيما ينبغي أن يعمل وينجز الفتى الشاب هذه المهمة، حيث ينتقل إلى طرابلس في لبنان «فأخته تقيم هناك مع زوجها تاجر الأجواخ»، ليتجه بعد ذلك إلى لبنان المركز، إلى بيروت. وهنا تبدأ مرحلة صعبة وجادة، حيث يجد الطالب الشاب نفسه مضطرا للعمل كي يحقق أمرين اثنين، الأول منهما تمثل في تلبية حاجاته اليومية من مسكن وطعام ولباس، في حين ظل الأمر الثاني مضمرا في ضميره، وهو تجميع ما يكفي من المال في سبيل الخروج إلى أوربا، وكانت ألمانيا، وخصوصا الشطر الشرقي منها، تطرح نفسها كبلد جديد يعمل على تلقف الطلبة من أبناء «العالم الثالث»، مما جعل الشاب يركن إلى فكرة التوجه إلى هناك، خصوصا أنه كان يحلم في أن يقرأ هيجل وجوته وماركس ونيتشه في لغتهم الأم.

لقد تحقق الحلم! راح الشاب الطالب يلتهم هناك الأعمال الكلاسيكية التهاما، ويذكر أنه في الأسابيع الأولى من تعلم اللغة الألمانية، حاول مناقشة معلمته المثقفة، كما بدا له، في كتاب جوته «فاوست»، فدهشت هذه، رغم تعبير الشاب الغامض والركيك.

ها هنا، بدأت صولة كبرى في حياته، فلقد قسم وقته إلى مرحلتين، واحدة تضم ستة أيام هي من الاثنين إلى السبت، وأخرى تتلخص بيوم الأحد وحده. أما في المرحلة الأولى، فعمل دائم وصارم وشامل يتوقف في المرحلة الثانية (يوم الأحد)، حيث يخرج الشاب إلى المدينة يعب من مسراتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وكان ذلك سبيلا مفتوحا لنيل إجازة الماجستير بدرجات عليا ومتميزة على درجات أقرانه من الطلبة الألمان. ولم يكن ذلك قد ظهر على صعيد «الاختصاص- الفلسفة»، فحسب، بل انسحب كذلك على «اللغة الألمانية»، وقد كان هذا بمنزلة حافز كبير لمتابعة الشاب دراسته الفلسفية، خصوصا بعد أن «حرر» نفسه من اختصاص ظن أنه يمثل رغبته ومتعته، وهو «الطب البشري».

لقد دخل الشاب عالم الفلسفة الأوربية من أوسع الأبواب. ولكنه سيكتشف أنه قد أغرق في ذلك، والطريف أن هذا التنبيه أتى من قبل أحد الأساتذة الألمان، الذي سمع به كفيلسوف يؤرخ للفلسفة الألمانية والعربية كلتيهما.

هاهنا، وضعت يدي على مسألتين ما أزال أعيش هاجسهما. المسألة الأولى توجهي نحو دواسة التاريخ، في خصوصيته الفلسفية والسوسيولوجية. أما المسألة الأخرى فقد تمثلت في اكتشافي لـ «ابن خلدون وماركس» كحلقتين كبريين في تاريخ الفكر البشري، ينبغي القيام بعمل مفتوح لفض ما قدماه، ضمن خصوصية كل منهما التاريخية.

في هذا وذاك، راح الشاب الباحث يستعيد ابن خلدون، ومعه الفارابي وابن سينا والرازي الفيلسوف وابن رشد والمقريزي، موطنا العزم على إنجاز أمر «جديد»، ذلك هو اجتراح «مشروع جديد» للنظر في التاريخ والتراث العربيين، اللذين عوملا من معظم المستشرقين والباحثين العرب كما تعامل الخالة زوجة الأب أطفاله، ولعل ما قدمه هرمان لاي في «دراسته» قد تمثل في وهج لفح عقل الشاب باتجاه البحث في ذينك التاريخ والتراث، وكذلك في تقصي مصائرهما التاريخية في الفكر الأوربي الوسيط والحديث.

لقد خرجت من ذلك ب «زاد» وفير، ربما تمثل- خصوصا - في التدقيق في الغرب (ألمانيا وغيرها) بوصفه غربين أو أكثر، مما راح يحملني عبئا في البحث في الفكر الغربي، ولكن كذلك وبالدرجة الأولى في البحث في الفكر العربي تراثا وتاريخا وراهنا. وتتم العملية عبر إنجاز رسالتين أكاديميتين، واحدة تحمل لقب «دكتوراه في الفلسفة»، وأخرى تحمل لقب «أستاذية في العلوم الفلسفية». ولم يكن هذا، في ذاته، هو ما يعنيني، وإنما ما ينبغي أن أصوغ منه «البداية الجديدة»، بداية الإقلاع في «مشروع رؤية جديدة» للفكر العربي.

سيعود الشاب الأستاذ إلى الوطن مفعما بآمال التغيير والبحث والتدقيق على صعيده، وحيث تبدأ الرحلة الجديدة هاهنا، يكتشف الرجل ما كان يخمنه: وجود رجال في الجامعة السورية (وقد غدت جامعة دمشق) نذروا أنفسهم لمناهضة أي وافد جديد. وقد كان هذا الشاب الأستاذ أول العائدين في فترة ما بعد الستينيات. فكان المحرقة، وكان التصميم على متابعة العمل الفلسفي السوسيولوجي، إنما الآن عبر الإعلان عن عدم التراجع، حتى لو كان أحد الأساتذة وكان رئيس قسم الفلسفة والدراسات الاجتماعية قد كرس كل جهده لإثناء الرجل عن عزمه. وكان ذلك قد استوعب مرحلة زمنية استمرت سبع سنين، استطاع بعدها الشاب أن يعود إلى جامعته العتيدة أستاذا موفور الأحلام والآمال.

كان دخول الأستاذ إلى الجامعة حدثا حاسما في تبلور نشاطه الثقافي التنويري والعلمي الأكاديمي. وبقدر ما وجد معارضة ومقاومة من سابقيه في قسم الفلسفة والدراسات الاجتماعية، كان يتوغل في عقول الطلبة وعواطفهم، محاولا أن يقدم إليهم كل ما اختزنه من منظومات نظرية ومنهجية بكيفية جدلية مفتوحة. وقد عمق هذه العملية بما كان قد اكتسبه من تجربة في النشاط الفكري الصحفي مارسها في بعض الصحف والدوريات السورية أولا، ثم العربية ثانيا. وفي هذه الأثناء، عمل على ترجمة رسالته الأولى «دكتوراه في الفلسفة» تحت عنوان «مشروع رؤية جديدة للفكر العربي الوسيط- المرحلة الأولى» ١٩٧١، كي تتحول إلى أيدي الطلبة والناقدين والباحثين.

ولكنه بعد أن أصدرها بصيغة كتاب، راح يعيش هاجسا جديدا أخذ عليه عقله وعواطفه، وتمثل في التساؤل التالي: ألم يكن من الأهمية بمكان أن يكون قد بدأ نشاطه الفكري البحثي بعمل يؤسس له منهجيا، بحيث يأتي ذلك الكتاب في سياق آخر لاحق وفي ضوء العمل التأسيسي المنهجي هذا؟ وقد حفز ذلك على التفكير بتساؤل آخر يأخذ المسألة

ببعد تاريخي مفتوح باتجاه «الأصول».

وكان هذا بالصيغة التالية: هل من المصداقية المعرفية التاريخية أن يقبل البدء، بالتأريخ للتاريخ العربي، بما يسمى- على نحو الغموض والتشويش التاريخي المنهجي- «العصر الجاهلي».

كان هذا وذاك قد برزا في ذهن الأستاذ بوصفهما مسألتين لازمتي الحضور في أي جهد للتأريخ ل «الفكر العربي». وهذا ما كان، حين راح الأستاذ يعيد بناء الموقف التأريخي المنهجي للفكر المذكور باتجاهين اثنين، أولهما تركز في إنجاز مراجعة منهجية نقدية لما كتبه ولما كان في طور كتابته، في حين قام الثاني على البدء بأرشفة مادة البحث وفق تسلسلها التاريخي وفي سياقها التاريخي انطلاقا من العهود الأولى للأسطورة في الشرق «العربي القديم».

فعلى الصعيد الأول، كتبت الجزء الأول مما ضبطته تحت العنوان الجامع التالي. «مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بواكيره حتى المرحلة المعاصرة- في اثني عشر جزءا». قد حمل هذا الجزء الأول عنوان «من التراث إلى الثورة - حول نظرية منهجية في قضية التراث العربي». وكان ذلك عام ١٩٧٦، أي بعد مرور خمس سنوات ونيف على صدوره الكتاب الأول. وإذا كان لي أن أعود إلى هذا الجزء الجديد ضمن مستجدات العصر داخلا وخارجا، فلعلي أعيد النظر في الشطر الأول من العنوان، بحيث يكون: «من التراث إلى النهضة...». أما السبب في ذلك فهو، فيما أرى، بروز قضية النهوض العربي مجددا بعد أن كانت قضية الثورة هي المهيمنة. وبالطبع، فإن من شأن هذا أن يحدث تغييرا، بقدر أو بآخر، في بعض المشكلات، التي عالجتها في الجزء المعني.

أما على الصعيد الآخر، فقد أتى الجزء الثاني من «المشروع الجديد» بعنوان هو «الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى»، وكان ذلك عام

١٩٨٢ . وإذا كان الجزء الأول قد أثار اهتمام النقاد سلبا وإيجابا حيث اعتبر الكتاب الأكثر مبيعا في سنته، إلا أن الجزء الثاني لم يثر إلا اهتماما من نمط محدد، هو تسفيهه ورفض الإشكالية التي انطلق منها. ولعله من طريف الأمور ومأساويتها، في الآن ذاته، أن من كتب حول هذا الجزء الثاني لم ينطلق من الأطروحة أو الأطروحات المحددة في متنه، بقدر ما انطلق من إضمارات أيديولوجية مسبقة أفسدت فعل القراءة وفعل النقد، بحيث فوتت علي إمكان الإفادة منه، إلا سلبا.

وقد جاء الجزء الثالث ليعالج مرحلتين كبريين في التاريخ العربي الفكري والاعتقادي قبل الإسلام، وهما اليهودية الشرقية والمسيحية الباكرة، وذلك بمجلدين وتحت عنوان «من يهوه إلى الله». وكان ذلك عام ١٩٨٥.

وكان الأستاذ الجامعي، في هذا وذاك، يعمل باتجاهين آخرين، هما متابعة «مشروع الرؤية» كعمل ذي بعد بحثي استراتيجي، وإنتاج كتابات أخرى تعالج ما هو راهن في دائرة الفكر العربي. أما متابعة «المشروع» فقد تجسدت، حتى الآن، بصدور جزأين آخرين هما الرابع (وقد حمل عنوان: مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر نشأة وتأسيا)، عام ١٩٩٤، والخامس (وعنوانه: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة) عام ١٩٩٧، وقد واجه الأستاذ، عبر هذين العملين الأخيرين حالة نقدية إيجابية حفزته باتجاه استكمال «مشروعه»، وكان، في الثاني منهما، قد عمل على دراسة المتون والآليات التي أنتجت إمكانات استنباط «التعددية» في البنية النصية الدينية، وما اقتضته من قراءات كلها تمتلك شرعيتها النصية ومشروعيتها الاجتماعية التاريخية، دون أن تكون جميعها في الموقع الذي يتيح لها «مصداقية معرفية» تتماهى أو تتوالف مع تغيرات العصور والأحوال البشرية. وقد جاء ذلك، بعد أن اشتغل الأستاذ على «نشأة» النص الديني في طور تحوله من «نص تنزيل» إلى «نص تأويل».

لكن الاتجاه الآخر المتصل بمعالجة ما هو راهن في الفكر العربي، فقد خاض فيه الأستاذ معارك وسجالات وحوارات لاتزال أصداؤها تخترق أذنيه، على هذا الصعيد، وجد الأستاذ نفسه أمام ضرورة ضبط الراهن العربي فكريا، وقد انطلق، في هذا، من العام الذي عاد فيه من ألمانيا، وهو ١٩٦٨، حيث حضر لمادة عمل كان يشغله على صعيد المصائر التاريخية العربية، هذه المادة التي حملت عنوان كتاب «حول مشكلات الثورة والثقافة في العالم الثالث- الوطن العربي نموذجا»، وصدر عام ١٩٧٢. وتتالت كتاباته من هذا النسق متوازية ومتواشجة مع «مشروعه» الاستراتيجي، فأتى كتاب «في السجال الفكري الراهن- حول بعض قضايا التراث العربي منهجا وتطبيقا»، ليصدر معه وفي العام ذاته (١٩٨٩) كتابان آخران هما «على طريق الوضوح المنهجي- كتابات في الفلسفة والفكر العربي»، و «فصول في الفكر السياسي العربي». ولعل أهم كتابين سجاليين قدمهما الأستاذ ضمن الحراك الفكري العربي هما «من الاستشراق الغربي إلى الاستغراب المغربي- بحث في القراءة الجابرية للفكر العربي وفي آفاقها التاريخية» عام ١٩٩٦، و «الإسلام والعصر- تحديات وآفاق» عام ١٩٩٧ (وصدر كعمل مشترك بيني وبين الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي وبصيغة مناقشة ونقد قام بها كل واحد منا حيال النص الذي قدمه الآخر). أما في الكتاب الأول، فقد عمل الأستاذ الباحث على تفكيك الآليات المنهجية، التي قادت محمد عابد الجابري إلى ما وصل إليه من نتائج، ومن ثم على مناقشة هذه النتائج.

لكن وهج السجال، الذي عاشه الأستاذ عمقا وسطحا، سيفصح عن نفسه ببعد آخر هو البعد الديني الإسلامي، فلقد دخل في حوار اتخذ طابعا جماهيريا مع الدكتور البوطي، على أساس أن يقدم كلاهما نصا ينتقده الآخر. وكان هاجسه المعرفي والأيديولوجي، في ذلك، قد تركز

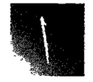
باتجاه الكشف عن «قراءة» عقلانية نقدية للنص الإسلامي الأول تسمح بالقول بإمكان الإقرار بمبدأ «التعددية» في الإسلام، مما يعمل على خلق حركة فكرية تنويرية في أوساط المؤمنين من شأنها الإسهام في اندماجهم ضمن مجتمع عربي يقوم على التعددية والمؤسسات المدنية والتسامح بين كل فرقائه. وقد كان الأستاذ الباحث قد شعر بالأسى وخيبة الأمل لدى تبينه أن الدكتور البوطي يصم مصطلح «القراءة العصرية» للنص الإسلامي بسمات تحيله إلى معجمية «الاتهام والشتائم»، ولدى قراءته ما يدعو إليه من ضرورة وجود «إمام أعظم» يلم شمل المؤمنين والبشر عامة، بدلا من البحث عن آليات سياسية وثقافية تسمح لغالبية الناس أن يسهموا في صوغ مصائرهم التاريخية.

وفي كلتا الحالتين، ظل الأستاذ الباحث في موقع من يحترم المخالفين في الرأي انطلاقا من أن الاختلاف الفكري المفتوح يمثل حالة فكرية ناضجة وراقية ينبغي السعي لتعميمها في وطن يراد له أن يستباح من الداخل والخارج.

* العربي - العدد ٥٠٠ - يوليو ٢٠٠٠م.

مرفأ الذاكرة | عبدالله بشارة

من زوايا.. التجارب *



اعتدت من صغري، على قراءة السير الذاتية للشخصيات العربية والإسلامية والعالمية، ووجدت فيها الكثير من الزاد الناتج من حقل التجارب الخصبة بما يتيح للقارئ الدخول في تحليلات لشخصية الموضوع والتعرف على الوسائل التي استخدمتها هذه الشخصية في التعامل مع الأحداث، بحلواتها ومراراتها، بإيجابياتها وسلبياتها، وقد قرأت في بداية حياتي «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، وعبقريات العقاد التي كتبها عن الخلفاء الراشدين وبصورة موجزة ومركزة، ونهج البلاغة الذي يلقي الضوء على شخصية الإمام علي بن أبي طالب. وعادة ما تقدم كتب السيرة صورة متكاملة عن الأحداث، التي حصلت لشخصية صاحب السيرة، ودورها في صناعة تلك الأحداث وأسلوب المواجهة فيها، ونتائجها على موضوع الكتاب، بما في ذلك لوحات تحليلية كثيرة عن شخصيات مشاركة تعاملت مع صاحب السيرة. ومع الأسف فإن كتاب السيرة الذاتية أو غير الذاتية فن بارز في الحياة الثقافية في حضارة الغرب، لم يأخذ حقه في ثقافة العرب، لأسباب كثيرة أهمها توفير المصادر، وغياب الحرية، والاستخفاف بالبحث والتنقيب. ولقد مرت علي في حياتي الدبلوماسية والعملية التي استمرت أربعين سنة،



شخصيات كثيرة ومختلفة ومن مشارب متباينة، وحضارات مختلفة، شاء حظي في الحياة أن ألتقي بها بحكم العمل، إما من ضمن وفود كويتية، أو بصفتي سفيرا للكويت في الأمم المتحدة، أو بعد ذلك أميناً عاماً لمجلس التعاون الخليجي من ١٩٨١ إلى ١٩٩٣.

وقد كنت أفكر في إعداد كتاب يتضمن تحليلاتي لتلك الشخصيات وإبراز بعض الجوانب التي تسهم في التعرف على طبيعتها وتصرفاتها لكنني حتى الآن، لم أسخر الوقت الكافي للقيام بهذا العمل الكبير.

عملت مع الشيخ صباح الأحمد الجابر، النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية في دولة الكويت، مديرا لمكتبه من عام ١٩٦٤ الى ١٩٧١، سمحت لي تلك الفترة بالاطلاع على طبيعة العمل السياسي العربي، ولأنني كنت لصيقاً للشيخ صباح الأحمد فقد حضرت الكثير من الاجتماعات الثنائية أو الجماعية التي كان يسهم فيها كرئيس للدبلوماسية الكويتية. وقد تابعت مراحل التطور في حياة الشيخ صباح الأحمد، شاهدت خطواته خلال عنفوان المد الناصري، ورغم مرور السنين، فلم تفارقه نزعة الإنصاف والرغبة في تأييد الحق والدفاع عنه، والنزوح نحو الموضوعية.

في أبريل ١٩٦٦، قام أمير دولة الكويت في ذلك الوقت الشيخ صباح السالم الصباح بزيارة رسمية إلى القاهرة بدعوة من الرئيس الراحل جمال عبدالناصر. وكنت ضمن وفد الكويت المسافر إلى القاهرة، وخلال تلك الزيارة توصل الجانبان الكويتي والمصري إلى قيام الكويت ببذل مساع حميدة مع المغفور له جلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز ملك المملكة العربية السعودية للتوصل إلى حل مقبول للحرب الأهلية في اليمن، التي اندلعت بعد قيام الثورة هناك، ودعم مصر للنظام الجديد، وتعاون المملكة مع الجانب الملكي الذي انتصر لنفسه ليقاوم الثوار الجدد.

وقد حضرت لقاءات عدة تمت بين الشيخ صباح والرئيس جمال عبدالناصر في القاهرة والإسكندرية، ولقاءات مع الملك فيصل في الرياض وجدة.كنت أراقب الرئيس المصري وهو يتحدث بنبرة فيها الكثير من الهموم والقلق، واستمع إلى الرئيس المرحوم أنور السادات الذي يشارك في الاجتماعات فأسمعه يتبرم ويهدد، أما عبدالحكيم عامر، فكان ظريفاً رقيقاً في مداخلاته.

وكان الانطباع الذي خرجت به من تلك الاجتماعات هو أن الرئيس يريد الخروج من اليمن إذا توافرت وصفة مريحة ومقبولة، لأنه كان يحمل هم اليمن على كتفيه ويتعامل مع مشكلته بواقعية واضحة.

كان الملك فيصل يحمل هيبة الملوك في حديثهم، وفي أسلوبهم في اختيارالمفردات، مدركاً أن التهاون يؤجج النار التي قد تمس تراب المملكة، وكان يعمل بفهم كامل للآليات التي تضبط العلاقات بين الدول، كان براجماتياً بصلابة، وواقعياً بإصرار، ومفاوضا بثقة.وقد انتهت مشكلة اليمن بعد كارثة ١٩٦٧، واختلطت المياه بعدها، وتركت الكارثة جروحاً غائرة في نفوس الجميع بمن فيهم خصوم الأمس، وقربت فيما بينهم بعد أن انحسر التوتر، وإن لم يختف الشك.

في العاشر من سبتمبر ١٩٧١ قدمت أوراق اعتمادي إلى السكرتير العام للأمم المتحدة يوثانت، مندوبا دائما لدولة الكويت في الأمم المتحدة.

جاء يوثانت إلى الأمانة العامة بعد مقتل سكرتيرها السابق همرشولد في حادثة تحطم طائرته في الكونجو عام ١٩٦١، وظل في منصبه في الدور الثامن والثلاثين في المبنى الزجاجي لمدة عشر سنوات وترك المنصب في عام ١٩٧٢.

لم يكن الحديث مع يوثانت سهلاً، فقد كان شاحباً ضعيفاً ومرهقاً، جاء من بورما، وهو معتنق الديانة البوذية، التي تسيدت طباعه، فقد

كان منضبطاً وممارساً جيداً لفن السيطرة على النفس، له غموض لا يخلو من الطيبة. وقد كنت أسأل نفسي عما إذا كان هذا الرجل النحيل الصادق والمستقيم يستطيع أن يواصل مسيرته في خضم التوتر الناتج عن الحرب الباردة. لم يعش يوثانت طويلاً حيث توفي بعد عامين بعد أن داهمه مرض السرطان.جلست في الأمم المتحدة عشر سنوات، رأيت فيها الكثير من الرجال البارزين، من قادة تاريخيين، ومن رؤساء جاءت بهم الصدف، ومن أشخاص مثيرين للجدل، ومن زعيمات حازمات.

وجالست الكثير من رؤساء الدورات للجمعية العامة للأمم المتحدة، بينهم القادر، وبينهم المتخلف، وبينهم المبتكر، ومعظمهم عاديون لا لون ولا طعم لهم. وعرفت السكرتير العام للأمم المتحدة الدكتور كورت فالدهايم، الذي تولى المنصب بعد يوثانت، ولكثرة الأحداث ولكثرة الناس الذين جالستهم، فسأختار ثلاثة أحداث كان لها أثر كبير على سلوكي، مروراً ببعض الشخصيات التي تركت بصمات على الشأن العالمي.

في أكتوبر ١٩٧١، انفجرت الحرب الهندية الباكستانية، بعد تطورات الأحداث في باكستان الغربية، وإلغاء فوز نجيب الرحمن بالانتخابات الفيدرالية المركزية، وتدخل الجيش الباكستاني في ما يسمى باكستان الشرقية، ويرد عليه الوزير الباكستاني، متهماً إياه بالتدخل في الشأن الداخلي وتجزئة الأراضي الباكستانية. وغير ذلك، ولم تتخذ الأمم المتحدة خطوة تنزع فتيل التوتر.

انعقد مجلس الأمن، في اجتماعات صاخبة ومتوترة، كان ممثل أمريكا عندئذ السفير جورج بوش الرئيس الأمريكي فيما بعد وممثل الاتحاد السوفييتي السفير جاكوب مايك، السفير المخضرم الذي عاصر الأمم المتحدة منذ حرب كوريا.

كانت موسكو حامية للهند سياسياً، وواشنطن مدافعاً عن باكستان، وبسبب هذا التمحور أصاب الشلل أعمال المجلس، بعد أن استعمل الاتحاد السوفييتي حق النقض لإسقاط مشروع قرار يدعو إلى وقف القتال وسحب القوات.كان ممثل باكستان ذو الفقار علي بوتو، وهو رجل خطيب وبليغ، لكن البلاغة لم تسعفه أمام حقائق الحياة المرة.

كان ممثل الطرف المظلوم، لكن الحق، وإن كان معه، لم ينجده من ضياع نصف باكستان، وبروز الدولة الجديدة «بنغلادش»، على يد القائدة «انديرا غاندي».

كنت ممثلاً جديداً لدولة الكويت، أتابع الأحداث في مجلس الأمن، ولم أكن أقاوم الألم لرؤية عملية تفكيك دولة بقوة السلاح من قبل دولة جارة أقوى وأكبر، تحت حماية القطب الثاني في الثنائية العالمية.ورأيت تفوق حق القوة على قوة الحق، ورأيت أيضاً قذارة السياسة، وتسيد المصالح.

وكأنني أتوقع شيئا ما قد يحدث للكويت التي كانت بلا غطاء أمني، سوى غطاء التآخي العربي القائم على مشاعر دون آليات رادعة.

في عام ١٩٧٣، عبر الجيش المصري خط بارليف، وابتدأت حرب أكتوبر، بشكل جماعي بما فيها سلاح النفط، وساد العالم، بسبب ذلك، اهتزاز عصبي حول ندرة الطاقة، الأمر الذي دعا الرئيس هواري بومدين إلى عقد دورة استثنائية للجمعية العامة لبحث النظام الاقتصادي العالمي الذي لا يتسم بالعدالة، وكذلك بحث دور الشركات الكبرى غير الوطنية في احتكار ثروات الدول النامية.

جاء الرئيس بومدين في بداية عام ١٩٧٤ على رأس فريق جزائري متكامل، يتضمن كفاءات سياسية واقتصادية بارزة، وبعد أن ألقى الرئيس بومدين خطابه الطويل، ابتدأت أعمال الدورة في جو فيه الكثير من التخوف والتوتر بين الشمال والجنوب.كان أبطال الجنوب

الهند، باكستان، وإيران، والجزائر، بالإضافة إلى فنزويلا ودول النفط، وأبطال الشمال يترأسهم الدكتور كيسنجر.

وإذا كانت ولادة بنغلادش قد فتحت عيني على واقع القوة ومنطقها وحقوقها، فإن الدورة الاقتصادية الاستثنائية فتحت عيني على حقوق التفوق التكنولوجي والعلمي والبحثي، وأهم من ذلك على قوة الندرة.

تتميز الكويت، من بين الدول النامية بأنها تملك «قوة الندرة» التي تعني ملكيتها لسلعة استراتيجية يحتاج إليها كل العالم، ويملكها قلة منه، الأمر الذي أعطى هذه الدول قوة اقتصادية وسياسية تفوق حجمها وامكاناتها.

ولأن الكويت صاحبة قوة الندرة فكان لابد من مشاركتها في الاجتماعات المصغرة لصياغة نظام اقتصادي عالمي، سواء في مبنى الأمم المتحدة أو خارجه في منتجعات بعيدة عن الأضواء في أماكن خارج مدينة نيويورك.

ولم تنجح المساعي في تلك السنة ١٩٧٤، لأن الطرفين وقعا تحت تأثير نفوذ المتسلطين، فقد كانت قوى معتدلة في الشمال «النرويج، السويد، إيطاليا، إسبانيا» وقوى أخرى متصلبة «كيسنجر في واشنطن وبريطانيا»، وقوى معقولة في الجنوب وقوى أخرى وجدت فرصتها في الخلخلة التي أصابت الاقتصاد العالمي لتكافح من أجل الحصول على امتيازات أكبر «مثل الهند وباكستان وإيران»، بينما آثرت قوى الاعتدال الابتعاد عن الصدام.

انتهت تلك الدورة الاستثنائية التي فجرها هواري بومدين رجل الجد الذي لا يعرف الهزار، رجل الصرامة والمواجهة.

وبالمناسبة فقد تولى رئاسة تلك الدورة وزير خارجية الجزائر عبدالعزيز بوتفليقة «الرئيس الحالي للجزائر».

وقد كان رئيساً ثورياً لا يعبأ باللوائح الداخلية، ولا يهتم بالضوابط،

ويسير وفق قناعاته، وهو الذي رتب حضور عرفات للجمعية العامة، وجمد مشاركة جنوب إفريقيا العنصرية.

وضعت نصب عيني الحصول على عضوية الكويت في مجلس الأمن، ودولة الكويت على لائحة آسيا التي لها مقعدان، تتناوب عليهما ست وأربعون دولة، ولهذا فكان علينا الانتظار حتى تأتي المناسبة التي جاءت في ١٩٧٧، عندما تم اختيار الكويت عضواً في مجلس الأمن، ممثلا لآسيا، وفق التوزيع الجغرافي للأمم المتحدة، ولكنها ممثل للمجموعة العربية حسب التوزيع السياسي.

بدأنا العمل في يناير ١٩٧٨، وجلست ممثلاً للكويت في مجلس الأمن لمدة عامين، رأيت فيهما الكثير، المزعج والمريح، وتعرفت فيهما على عدد كبير من الزعامات والشخصيات، لأن عضوية مجلس الأمن توفر لممثل الدولة صفة خاصة تتيح له المشاركة في اجتماعات مغلقة، واحتفالات عامة، ولقاءات محدودة، فضلاً عن اتصالات الدول التي ليست عضوا في مجلس الأمن، من أجل الدفاع عن قضاياها أو لشرح موقفها.

يشكل مجلس الأمن ناديا خاصا لطبقة من النبلاء هم أعضاء المجلس الذين يتحملون مسئوليات أكبر.

في ذلك الوقت لم يكن للكويت هموم خاصة، وليس لها قضايا ولا جدول أعمال خاص بها، كانت قضاياها عربية، ومواقفها عربية، وهمومها عربية، واستراتيجيتها في الدبلوماسية هي تبني قضايا العرب والدفاع عنها، وإعطاؤها أولويات في عملها الخارجي.

كانت تلك الاستراتيجية ترجمة لتعريب الكويت في دبلوماسيتها وسلوكها السياسي الخارجي والداخلي، وتحت ذلك التعريب شيدت الكويت خيامها الأمنية، مقتنعة بأنها المرفأ الآمن الذي لا تصله الأعاصير.

وقد كانت قضية فلسطين بكل إفرازاتها هي جدول أعمال الكويت، التي شكلت أيضاً ٦٠٪ من أعمال مجلس الأمن في الفترة من ١٩٦٧ - ١٩٨٠.

كان الهم الأكبر هو العمل على تحقيق قرار من مجلس الأمن، يدعو إلى سحب القوات الإسرائيلية من جميع الأراضي العربية المحتلة، ويدعو أيضا إلى حق شعب فلسطين في ممارسة تقرير المصير.

كان القرار الذي يستند إليه مجلس الأمن في معالجته لقضايا الشرق الأوسط هو القرار ٢٤٢، الذي يعالج شئون الاحتلال والانسحاب لكنه لا يستجيب لمطالب منظمة التحرير الفلسطينية في حق تقرير المصير وإقامة الدولة الفلسطينية.

ولأنني ممثل العرب في مجلس الأمن، فقد تحملت لمدة عامين مسئولية الدفاع عن منظمة التحرير في مطالبها لإضافة فقرة جوهرية تعطي المنظمة مرجعية سياسية وقانونية لممارسة حق تقرير المصير.

وقد بدأت الاتصالات السرية مع وفد المنظمة لصياغة قرار مبسط تقدمه الكويت لمناقشته والتصويت عليه.

وبصراحة فإن خطوة مثل تلك ستؤدي إلى توتر وصدام مع الولايات المتحدة بالذات، وهي دولة صديقة، لنا مصالح مشتركة معها، ولنا مصلحة استراتيجية في التعاون معها، ولكننا لم نعبأ بذلك.

وقد بدأت مناقشة المجلس لقضية فلسطين بشكل واسع، دون أن نحدد شكل القرار الذي سنطرحه على مجلس الأمن.

وفي مفاوضات واتصالات اقترحت على اندي يونج السفير الأمريكي في الأمم المتحدة، ورئيس مجلس الأمن لذلك الشهر (أغسطس ١٩٧٨) أن يلتقي رئيس وفد منظمة التحرير في منزلي بصورة سرية لكي يتم التفاهم حول مصير القرار الذي لا تريده واشنطن وتصر عليه المنظمة وتدعو له الكويت، ولا يقضي عليه سوى الفيتو

الأمريكي الذي لا تريد واشنطن أن تعزل نفسها باستخدامه.

جاء إلى منزلي القريب من مبنى الأمم المتحدة السفير الأمريكي يونج لمقابلة المندوب الفلسطيني السيد زهدي الطرزي، الرجل البدين، صاحب الروح الخفيفة، يرافقه ابنه الصغير للتغطية.

وجلسنا الثلاثة، نتكلم بصورة غير رسمية حول القرار، واتفقنا على تأجيل التصويت نتيجة لذلك اللقاء، إلى أجل غير مسمى، تقديراً لموقف السفير الأمريكي ذلك القسيس الأسود الذي برز في حركة تحرير السود مع الزعيم مارتن لوثر كينج.

وخرجنا متصورين أن الموضوع قد انتهى، فلن نستمر في سياسة الإحراج، ولن نضغط على واشنطن، وراح السفير يونج إلى مقره مرتاحاً.

وأول من نشر الخبر كانت مجلة نيوزويك، بعد حوالي شهر من اللقاء، وبعدها تصاعدت أصوات التجمعات الصهيونية مطالبة برأس السفير يونج الذي كسر قواعد العمل الأمريكي الذي يرفض التعامل مع منظمة التحرير.

وانتشر الخبر عالياً، وكسبت المنظمة انجازاً سياسيا وإعلامياً لم تتوقعه، وصار زهدي الطرزي معروفاً لربات البيوت الأمريكيات، يطل عليهن من قنوات التلفزيون بشكله القريب من سانتا كلوز.

وانتهى الأمر باستقالة السفير الأسود أندي يونج، صديق الرئيس كارتر، الذي ضحى بصديقه للاعتبارات السياسية، رغم صيحات تجمعات السود المناصرة للسفير.

تلك الحادثة علمتني شيئاً مارسته المنظمة وهو «الدبلوماسية الضبابية» فقد جاء ممثل المنظمة بالمشروع الذي يقبل «القرار ٢٤٢ الذي كان مرفوضا في ذلك الوقت من جميع العرب»، بالإضافة إلى حق شعب فلسطين بممارسة تقرير المصير.

كانت المنظمة تريد التحرك ولكنها تريد غطاء سياسياً، وقد وفرت الكويت ذلك الغطاء، فإن نجح المشروع فلن تتردد بالاستفادة منه وإن فشل نتيجة المعارضة الأمريكية، فستأخذ منه مكاسب إعلامية وسياسية أيضاً، وسيزيد السخط الجماهيري العربي على واشنطن.

هناك الكثير من الدول التي مارست هذا النوع من الدبلوماسية، لا سيما في دول الطوق، ومن فنون الضبابية الغموض، والتستر والاختباء خلف راع أو متبن، خوفاً من وضع داخلي محرج مثل وضع لبنان، أو مزايدات عقيم تمارسها منظمات أخرى، مثل حالة منظمة التحرير. أو لأسباب إقليمية معقدة.

وقد شعرت بهذه الضبابية بشكل حاد أيضاً خلال أزمة جنوب لبنان في مارس ١٩٧٨ عندما أمر بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك قواته بالتوغل في الجنوب اللبناني على إثر حادثة السفير الإسرائيلي في لندن.

كانت مشكلة لبنان حادة لأنه بلد مسكون بالطائفية وصراع الطوائف، واعتيادية الدخول في تحالفات مع قوى إقليمية ضد طوائف لبنانية داخلية.

وقد كانت مشكلة مجلس الأمن هي صراع القوى اللبنانية المتحالفة مع منظمة التحرير ضد الدولة اللبنانية. ولهذا فقد كان السفير اللبناني الذي عملت معه خلال عملي في مجلس الأمن السفير غسان التويني، يمارس سياسة الغموض وتغليف الأوراق التي يلعب بها بسرية نابعة من الثقافة الضبابية التي يعيش فيها لبنان السياسي.

وكان مندوب المنظمة زهدي الطرزي مزعجاً ومشاغباً يثير موضوعا ميتا مثل اتفاقية القاهرة ضد لبنان، أمام مجلس الأمن في وقت ضاعت فيه هيبة الدولة اللبنانية تماما وتعطلت أوراقها واستسلمت للقدر المكتوب.

ترأست مجلس الأمن في فبراير ١٩٧٩، وحدثت خلال رئاستي عملية تأديب قامت بها الصين الدولة الدائمة العضوية في مجلس الأمن، ضد فيتنام.

وقد عقدت عدة اجتماعات رسمية لمجلس الأمن، كنت أضع مقترحات ومسودات قرارات كثيرة، لم أستطع فيها الحصول على موافقة الدول الدائمة، ولذلك آثرت السلامة وانهيت رئاستي بخطاب مثير خال من المجاملة، نثرت فيه الملح على الجروح الغائرة.

وعلى فكرة لم يتبدل أسلوب الصين في أعمال الأمم المتحدة عما كانت عليه الحال منذ أيامي، فالصين دولة لا تعطل لكنها لا تسهم بالمشاورات أو تقديم المقترحات، قليلة الكلام، تفضل الاحتفاظ بالأوراق وعدم البوح بالأسرار، لا تصطدم لكنها لا تبادر، ربما بسبب العزلة التي كانت فيها أو بسبب الشك والريبة أو بسبب الحضارة الصينية التي تعتمد الامتصاص والصبر.

انعقدت آخر جلسة شاركت فيها كعضو في مجلس الأمن في يوم ٣١ ديسمبر ١٩٧٩ وهو آخر يوم لعضوية الكويت في مجلس الأمن، وموضوعها «الرهائن الأمريكيون في السفارة الأمريكية في طهران» حضرها وفد أمريكي رفيع برئاسة وزير الخارجية سايروس فانس.

وقد صوت مجلس الأمن على إرسال السكرتير العام كورت فالدهايم إلى طهران لمقابلة الإمام الخوميني لإيجاد حل للأزمة التي طالت دون حل معقول.

وقد ألقيت خطاباً أشرح فيه موقف الكويت، حيث امتنعت عن التصويت على القرار، وهو موقف كان معقولاً في ذلك الوقت إذا أخذنا في الاعتبار الظروف الإقليمية المحيطة بالكويت.

شعرت بارتياح بعد خروجنا من مجلس الأمن، فقد ساهمت الحرب الباردة في تعطيل إرادة المجلس، لأن الغرب لا يسمح بشيء ما ضد

دول حليفة له، وموسكو لا تعرف قيما أو مبادئ في حمايتها لدول ضمن نفوذها السياسي أو صديقة لها.

كان العمل كثيراً، وكان تعامل المجموعة العربية مع قضايا فلسطين والشرق الأوسط فيه الكثير من غياب الصدق وفيه التلون والانتهازية، لم أكن مرتاحاً من علاقات الشك والريبة التي تحكم المربع السوري اللبناني الفلسطيني الأردني.

فقد كان هذا المربع يبحث عن متطوع يخرج له الجوز من الجمر الحار، ولا يريد أحد من هذا المربع أن يقوم بنفسه بحرق أصابعه.

ولذلك ظلت قضايا العرب جامدة، إلى أن أتى الرئيس السادات، فتطوع بإخراج جوز مصر بنفسه، تاركاً الآخرين يبحثون عن متطوعين.

وعندما لم يجدوا متطوعاً، راح الواحد بعد الآخر يعقد اتفاقيات السلام مع إسرائيل لينقذ ما يمكن إنقاذه بعد أن ضاع وقت طويل.

كانت علاقتي بالسكرتير العام كورت فالدهايم متينة جداً، فقد كان يدعوني للتشاور باعتباري ممثل العرب في مجلس الأمن، وكان يريد مني دعمه في الاستمرار في منصبه، وقد دعاني للعشاء بمفردي في منزله لنتكلم عن هذا الموضوع.

كان طموحاً، ميكافيللي السلوك، براجماتي العقيدة، له طاقة غير محدودة للعمل، تتحكم فيه غريزة الانضباط المرافقة للعنصر الألماني.

وقد استمرت علاقاتنا بعد عودته إلى فيينا وتوليه منصب رئيس الجمهورية حيث زرته في فيينا، وقابلته في الكويت ولانزال على اتصال في المناسبات.

من الشخصيات الكثيرة التي قابلتها، ارتحت للزعيم الديني البابا الحالي، وجدت زعيم كوبا كاسترو مثيراً ومملوءاً بالكاريزما السياسية، والسيدة غاندي نحيفة نظراتها لا تبعث على الارتياح، ووجدت سيها نوك ممثلا كوميدياً، وشعرت بالتباعد مع الملك حسين، رأيت السادات مزيجاً

من البساطة والفلكلورية، وأعجبت بالسيدة جيهان أكثر من الرئيس.

كان رئيس وزراء السويد بالما الذي قتله مجهول، جذوة نشاط وفكر، ونيريري من تنزانيا خطيباً بارعاً، والملك الحسن هيبة الملوك لا تفارقه، أما زوجة الرئيس الفلبيني أميلدا ماركوس فمزيج من التصنع والبهرجة، والرئيس اللبناني سليمان فرنجية شعبي جماهيري.

غادرت نيويورك في فبراير ١٩٨١، بعد أن قضيت عشر سنوات في الأمم المتحدة، وآثرت السفر بهدوء دون حفلات وداعية فيها الكثير من التكلف وثقل البروتوكول، عائدا إلى الكويت، لمواصلة العمل في فصل آخر من فصول دنياي.

* العربي - العدد ٤٩٧ - أبريل ٢٠٠٠م.

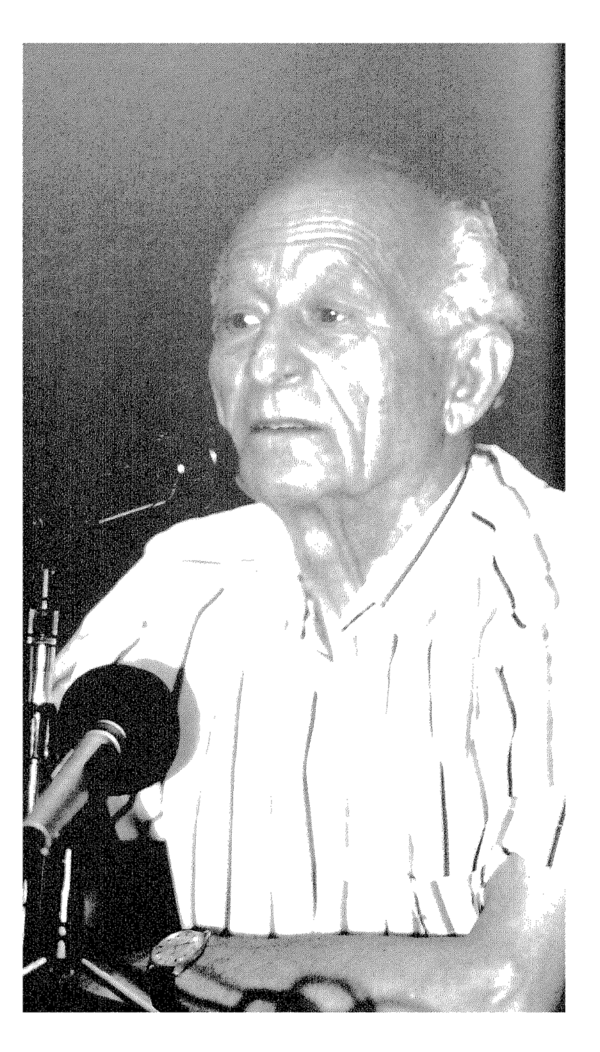
د. عبدالقادر القط

عشقت التجديد والفكر المتحرر*

أهي أحلام يقظة، تلك التي تراودني في هذه الأيام. وقد تجاوزت الثمانين - فتردني دون قصد إلى أيام الطفولة والصبا في أحضان ذلك الريف الهادئ البعيد، في أقصى شمال مصر، لتنفض عن كاهلي عبء السنين، وتعيد إلى النفس وما يختلط فيها من مرارة الغربة أو الإخفاق وحلاوة التواصل والتوفيق، صفو الطفولة الأولى وغفلتها؟ أم تراها استعادة واعية لمرحلة من الحياة كاد أن يطويها النسيان وتختفي تحت ركام ثقيل من التجارب مازال فيها - خلل الرماد - وميض نار قد يتكشف عن دفء يحنو على برد السنين؟ وعن بعض نور يكشف ما غطى على البصر من طول النظر إلى المُعاد والمألوف؟

كانت البداية في قرية صغيرة تفصلها مساحات شاسعة من حقول الأرز الخضراء، والمياه الممتدة حتى شريط ساحلي من الرمل الأبيض ملئ بالنخيل والأعناب.

ولم يكن بالقرية من وسائل التعليم إلا «الكتاب» التقليدي الذي يتعلم فيه الصغار مبادئ القراءة والكتابة وشيئا من الحساب وآيات من القرآن.



وهكذا فرضت علي غربة باكرة منذ كنت في الثامنة، فالتحقت بالمدرسة «الأولية» في المدينة الصغيرة المجاورة، أقيم فيها أيام الأسبوع وأعود إلى القرية في نهايته.

وفي المدرسة الأولية كان للغة العربية مكان الصدارة في مناهج الدراسة. وكان مدرسها «معلما شاملا» ينقل إلى تلاميذه خلال اللغة الكثير من المعارف في التاريخ والدين والأدب.

ولعل طبيعة تلك البيئة الجميلة ذات الطابع الشعري، وتلك المعارف الإنسانية العامة في ظل غربة باكرة لصبي صغير، قد تآزرت لترسخ في النفس حب اللغة والأدب، والشعر الذي كنا نتلقاه في أناشيد نرددها وراء المدرس، قد يعز علينا إدراك بعض مفرداتها وأسلوبها العام، لكنها - بإيقاعها وحلاوة نغمها وطبيعة تجربتها القريبة إلى نفوس الأطفال - كانت تتجاوز بنا محاولة الفهم الدقيق إلى التلقي الوجداني المؤثر الذي يترسب في النفس ويتراكم فيفسر المعروف منه بعض المجهول

وكانت اللغة العربية حينذاك - في جميع مراحل التعليم - ذات شأن متميز حتى في تعليم المواد الأخرى كالتاريخ والجغرافيا وبعض العلوم مثل الكيمياء والطبيعة، بما لها من رموز علمية عربية.

لم تكن اللغة العربية في مراحل التعليم العام مجرد «مادة» من مواد المنهج الدراسي، بل مكونا من مكونات الشخصية في التفكير والتعبير. وكان الطالب يدرب على قراءتها و«إنشائها» تدريبا مستمرا، ويقرأ ما يتعلم منها ومن تراثها في كتب يؤلفها كبار الأدباء والمفكرين. وكان من ينبغ في هذا المجال يظفر من المجتمع بتقدير عظيم ويحقق لنفسه مكانا رفيعا بين أبناء عصره.

وهكذا أحببت اللغة العربية بالفطرة وطبيعة النشأة والعصر،

وزاد حبي لها في غربة ثانية جديدة كانت أقسى من غربتي الأولى في مدرسة المدينة الصغيرة. فقد شاءت ظروف خاصة ألا ألتحق بالمدرسة الثانوية في عاصمة الإقليم، كما كان مألوفا حينذاك، ورحلت إلى القاهرة ـ في الثالثة عشرة ـ لألتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية هناك.

كنت أقيم في رعاية ثلاث سيدات فاضلات سبقن في ذلك العصر الباكر إلى التعليم العالي وأكملن تعليمهن في الخارج، وعدن ليشغلن مناصب رفيعة في التعليم العام. وقد ساقني إلى تلك الرحلة البعيدة من القرية إلى العاصمة أني كنت صديق دراسة في المدرسة الإبتدائية لابن أخيهن فرحلنا معا إلى القاهرة.

وقد أتيح لي بإقامتي مدة عامين مع هؤلاء السيدات المثقفات الفاضلات أن أستمع إلى كثير من النقاش الفكري وإن ألتفت إلى وجوه من السلوك الحضاري كانت جديدة على فتى ريفي. وقر في نفسي احترام كبير للمرأة وقدرتها ومكانتها، ومازلت حتى اليوم يسوؤني ما أراه في حياتنا من تناقض عجيب بين النظر والممارسة حين نعرض لأوضاع المرأة في المجتمع، ففي حين تبلغ المرأة العربية مكانة مرموقة وتفوقا ملحوظا في أغلب مجالات العلم والعمل، وتصل إلى أرقى المناصب، وتجمع في كثير من الأحيان بين مسؤوليات الأسرة والعمل، نغفل عن كل هذا الواقع ونناقش أوضاع المرأة في المجتمع كأنها قضية معروضة للنظر لكي نتخذ قراراً فيها من «نقطة الصفر!».

ولعل الغربة والفقر والاستعداد الفطري، قد جعلتني مهيأً لاستقبال المذهب الأدبي الجديد الذي كان قد بدأ يسود الأدب العربي حينذاك، ذلك المذهب الذي استعرنا له المصطلح الغربي فسميناه «الرومانسية» وأسميته أنا فيما بعد «الاتجاه الوجداني».

وقد ساقتني المصادفة إلى الاقتراب المبكر من نماذج الإبداع القصصي والروائي عند رواد ذلك الاتجاه، إذ نلت في نهاية العام الدراسي الأول جائزة التفوق في اللغة العربية وكانت رواية «البؤساء» للشاعر الفرنسي الرومانسي فيكتور هيجو، وتعريب الشاعر حافظ إبراهيم.

ثم تلتها مصادفة طيبة فكان لوالد أحد أصدقائي في المدرسة مكتبة منزلية كبيرة تعرفت فيها إلى مصطفى لطفي المنفلوطي وما عربه من روايات فرنسية رومانسية، وما كان يكتب من قصص أو شبه قصص قصيرة بعنوان «العبرات».

وكان المنفلوطي - وبعض الكتاب العرب الآخرين - علامة بارزة في تطور النثر العربي حينذاك إلى ما يشبه الشعر المنثور الذي يسير موازياً لاتجاه الإبداع في الشعر الوجداني. وقد عاش جيل كامل من الشباب على أدبه الذي كان قريبا من عواطفهم الحادة وخيالهم الجامح وتطلعهم إلى التعبير الشعري عن عواطفهم ورؤيتهم للحياة حينذاك.

واجتمعت في نفسي أحاسيس الصبا وطبيعة العصر وما كنت أقرأ من أدب مؤلف ومترجم، وزادت قدرتي الفكرية واللغوية بمساندة كتب مدرسية متميزة تقدم إلى الطالب نماذج مختارة من الشعر والنثر في الأدب العربي على مر العصور، يؤلفها كبار الأساتذة في التعليم والجامعة.

ولم يكن المدرس في المدرسة الثانوية بأقل تأثرا من تلاميذه بطبيعة العصر وما جلب من تحولات في رؤية الحياة والتعبير عنها بالشعر والقصص والمقال، فكان يقدم النصوص «المقررة» بحرية وتوسع وذوق شخصي، ويوجه طلابه في موضوعات «الإنشاء» إلى التعبير الحر عن الذات. وأذكر - في هذا المجال - أن

مدرس اللغة العربية طلب إلينا ذات يوم أن نكتب في موضوع عنوانه «خواطر في ليلة أرقت فيها»، فأرقت له ذات ليلة وكتبت مقالاً طويلاً، لابد أن أغلبه كان مقتبسا - دون أن أفطن - مما ترسب في خاطري من كتابات المنفلوطي.

وأعجب الأستاذ بالمقال إعجاباً كبيرا، وكتب تعليقا في نهايته - مُجارياً إياي، أو على الأصح مجاريا المنفلوطي المصدر الأول لخواطر أرقى. وكنت قبل أن أنتهي من الدراسة الثانوية قد عقدت العزم على الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، يدفعني حبي للغة والأدب، وتشدني أسماء كبيرة لامعة تجاوز وجودها الجامعة إلى المجتمع المصري والعربي في الأدب والفكر والسياسية، منهم طه حسين وأحمد أمين، وأمين الخولي وعبدالوهاب عزام ومصطفى عبدالرازق وعبدالحميد العبادي وإبراهيم مصطفى.

وكان عدد الطلاب قليلا يتيح الاتصال الوثيق بالأساتذة والانتفاع المفيد بالمكتبة العامة، وكان من بين هؤلاء الاعلام من يحث طلابه - عن قصد - على الحوار والمناقشة، بل قد «يستفزهم» أحيانا إلى ذلك كما كان يفعل أمين الخولي.

وكانت محاضرات طه حسين تتجاوز تقديم «الحقائق» إلى إثارة «التساؤل» ودراسة النحو للأستاذ المجدد إبراهيم مصطفى لا تقنع بتقديم «القواعد» بل تحاول أن تصل إلى مناهج جديدة وتربط النحو بالمنطق، في محاضراته وفي كتابه الرائد «إحياء النحو».

وكان المؤرخ الكبير عبدالحميد العبادي «يفسر» أحداث التاريخ ويفلسفها ولا يسوقها لطلابه مجرد أحداث ووقائع.

أما أمين الخولي، فقد تميز من بين الأساتذة جميعا بقدرته على إثارة الجدل حول الرأي الواحد، وبقسوته «الظاهرية» في

مناقشة ما كنا نقرأ في المحاضرة من بحوث، وكان بادي السخرية أحيانا، لكنها سخرية يقصد من ورائها أن يصرف الباحث عن الالتفات إلى رأي واحد دون النظر في وجوه أخرى ممكنة للموضوع أو القضية.

ومن الاستماع إلى هؤلاء الرواد الكبار، والإفادة من قراءات وثقافات أخرى بعد ذلك، قر في فكري أن الأمور قد تحمل من الدلالات أكبر مما يبدو على ظاهرها وأن قضايا الفكر والأدب ـ مهما تبدو محسومة من قبل ـ قد تقبل النظر من جديد.

وهكذا تعلمت أن أبتعد فيما أكتب من بحث أو نقد، البدايات الحاسمة اليقينية التي تتردد كثيرا لدينا، من أمثال: «ومما لاشك فيه.. ولا جدال في أن.. ومن المؤكد أن..» وأن أعدل عنها إلى بدايات تفيد الاحتمال، والصواب والخطأ من مثل: «ولعل.. ويبدو أن.. وربما كان.. ويخيل إلي.. وفي ظني». وكان لأستاذنا طه حسين بداية مأثورة يقول فيها «وأغلب الظن أن..».

على أني لم أكن راضيا كل الرضى عن تلك الدراسات والمناهج المتميزة، إذ كنت أفتقد فيها الاهتمام بالأدب العربي الحديث، في مرحلة كان ذلك الأدب يجتاز ألوانا من التحول الجسيم في رؤيته وصياغته، وتنشأ فيه ضرورة جديدة من فنون القول، قد يكون لها أصول عربية قديمة، لكنها في صورتها الحديثة وليدة التطور الحضاري الحديث، والتأثر بنظائرها المتأصلة في الأدب الأوروبي، في الرواية والقصة القصيرة والمسرح.

وفي عام ١٩٣٨ تخرجت من الكلية وعملت أمينا بمكتبة الجامعة على مدى سبع سنين مع صديقي الراحل الدكتور عبدالعزيز الأهواني. وعهد إلينا أستاذنا طه حسين بإنشاء قاعة مطالعة كبيرة للدراسات العربية والشرقية، جمعنا فيها عددا كبيرا من

الموسوعات والمعاجم وكتب التراث في فنون الأدب والتاريخ والفكر والدين، مصنفة حسب العصور والموضوعات. وعهد إلينا أستاذنا في الوقت نفسه بتحقيق كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام، وهو كتاب كبير يؤرخ للأدب في الأندلس.

وكانت أعداد الطلاب مازالت قليلة حينذاك، تأذن بأن يكتبوا بحوثا في موضوعات تتصل بدراساتهم، وكانوا يترددون كثيرا على هذه القاعة الكبيرة لينتفعوا بمراجعها وكتبها الميسورة.

ومن معايشتي الدائمة للكتب ومعاونتي المخلصة لهؤلاء الطلاب، كانت هذه السنوات السبع مصدر تكويني الثقافي الحقيقي الحر، بعيدا عن مناهج الدراسات المقررة وساعاتها المحددة، وأعباء الامتحانات الثقيلة.

وكانت تلك الصلة الدائمة بالأجيال المتعاقبة من الشباب بذرة نمت في نفسي حتى أصبحت ذات جذور متأصلة، توجه سلوكي الثقافي وفكري الأدبي، واستطعت من خلالها أن أدرك طبيعة الخلاف بين الأجيال وسنة التطور، وما يجلبه الزمن من تحولات في الفكر والإبداع والسلوك.

وزاد هذا الوعي بعد ذلك بما اكتسبت من خبرة عبر السنين، إذ التقيت بعد تخرجي بطائفة من شباب الأدباء، في مقهى ثقافي معروف كان يلتقي فيه عدد كبير من الأدباء الراسخين، ويفد إليه شباب يريدون أن يتعرفوا إليهم.

وهكذا أصبحت ميالاً بطبيعتي وبهذه المعايشة الدائمة للشباب إلى أن انتصر للجديد، إذا اقتنعت بأنه قد نشأ ليعبر عن طبيعة مرحلة حضارية جديدة، أو ليبشر بها قبل أن تبزغ إلى الوجود وإذا رأيت أن هذا الجديد بفكره وإبداعه قد أرضى حاجات تلك المرحلة.

وأدركت أن الخصومة بين القديم والجديد أمر لابد منه لكي يتمحص خلالها أمر الجديد، ولكي يألفه الناس على مهل فلا يواجهوا ببلبلة الانسلاخ المفاجئ من القديم المألوف. وتنتهي الخصومة دائما - مهما تطل أو تقصر - بانتصار الجديد إذا لم يكن نزعة فردية، أو بدعة خاصة، بل كان تعبيرا عن مرحلة ذات تميز شامل، لا في الأدب وحده، بل في كثير من وجوه الحياة.

لذلك اخترت - حين أرسلت في بعثة إلى لندن بعد انقضاء الحرب الثانية لنيل درجة الدكتوراه - موضوعا يمثل تلك المواجهة الحضارية المتكررة بين القديم والجديد، فدرست «مفهوم الشعر عند العرب، كما يتمثل في كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري».

وحين عدت من البعثة وبدأت المحاضرة في الجامعة حرصت على أن أعرف طلابي بالأدب العربي المعاصر وأقدم إليهم مذاهبه ونصوص إبداعه، بمنهج نقدي شامل. وكان كثير من هذه النصوص لشباب من الشعراء والقصاصين والروائيين مازالوا في مطلع حياتهم الأدبية.

وقد ساقني الانتصار للجديد إلى كثير من الخصومات حين وقفت إلى جانب رواد الشعر الحر، وكتبت مقدمة لديواني الوحيد «ذكريات شباب» الذي أصدرته عام ١٩٥٨. وفي تلك المقدمة تحدثت عن نظرية الشعر الحر وأشدت بتجاريه، وبينت أن قصائدي تنتمي إلى مرحلة قد انحسرت - هي المرحلة الرومانسية، بعد أن أبدع أصحابها إبداعا جديدا متميزا عبر عن طبيعة المرحلة التي عاشوها وجددوا في مفهوم الشعر وصيغته وهيأت نماذجهم البديعة لظهور المرحلة التالية. وفي عام ١٩٥٤ صدر أول كتاب لي بعنوان «في الأدب المصري المعاصر» يتضمن ثلاثة بحوث طويلة عن «السلبية في القصة المصرية.. المسرح الذهني عند توفيق

الحكيم.. الأدب بين الغاية والفن».

وكنت شديد الاعتزاز ببحثي عن مسرح توفيق الحكيم، وكان مصطلح «المسرح الذهني» مصطلحاً صغته بنفسي وأطلقته لأول مرة على هذا اللون من المسرحيات التي تدور حول فكرة واحدة ـ قريبة من الفلسفة أو الفكر المجرد ـ تحاول عناصر المسرحية من أحداث وشخصيات وصراع وحوار أن تبرزها على نحو مجسد.

أما بحثي «الأدب بين الغاية والفن» فكان يعرض لبعض ظواهر فنية في الشعر والقصة تتجاوب مع النزعات القومية وحركات الاستقلال والإصلاح الاجتماعي التي سادت في الوطن العربي وبعض الدول الإفريقية حينذاك، ويواجه المبدع فيها مشكلة التوازن بين «القضية» والفن.

لكني فوجئت بضجة نقدية كبيرة ـ لم أكن أتوقعها ـ حول بحث «السلبية في القصة المصرية» دامت أكثر من شهرين على صفحات الجرائد والمجلات وفي الندوات الثقافية، ولقيت من جرائها عنتاً كبيرا لازمني طويلا في حياتي الأدبية بعد ذلك، إذ كان الجدل قد انحرف من الموضوع الأدبي إلى السياسة.

كان البحث يدور حول روايتين إحداهما «إني راحلة» للأستاذ يوسف السباعي، والأخرى «بعد الغروب» للأستاذ محمد عبدالحليم عبدالله. وكانا حينذاك في طليعة الروائيين الرومانسيين الذين يجتذبون الشباب بتصويرهم العواطف الجامحة والمواجهة بين الحب الصادق وسلطان الجاه والمال.

لكن عهد الرومانسية كان قد انقضى وبدأ المجتمع العربي يواجه مشكلات وتحولات خلفتها الحرب العالمية الثانية ووجهت الأدب إلى النظر الواقعي والبحث عن صيغة فنية جديدة. وكان نقدي ـ بما فيه من حدة وتفصيل ـ مفاجأة للكاتبين الشهيرين

ولقرائهما من الشباب، فبدأت تلك «المعركة» الأدبية الحامية!

وحاول كثير من الأصدقاء أن يصلحوا بيني وبين الأستاذ يوسف السباعي الذي كان أكثر ضيقا بما كتبت وأشد عنفا في الرد عليه. وفي إحدى تلك المحاولات عاتبني لعبارات جاءت في نهاية نقدي لروايته لم ألتفت حين كتبتها إلى ما فيها من قول جارح، إذ كنت ما أزال شابا شديد الحماسة، متطلعا إلى تحقيق ذاته من خلال فكر مستقل صريح.

وسرعان ما وجدتني أخوض «معركة» ثانية بعد أن هدأت عاصفة «السلبية في القصة المصرية». ففي عام ١٩٦٠ أصدر الدكتور رشاد رشدي الأستاذ الجامعي والكاتب المسرحي المعروف كتابا صغيراً بعنوان «ما هو الأدب؟» نقل فيه آراء مدرسة أمريكية معروفة باسم «النقد الجديد» نقلاً فيه كثير من الإسراف والإيجاز المخل، وإغفال لما جد على آراء تلك المدرسة بعد نشأتها وتطبيقها لنظريتها، وسخر ممن ينهجون في تعريف الأدب منهجا آخر.

كانت مدرسة «النقد الجديد» قد نشأت «رد فعل» لاتجاهين غلبا على النقد في مطلع القرن العشرين وابتعدا كثيرا عن الدراسة الفنية للنص واتجها إلى العناية الزائدة بمضمونه.

أما الاتجاه الأول فكان «التفسير النفسي للأدب» بعد ظهور نظرية العقل الباطن عند «فرويد»، وقد أغرت النظرية كثيرا من النقاد بالربط المباشر بين بعض ما عُرف عن المبدع من سلوك أو خصائص نفسية، وما أبدع من نصوص في فنون القول المختلفة، وحاول بعضهم أن يرسم صورة لحياة المؤلف من خلال نصوصه متخذين منها ما يشبه «الوثائق» النفسية.

وأما التفسير الاجتماعي فقد ساد عند جماعة من النقاد بعد ظهور الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧، فاتجهوا إلى تحليل

«مضمون» النص الأدبي، وقاسوا قيمة العمل الأدبي بمعيار رؤيته الاجتماعية والمذهبية، مهما تكن طبيعة فنه ومستواه.

وجاء أصحاب «النقد الجديد» فحاولوا أن يعيدوا إلى النص وجوده الصحيح بوصفه إبداعاً أدبيا نبع من أوضاع ومشاهد من الحياة، لكنه في صورته الفنية كيان مستقل، فقالوا إن النص الأدبي «لا صلة له بنفس قائله ولا بروح عصره».. وكان ذلك رد فعل بما تحمل ردود الأفعال من حدة ومبالغة.

لكن أصحاب المذهب بعد أن تجاوزوا مرحلة الدعوة النظرية إلى الدراسة والتطبيق، رأوا انه لا مناص في أحيان كثيرة من الإشارة إلى بعض جوانب من حياة المؤلف أو طبيعة العصر أو أصول النص السابقة أو عرض «القضية» المطروحة في العمل الأدبي.

وكتبت نقدا حادا ساخرا من كتاب الدكتور رشاد رشدي. ويبدو أني لم أكن قد خلصت بعد من اندفاع الشباب! أو أن ظروف المجتمع العربي وقضاياه القومية الملحة كانت ترفض أن يتحول النص الأدبي عند الناقد إلى مجرد تشكيلات لغوية وأبنية أسلوبية، دون النظر إلى مضمونها وفنها معا.

وطالت «المعركة» وتشعبت أطرافها ـ وعرفت بقضية الشكل والمضمون، وإن كان هذا بعيدا عن طبيعتها في الحقيقة، وكان إلى جانب النقد الشامل الدكتور محمد مندور والناقد أنور المعداوي والدكتور محمد غنيمي هلال، وانضم إلى الدكتور رشاد رشدي بعض تلاميذه في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب.

وكما نالني بعض رذاذ من اتهامات سياسية في قضية «السلبية» نالني من هذه المعركة أذى أشد، إذ كان الجدل عند بعض النقاد ينحرف في النهاية إلى السياسة.

وفي عام ١٩٦٤ عهدت إلي وزارة الثقافة برئاسة تحرير مجلة جديدة باسم «الشعر» وكنت بطبيعة ميلي إلى الجديد وتشجيع المواهب الواعدة والحفاوة بالمتميزين من الأدباء «العصريين» أنشر لكثير من المجددين في مصر والوطن العربي.

وفوجئت ذات يوم بأن «لجنة الشعر» بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ـ ومقررها حينذاك الشاعر المعروف عزيز أباظة ـ قد قدمت مذكرة إلى وزير الثقافة تأخذ على المجلة تجاهلها الشعر العمودي وتحيزها للشعر الحر.

والحق أن المجلة لم تكن تتجاهل الشعر العمودي، لكنها كانت تنشر أحسنه وأقربه إلى روح العصر، وكان من الطبيعي أن تقل هذه النماذج الجيدة بعد أن تحول أصحاب المواهب الجديدة إلى شعر «التفعيلة» وظل أغلب الشعراء العموديين يكررون ما سبق إليه شعراء موهوبون من أبناء الحركة الوجدانية التي كانت موجتها قد انحسرت حينذاك.

وانتهى الأمر بعد جدل طويل ومناظرات في ندوات أدبية باغلاق المجلة بعد بضعة أشهر، ومعها عدد من المجلات الأخرى التي كانت تصدرها وزارة الثقافة.

على أن النشاط الأدبي والثقافي لم يكن مقصورا على تلك المعارك والخصومات، فقد كان في المجتمع من القضايا الأدبية والفكرية ما يستدعي النقد الموضوعي الهادئ بعيدا عن نوازع الإثارة والخصومة الشخصية.

وكان ما جدّ من قضايا اجتماعية وسياسية بعد الحرب العالمية الثانية يتجلى في أعمال بعضها يتخذ من تلك القضايا وسيلة إلى رؤية وصيغة فنية سليمة، وبعضها تدفعه الحماسة إلى نزعات خطابية أو ميول إصلاحية أو مذهبية.

وأصبحت المواجهة بين «الالتزام» الذي طال الحديث عنه حينذاك، ومقتضيات الفن، موضع كثير من النقد النظري والتطبيقي.

وفي تلك السنوات نضجت بدايات القصة القصيرة والرواية العربية وانتهت إلى إبداع متميز متعدد المستويات والمذاهب والمواهب، وكانت موضع دراسات أكاديمية أو نقدية في المجلات المتخصصة. وقد أتيح لي أن أرأس تحرير بعض هذه المجلات، كمجلة «المسرح» ثم مجلة «المجلة» فشاركت بما استطعت من جهد في متابعة تلك النهضة الأدبية الكبيرة.

وكان لمجلة «الآداب» البيروتية شأن كبير في اجتماع كثير من مواهب المبدعين والنقاد على صفحاتها. وكانت تفرد لنقد ما تنشر باباً فريدا بعنوان «قرأت في العدد الماضي من الآداب» يتناوب الكتابة فيه عدد من النقاد كنت من بينهم.

لكني خلال ذلك كله كنت حريصا على ألا يقتصر دوري في المتابعة على النقد المكتوب وحده فشاركت في ندوات كانت تقيمها جمعيات أدبية كثيرة كان لها شأن كبير حينذاك، يقبل عليها الجمهور كما يقبلون على أمسية شعرية متميزة أو على عرض مسرحي جديد.

ومن خلال تلك الندوات كانت الصلات الإنسانية الحميمة واللقاءات الدائمة تزيل ما قد يبعثه النقد - دون تواصل شخصي - من هواجس أو سوء ظن، وتقيم العلاقة بين الأجيال على أساس من التوقير والحب، وإن اختلفت الآراء والمذاهب.

وقد طرأ على فنون الأدب العربي في السنوات الأخيرة كثير من التحولات، ونبغت أجيال من المبدعين لهم رؤيتهم الخاصة وأساليبهم الجديدة، مستجيبين أحيانا استجابة واعية لدواعي

التطور الحضاري، ومتأثرين أحيانا ـ تأثرا واعيا أيضاً ومسرفا إلى حد كبير ـ بنظريات جديدة في فنون الأدب والنقد.

ساد في الشعر اتجاه «الحداثة» وسادت في القصة والروايات اتجاهات مماثلة، ومحاولات للتجريب تتجاوز المألوف إلى ما يشبه الطفرة. واستطاع ذوو المواهب الحقة أن يترجموا رؤيتهم العصرية إلى إبداع متميز، على حين نظر غيرهم إلى مناهج النقد الجديدة ومصطلحاتها وأخضعوا إبداعهم لها فغابت عنه تلقائية الموهبة وحريتها.

ومع أن متابعة نظريات النقد الغربية والانتفاع بها أمر لابد منه لكي ينتفع أدبنا بثمار العصر الحديث، فإن هذا الانتفاع ينبغي أن يتم في إطار من الاختيار الواعي والقبول والرفض والجدل والإضافة والتعديل.

لكن نقادنا قد أسرفوا في متابعة تلك المناهج فتجاوزوا حد التأثر والانتفاع، وجعلوا من أنفسهم «تلاميذ» لرواد تلك المناهج، لا يضيفون ولا يعترضون ولا يناقشون ولا يختارون، ويسارعون إلى ترجمة مصطلحات هؤلاء الرواد، فلا تسلم ترجماتهم أحيانا من خطأ العجلة، أو من تجاهل طبيعة اللغة العربية ودلالات ألفاظها وأبنية أساليبها، وطرق اشتقاقها.

وفقد الناقد العربي بكثرة استخدام المصطلحات في صياغتها المصنوعة أسلوب تعبيره الخاص، وكاد النقاد جميعا يصبحون نسخا مكررة في التفكير والتعبير، وهم من خيرة المثقفين ومن أولى الناس بالتميز لو اقتصروا على «الانتفاع» بتلك المناهج، ولم ينسوا أنها في حقيقتها فلسفات حول اللغة جلبها تراكم فلسفات أخرى في مجالات كثيرة للمعرفة، وأنها تواكب آدابا تختلف في طبيعتها وتتابع تطورها ومذاهبها عن الأدب العربي.

وفي ظل هذا الخضوع المسرف للمناهج الجديدة ومصطلحاتها، بدا أن الصلة بين النقد والإبداع قد انقلبت إلى وضع جديد، فأصبح المبدعون في كثير من الأحيان ينطلقون من رؤية الناقد ومن فهم قد يكون غير سليم للمصطلح النقدي الذي تتضارب ترجماته عند الأفراد وفي أقطار الوطن العربي المختلفة.

وقد نشأ عن ذلك ما يبدو لي خللا في حياتنا الثقافية، فقامت فرقة بين الأجيال تتجاوز الفرقة الطبيعية المألوفة إلى العداء والإنكار.. يرمي شباب الأدباء ونقاد المناهج الجديدة أبناء الجيل السابق بالعجز عن ملاحقة ثقافة العصر، ويتهم أبناء الجيل السابق الشباب بالإسراف في تجديد يرفض نقاده أن يضعوا معايير واضحة له، ويتجاهل طبيعة المتلقي وطبيعة المجتمع العربي.

وفي ظني أن المجتمع العربي لم يبلغ بعد من التناسق الحضاري ما يتيح سيادة مذهب أدبي واحد، أو منهج نقدي خاص، فمازال الناس في هذا المجتمع يختلفون حول «أوليات» في الإبداع، اختلافا يتجاوز خلاف الأجيال إلى ما يمكن أن يسمى «خلاف حقب» أو «مراحل».

وقد أتيح لي أن أتابع المواهب الأدبية الجديدة ومحاولاتها في التجديد والحداثة، حين أشرفت على مجلة «إبداع» مدى ثمانية أعوام كاملة، «١٩٨٣ - ١٩٩١»، ورحبت بمحاولاتهم الجادة، حتى أكثرها إسرافاً في التجديد، وقدمت إلى القراء نصوصا قد تبدو غريبة عليهم في باب للشعر أسميته «تجارب» لكي يفطن القارئ إلى طبيعة النص وما يقتضي من جهد خاص في القراءة وتحرر من قياسه إلى ما اعتاد من قديم.

لكن ما أنكرته حينذاك - ومازلت أنكره اليوم - أن تقدم التجارب أو نصوص الحداثة «بديلا» عن كل الاتجاهات في الإبداع، فإن

المتلقين في الوطن العربي لا يزالون يفتقدون «الأرض» الثقافية المشتركة، ويختلفون في «أوليات» لا يختلف حولها أبناء المجتمع المتجانس. ومازالت طبيعة المجتمع العربي تسمح بأن «تتعايش» اتجاهات كثيرة في الأدب والنقد.ومع أن حياتي الثقافية والأدبية قد ارتبطت ارتباطا وثيقاً طويلا بالجامعة على مدى خمسين عاما أو يزيد، فقد غطى النقد والمشاركة في الحياة الثقافية على تلك الحياة الفكرية المتجددة في رحاب الجامعة، وفي بعض المعاهد المتخصصة كمعهد الفنون المسرحية والمعهد العالي للسينما، بين أجيال متعاقبة من الأساتذة والطلاب، وبخاصة حين كان عدد الطلاب حينذاك يأذن بتواصل قريب دائم بين الطالب والأستاذ، وحين كانت الجامعات المصرية تضم عدداً كبيرا من طلاب الدراسات العليا في الوطن العربي، كان لهم بعد ذلك شأن كبير في الأدب والثقافة والسياسة.

وإذا كانت جهودي في النقد قد شاركت قدر طاقتي في الحياة الأدبية العامة مع طائفة مرموقة من الرواد، فإن العمل في الجامعة كانت له ثمار طيبة في كتب كاملة تدرس بعض الظواهر الفنية في الأدب ومذاهبه وتجمع بين النظرية والتطبيق، وتتجدد بالمحاضرة التي تكشف من خلال المناقشة ومعاودة النظر عن وجوه جديدة للنصوص الأدبية أو الظاهرة الفنية.ومازلت أشعر بأني أكون في خير حالاتي الذهنية والبيانية حين أقف محاضرا أمام طلابي في الجامعة وأحس بتجاوب صريح أو خفي بيني وبينهم يجلب إلى نفسي كثيرا من الرضى.ولعل هذا الشعور هو ما يشدني حتى اليوم إلى المحاضرة في الجامعة على الرغم من اختلاف الظروف وكثرة الأعداد، وهبوط المستوى في مرحلة التعليم العام، وتوجيه الطلاب إلى الدراسات الجامعية حسب تقديرهم في شهادة

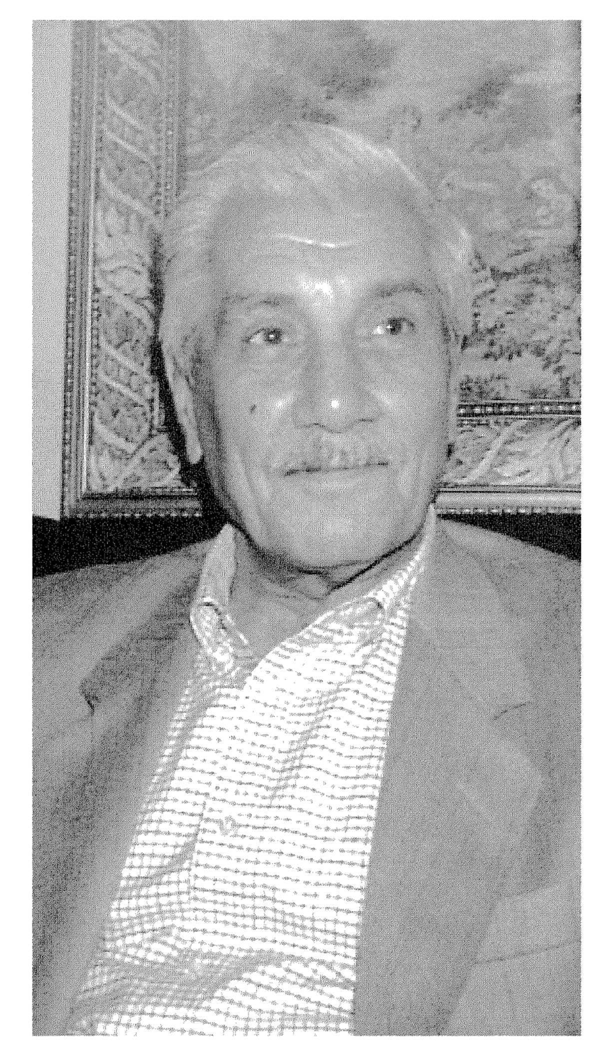
الدراسة الثانوية، لا حسب ميولهم واستعدادهم الفكري والنفسي ومع أن هذا الدور الذي أعتز به يبدو مجهولاً - أو متجاهلاً - عند كثير ممن يتابعون جهود النقاد، فإنه كثيرا ما يتجسد على نحو يملأ النفس بالسعادة، في لمسات جميلة من الحب والوفاء، حين يلقاني بعض طلابي السابقين في مصر والوطن العربي، وقد أصبحوا من الأعلام في مجالات كثيرة- فيذكرونني بذلك الماضي القديم الجميل، الذي يحملون له أطيب العرفان والذكرى وأحمل له أصدق الحب والاعتزاز.

* العربي - العدد ٤٧٦ - يوليو ١٩٩٨م.

وردة المستحيل *

لقد طفت في الأزقة طفلاً وكهلاً وأنا أتنصت إلى وعيد الحلاج وهو يساق إلى الصلب، وسمعت المتنبي وهو يتمتم بأبياته راسماً دوائر نارية ومشعلاً الحرائق في كل مكان، والقتلة يطاردونه من حلب إلى شعب بوان ومن الكوفة إلى القاهرة. أتذكره وهو يفضح أول دكتاتور من ورق، كافور (الشمس السوداء). وعندما بدأت بقراءة (خريف البطريرك) لجارثيا ماركيز كنت أتذكر المتنبي وكافور وأضحك.. ومازلت أضحك وأسافر وأنا في عقر داري، ومنذ كنت طفلاً بدأت هجرتي من حيث السندباد انتهى واكتشفت أن النص الحقيقي ليس هو النص الذي كتب بل هو النص الذي لم يكتب بعد. وعندما انتهي من كتابة قصيدة أحس أنها ليست القصيدة التي أنا بصددها فأبدأ من جديد. وهكذا مرت حياتي بين بدايات جديدة لا حصر لها، وظل النص الحقيقي الذي كنت أريد أن أكتبه لم يكتب بعد، وكل هذا الفضاء المسكون بالرحيل والحركة والصرخات والكلمات والأحزان هو الذي منحني القدرة على أن أجدد نفسي، أن أكون الحاضر والمستقبل. لقد تداخل الزمن بالزمن والوجه بالوجه والمرآة بالمرآة.. فلو لم أكن أنا لكنت أنا.

وكان شأني وأنا أكتب الشعر لا كشأن ذلك الذي يكنز المعرفة، وكنت



كلما انتهيت من كتابة قصيدة أشعر بأني سحابة أمطرت كل ما عندها وظلت تنتظر موسماً آخر لكي تستعيد عافيتها فتمطر من جديد، وقد أحسست بمحنة كبيرة عندما نشرت ديوان (أباريق مهشمة) فقد كنت أتجول بين الوهاد والوديان والقمم لكي أبدأ رحلتي من جديد، وكنت أحس أنني لم أستعد توازني بعد هذا الديوان إلا بعد كتابة ديوان (النار والكلمات) الذي كان خاتمة لمرحلة ثانية من حياتي الشعرية، وقد تخلصت فيها مما ترسب في داخلي إلى الأبد، وكان علي أن أبدأ من جديد. وذات يوم وأنا أتجول في أزقة روايات نجيب محفوظ وبالقرب من مسجد (سيدنا الحسين) أضاءت ذاكرتي بعض صور الطفولة التي كنت أعتقد أنها قد اختفت إلى الأبد، وكان رمز الحلاج والمعري وولدي علي وسواهم قد تداخلت وشكلت ثالوثاً في ذاكرتي، وقبل أن أعود إلى البيت كان الحلاج أو قصيدته تولد في ذهني، وقد شعرت أن ذاكرتي، التي ازدحمت بغبار السنوات كانت تعج بصور ورموز كثيرة كان يطمس بعضها الآخر وكان علي أن أضع الإشارات والعلامات في الذاكرة لكي لا أعيد أو أستعيد ما كتبته.. كنت أقيس المسافة بالكلمات كما كان يفعل ت. س. إليوت عندما كان يقيس الزمن بملاعق الشاي، هكذا كانت حياتي كلها محواً وكتابة وكان مثلي مثل من يقوم بالفتح الروحي لمدينة أو قصيدة وكان عندما يصل إليها يرى أنها ليست هي المدينة أو القصيدة التي يريد كتابتها، وكان يتملكني الحنين أحياناً لكي أعود إلى المدينة أو القصيدة ولكن عندما كنت أعود إليها أرى أنها قد احترقت وتحولت إلى رماد، وكنت كمن يسير في متاهة ذات مائة باب وكان عليه أن يجتاز المائة باب ليخرج من المتاهة ولكنه كان يكتشف أن المتاهة ليس لها منفذ.. لقد كتب على الشاعر أن يعيش في متاهته ذات المائة باب دون نهاية سعيدة، وربما تكون القصيدة وطن الشاعر ولكن عن أي قصيدة أتحدث. الأولى، الثانية، العشرين، المائة.. أم القصيدة التي لم تكتب بعد..؟ لهذا أرى أن الشاعر

يعيش بلا وطن، أي أن قصيدته أو وطنه الحقيقي لم يحج إليه بعد ولهذا فإنني لم أهاجر طلباً للمتعة أو للسياحة كما يعتقد البعض لقد كنت أواجه الشاشة البيضاء في كل المدن التي زرتها وكنت أتردد على المقاهي ومحطات القطارات والطائرات لكي أنتظر الذي يأتي ولا يأتي، ولكنني بقيت أمارس هذا الفعل الإنساني بإصرار لأنني أعتقد أنه سيأتي ذات يوم لكنني لن أراه، هكذا هو قدر الشاعر ومن هنا جاءت مأساة المتنبي (على قلق كأن الريح تحتي) فالذي قال هذا البيت هو المتنبي الحقيقي الشاعر والإنسان وليس الذي وقف على أبواب الحكام والأمراء فالذي وقف هناك هو حذاء المتنبي لأنه كان يترك حذاءه دائماً هناك ويرحل مع الريح. لقد شعرت بخيبات أمل كثيرة، وكنت أرى أن البؤس الإنساني أو الليل في كل مكان وإن اختلفت أقنعة هذا الليل، وكنت أحس أن العالم يقع في ثنائية خطيرة على حساب الفقراء والمستضعفين وإن ثورات الفقراء يسرقها السياسيون المحترفون، لقد كنت في حوار داخلي وكنت أبحث عن الحقيقة، وكما يقولون فقد كنت أبحث عن المنقذ من الضلال ليس بالنسبة لضلالي فضلال الشاعر مفيد له، لأنه يضعه في أرض خرافية، لا يتاح لكل الناس الوقوف فيها، وقد أثبتت أحداث نهاية القرن العشرين ما كنت أحس به وأتحدث إلى أصدقائي (في سنوات بعيدة) حيث كان البعض منهم يصاب بالدهشة عندما كنت أقول ما أقول وأؤكد هنا أن التمرد قد ولد في داخلي مع صرختي الأولى وأنا في يد القابلة..؟ أرعبني النور الذي صدم عيني لأول مرة وأنا أخرج من جوف ظلام العصور الطويلة، حيث مشاهد البؤس (بؤس الطبيعة والإنسان والحيوان)، بؤس التاريخ الذي سحقته مطارق الغزاة.

من جهة أخرى استطيع القول إن تجربتي الثقافية والروحية أدت بي إلى عدم تعصبي لأي اتجاه شعري وعدم التوقف عند أية مدرسة من مدارس الشعر. وقد التقيت مع أبطال الأساطير والتاريخ، الأحياء منهم

والأموات، في مفترق طرقات العالم المختلفة. وقد تقبلتهم كلهم، الصوفي والعاشق والمحارب والثائر والمفكر، تقبلتهم بشكل وجودي، باحثاً عن لباب الثقافة الحية في تجربتهم. ولعل السبب في ذلك أنني أنا نفسي أعيش شعري وثقافتي بشكل وجودي، أي دون شروط ولا مقدمات.

فمن الناحية الأيديولوجية، أنا تقدمي دون شرط أن أكون ماركسياً، ومسلم عربي دون شرط أن أكون سلفياً.

الأيديولوجيا لا تفرض علي شروطها وكذلك الفقهاء. في رأيي أن الفنان مع حركة الإبداع التاريخي والفني ومع كل ما يصب في حركة الإبداع هذه، فهو لا يقف بين قوسي ضد أو مع اللذين يشيع استعمالهما في الحياة الثقافية العربية - أحمر/ أخضر، أسود/ أبيض، تصنيفات لا تهمني المستقبل سيطرح شروطاً إنسانية جديدة. كما أنه يمكن الاستفادة بالمعرفة الإنسانية والاستعانة بخبرات الشعوب دون الوقوع في القيود والأغلال لهذه المعرفة أو تلك، أي يمكن الاستفادة من إنجازات الفكر الإنساني دون التحجر في الثوابت التي وصل إليها.

العرب كأمة مطالبون بالإبداع في سياق الإبداع الإنساني الحضاري دون أن يكونوا تابعين ولا مستهلكين ودون أن يحبسوا أنفسهم في أقفاص النظريات والأيديولوجيات التي تؤدي دورها وتنسحب من المسرح لتحل أخرى محلها أي أن هناك عملية ثورة في الثورة، كما أن هناك عملية إبداع في الإبداع ضمن كل الاجتهادات الإنسانية.

وفي هذا الصدد أرى أن التراث يسعف إسعافا كبيراً في تمثيل الحداثة، فالتقارب بين الشعر الصوفي والسريالي جعل الشعر يكمل بعضه بعضاً.

ما كان ينقص المتصوفة المسلمين - الشعراء بخاصة - هو الرؤية السريالية للعالم. ولهذا تجد في شعرهم صراعاً بين الخضوع للموروث التقليدي والخروج عليه في كثير من الصور والمعاني أما من حيث العطاء

فالطريف أن الحركتين متعاكستان، إذ إن كشوفات السريالية النظرية أكبر من إبداعاتها الشعرية.

لقد قادتني التجربة إلى التشخيص في الشعر، عملية السفر خلال الكلمات هي التي قادتني إلى كل التقنيات الفنية دون وضعها في الحسبان منذ البداية. في لحظة ما تم التطابق بيني وبين الحلاج في شكل خطير جداً، فلم أجد بداً من كتابة القصيدة بهذا الشكل.

إن التنقلات من مدرسة إلى مدرسة ومن مذهب إلى آخر تعود إلى خصوبة حياتي وأسفاري.

ثقافتي متنوعة وموسوعية ولا تقتصر على الأدب والشعر فحسب، أيضاً لدي خواص ذاتية، فأنا لا أعيش الشعر أثناء كتابة القصيدة فقط بل أعيشه خلال حياتي اليومية فهي مليئة بالتأمل والتفكير، ليس لدي حياة اجتماعية تشغلني عن وظيفة الشاعر. عندي شعور بالحرية هائل لا مثيل له، ثمة تطابق بين عالمي الجواني والبراني دون اختلاف ولا تناقض.

أعبر عن آرائي وأفكاري بحرية كاملة ولا أجد أية عوائق تعوقني، لا يوجد شرطي صغير في رأسي على الإطلاق. أبتعد عن كل ما يؤثر على حياتي كشاعر، أحاول حماية مملكة الشاعر وحراستها بدقة بعيداً عن أعين الفضوليين والطفيليين، كما أن هناك تطابقاً بين سلوكي الاجتماعي في الحياة اليومية وبين سلوكي كشاعر يطرح رؤية.

أما عن المنفي، تلك المفردة التي أهينت كثيرا هذه الأيام فأود القول بأنني كنت قد كتبت في قصيدة لي عنوانها (مدارات شرقية على لسان نهر الخابور: «إن المنفى أصبح وطناً»، وقلت في قصيدة نشرت في ديوان (مملكة السنبلة)، (العالم منفي في داخل منفي والناس رهائن) كان ذلك شعوري منذ أن وعيت هذه الدنيا، ذلك لأن الشرط الإنساني لم يتحقق، وكذلك الأمر بالنسبة للعدالة والديمقراطية، وهكذا أرى شعوب الأرض

كلها منفية داخل أوطانها، وهؤلاء المنفيون في أوطانهم يضمهم منفى آخر هو هذا الكون، ومن ثم فإن السفر داخل المنفى الصغير أو الكبير يعتبر نوعاً من الترف والنزهة ليس في حدائق الآلهة، بل في صحاري التعاسة.

لقد أطبق السياسيون المحترفون، والقتلة والطغاة والغزاة على العالم منذ فجر الإنسانية الأولى، ولا يزالون يمارسون لعبتهم، ونحن نعيش تحت وصايتهم، وبنادقهم، ورحمتهم ـ أحياناً ـ المشكوك فيها، ولقد قال الإمام علي: إن أشد أنواع النفي هو أن تكون منفياً في عقر دارك، أو وطنك وأنت فقير. وكان ذلك أول سهم أشار إلى النفي في أدبنا العربي، بالرغم من منفى طرفة بن العبدالذي سبقه، وهو منفى القبيلة أو الطائفة.

إن وحدانية الإنسان في هذا العالم، وتركه معرضاً للشقاء الأبدي دون أن يختار اسمه، أو لونه، أو جنسيته، ذلك هو ألف باء النفي، فما بالك بياء النفي؟!

لقد رأيت الصورة الكلية للشقاء الإنساني بعد أن كنت لا أرى إلا الجزء الصغير من هذا الشقاء، كما أنني نعمت ببعض السعادة الهاربة، وببعض الحب والفهم، وكنت أعود ويدي مبللة بالمطر أو بحفنة ثلج، أو بزهرة قطفتها من أحد جبال العالم، أو بصورة امرأة أحببتها، أو قصيدة كتبتها.. السفر أو الغربة أو المنفى عمق إحساسي بشقاء البشر وعذاباتهم وطموحاتهم، وسعادتهم المسروقة كما أنني اكتشفت جوهرة الأمل الإنساني مهما سحق وهزم وحطم فإنه يعود أقوى مما كان، وعليه فإنني لست مع رأي الشاعر العربي القديم الذي شبه الإنسان بالزجاج الذي يكسر ولا يعاد سبكه، فالإنسان ـ وهو يتقدم نحو حتفه ـ يضيف إلى عملية التجدد طاقة إنسانية جديدة، ويتحول إلى سماد إنساني في بستان المستقبل.

لقد أحسست بالنفي قبل النفي نفسه، أي أنني أحسست بأنني منفي منذ طفولتي، سواء في القرية أم في المدينة واكتشفت أن العالم ما هو إلا

منفى داخل منفى آخر، ولهذا عندما وجدت نفسي أمام النفي الحقيقي شعرت كأنما كنت أصعد درجاً معروفاً لي من قبل، أو كأنما كنت أنتقل من أرض إلى أخرى في الذاكرة، كنت أحمل المنفى في داخلي، فعندما يولد الإنسان ويعيش في ظروف استلاب اجتماعي وثقافي وسياسي.. إلخ يحس كأنه طائر أو كأنه سحاب في الظاهر، لأن هذين الكائنين يحصل كل منهما على حريته بالرحيل، ولعلي بسبب ذلك أحسست بأني أكثر حرية عندما جربت النفي في البداية، ولكني بعد ذلك وجدت نفسي محاطاً بصعوبات متراكبة وتزايدت أغلالي ولكن مع بعض اختلاف، ذلك أن مشاكل البلد الذي كنت منفياً فيه لم تكن مشاكلي، وهذا الإحساس أعطى بالطبع بعداً جديداً لتجربتي الإنسانية والشعرية.

وهنا أيضاً أود القول إن النفي الأرضي الذي عانيت منه حدث على النحو التالي: منذ طفولتي كنت أنتسب إلى أسرة متدينة، وقد أدى هذا إلى حدوث تناقض قوي بين المثالي والواقعي، بعد ذلك أحسست بتأثير الذاكرة الجماعية وبهذا وصلت إلى الإحساس بالبعد الخامس بوحدة الزمن، الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثم وجدتني أواجه الواقع بواقعية تعرف في أدب أمريكا اللاتينية باسم (الواقعية السحرية) ولولا هذا الإحساس لكان قد قضى علي بالموت في المنفى، وأنا أعتقد أن أحد أسباب ظهور هذا الاتجاه في أدب أمريكا اللاتينية هو أنه يمنح الفنانين والقراء أيضاً سلاحاً خاصاً حتى يتحملوا الحياة، وحتى يواجهوها بشجاعة وبثقة وإحباط في آن واحد بأسلحة مثالية وواقعية في وقت واحد، بالواقع وبالحلم، بالصورة وبالظل، وبذلك يكون الإحساس بالنفي الميتافيزيقي قد تكامل مع النفي الواقعي، أي أنهما لم يكونا منفصلين. يقول كارل ماركس: إذا كانت المادية هي نصف الفلسفة فإن المثالية هي نصفها الآخر، وهكذا صارت لي شخصية مهجنة، وبالتالي أكثر واقعية وعمقاً.

وهذا منحنى القوة المطلوبة، كنت أضع نفسي في الخطر ولكن بوعي، دون أن أساوم الواقع، وكنت أقبل الهزيمة وانتصار القدر، ولكني كنت أظل محتفظاً بكرامتي، وأكره الانتصار السهل، وقد عثرت على جدلية الوسائل والغايات وهذا هو ما ينقص بعض السياسيين لأنهم يريدون أن يصلوا إلى الغاية، أما الفنان فتهمه أيضاً الوسائل وبهذا فإن تجربة النفي علمتني الكثير، وبهذا أيضاً دخلت عوالم أناس قليلي العدد هم الخارجون على آلية النظام الحياتي، أريد أن أقول: كنت أحس كأني قطرة من المطر ولكني كنت داخلاً في العاصفة وفيما بعد العاصفة.

أما عائشة التي طالما شغلت مساحة واسعة من ذاكرتي، بل ومن ذاكرة الآخر فهي تطل في كل تجربة شعرية جديدة بمعنى جديد ضمن سلسلة متصلة من التحولات التي تمزج بين الواقعي والأسطوري فعائشة ليس لها قبر معين، لأنها لو كانت قد ماتت لكان لها قبر فهي ميتة وحية، حاضرة وغائبة، أو أنها لم تولد بعد، لأنها لا تزال كلمة مقدسة.. أو بعبارة أخرى في البدء كانت الكلمة.. في حياة كل إنسان مناطق ومساحات ممنوع الاقتراب منها، إذ إن الشاعر يحتفظ بها فيها بعيداً عن أعين الفضوليين والمتسائلين لأنها سر من أسراره. كما أنه يحتفظ بمفتاح هذه المناطق المحببة لكي يورثها لمن بعده قبل موته بقليل، فهناك وصايا وأسرار كثيرة لا يبوح بها، لأنها سر من أسرار قوته.

أحياناً يلمح ويشير، إذا اقتضى مقتضى الحال، وبصورة أدق فإن الشاعر ليس فيلسوفاً مهمته الوصول إلى النواة الكهربية التي تمنح هذا الكون قوته، فهو الشاعر يستخدم هذه القوة أو النواة الكهربية من دون أن يبوح بسرها، مثله مثل الساحر الذي يخرج الكلمات أكمامه من دون أن يقول لنا كيف، ولماذا. ولكننا أحياناً، ونحن نراقب حركاته نكتشف بعض أسرار سحره.

هناك تفسير جانبي قدمته مثلاً ذات مرة عندما سألني مستمع

السؤال نفسه فقلت له: إنك لو قرأت قصيدة (بستان عائشة) لاكتشفت مثلاً أن بستان عائشة يقع بين (مدائن صالح) وأعالي الفرات حتى نهر الخابور، واكتشفت أن هذه الأرض التي تسمى بالهلال الخصيب هي وطن عائشة، وهي المنطقة التي كانت حاضنة للاختمار الروحي للعرب قبل ظهور الإسلام، وأن العرب في اندفاعهم لأعالي الفرات قد حجوا إلى الخابور ليكتشفوا بستان عائشة الذي كان أيضاً مدينة مسحورة. كان عرب الشمال هؤلاء يحجون إلى هذا النهر أو إلى هذه المدينة المسحورة كل عام في فصل الربيع فيقدمون الأضاحي والقرابين. للنهر. لكي تفتح لهم أبواب المدينة المسحورة دون جدوى، وكانوا يدورون، ويدورون بحثاً عن بواباتها، وينتظرون دون جدوى، فيعودون إلى حلب ليبكوا وينتظروا ألف عام لكي يحجوا إلى مدينتهم المسحورة. هذه هي ملامح سحر مكان عائشة ووطنها، أما ملامح الأنوثة التي تقترب من ملامح الأنثى التي نصفها صبية ونصفها امرأة لأنها في منتصف ربيعها، فقد مر ذكر كثير لملامحها الأرضية، كما هي في الواقع، أي صورة واقعية لها تقترب من صورتها الواقعية وتبتعد عنها في هالات النور المنبعثة من أزمنة مختلفة، لأن وجهها في المرآة ليس وجهاً واحداً، فالموت وحده هو الذي يعطي الوجه حقيقته في المرآة.

أما بالنسبة للشعر فلست أريد أن أضع تعريفاً له ولست أهدف إلى تحديد مكان له في العالم ولا من عصرنا وإنما الشيء الذي أريده هو تحديد مكانه من نفسي فحينما بدأت أعالج الكلمة محاولاً بها أن أعبر عن انفعالي بالعالم لم يكن الشعر هو أول ما حاولته من أشكال الكتابة ولكن شيئاً ما كان يلح في طلب التعبير عنه، شيئاً كان يجول في نفسي، كنت قادماً من الريف حيث عشت فيه وعدت إليه حتى عام ١٩٤٧ وهو عام دخولي دار المعلمين العليا وكانت الصدمة الأولى حين اكتشفت حقيقة المدينة، كانت مدينة مزيفة قامت بالصدفة وفرضت علينا وكما كانت

المدينة شبيهة بالمهرج. كان جيلنا المتسول الذي استعار ثياباً وأزياء من كل عصر حتى فقد شخصيته وصوته الحقيقي. في هذه الفترة وقبلها بقليل كنت كمن يبحث عن الشكل الملائم للتعبير عن نفسه واكتشفت أن التعبير الشعري أقرب إليّ من أي شكل آخر ولم يكن غير الشعر قادراً على إشباع رغبتي في التعبير بالكلمة وإني وإن كنت لا أؤمن بإمكان ولادة الشاعر وفي يده القيثارة، وإنما يمكن أن يولد في قلب ذلك الإنسان الذي لا يتم التوافق بين عالمه الداخلي والعالم الخارجي. إن التناقض الذي يمكن أن يقوم حينئذ يولد عدداً من الأحاسيس غير المصنوعة وغير القابلة للتغير. وفي اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان تناقضه مع العالم الخارجي يبدأ في التمرد عليه. ومثلما يبحث النهر الدفين عن المكان المناسب الذي يمكن أن ينبع منه يبدأ الشاعر الموعود في محاولة اكتشاف نفسه. إن المهم هنا إنما هو نقطة البداية. إن البدء في محاولة فهم العالم ومحاولة تفسيره ودفعه إلى خارج نطاق النصائح والتعاليم والتربية، ومحاولة التمرد عليها ومناقشتها وخلق نوع من الحوار الصامت حولها، كل هذا يلعب دوراً في صنع عالم الشاعر القادم.

ثم بدأ تعاملي مع الكتب والقراءة كمسافر في قطار لا يعرف المدينة التي سيهبط فيها. لقد كان التاريخ هو النوع الذي أحبه من القراءة، ولم أقرأه كركام من الوقائع أو الأحداث، وإنما كتجربة إنسانية واسعة ومتعددة الجنبات، وكتجسيد لقضايا الإنسان التي طرحت على كل المجتمعات الإنسانية الماضية، كذلك كانت الآثار واللقى التي ذابت صورها في نفسي، البقية الباقية على سطح الكوكب من كل هذه التجارب التي خاضها الإنسان واختفى كما تختفي أشباح الليل.

حينما كنت أقف أمام كوب قديم أو قطعة عملة أثرية أو تصوير باهت الألوان، كان يجتاحني إحساس من انعدام الصلة بالعالم الخارجي، وأروح أفتش عن هذه الآثار في نفسي، ماذا بقي فيها لدي؟. كل هذه

الأشياء القديمة تركها أصحابها ومضوا كانت هي الصورة الحية لعمق الزمن، والشيء الوحيد الباقي من حياة الناس الذين عاشوا في زمن ما . إن الفن وحده عصارة تجربة الإنسان هو ما يتركه الناس بعد حياتهم، لقد كان البحث عن الشكل الشعري الذي لم أجده في شعرنا القديم، وكان التمرد الميتافيزيقي على الواقع، دون وضع بديل له، والأشواق التي لا حصر لها، والتطلع إلى عالم تسقط فيه كل الأسوار بعيداً عن الشعارات التي استهلكت، كان هذا البحث هو ما أدى إلى اكتشاف الواقع المزري الذي تعيشه الجماهير وإلى اكتشاف بؤسها المفزع. وهنا كان لابد من ضمور الباعث الميتافيزيقي في نفسي ونمو الواقع الاجتماعي والسياسي، وكان هذا النمو انعكاساً وتفاعلاً مع ما حدث في المجتمع العربي ذاته من تحول إلى الثورة الإيجابية نفسها، كنت أشعر في ذلك الوقت بأنني أكتب مدافعاً عن الحرية والعدالة للجماهير البائسة لا لنفسي كنت أفهم الالتزام على أن الفنان مطالب في أعماق أعماقه أن يحترق مع الآخرين عندما يراهم يحترقون، أما الوقوف على الضفة الأخرى والاستغراق في الصلاة الكهنوتية فليس هذا من صفات الفنان الحقيقي في أي عصر من العصور.

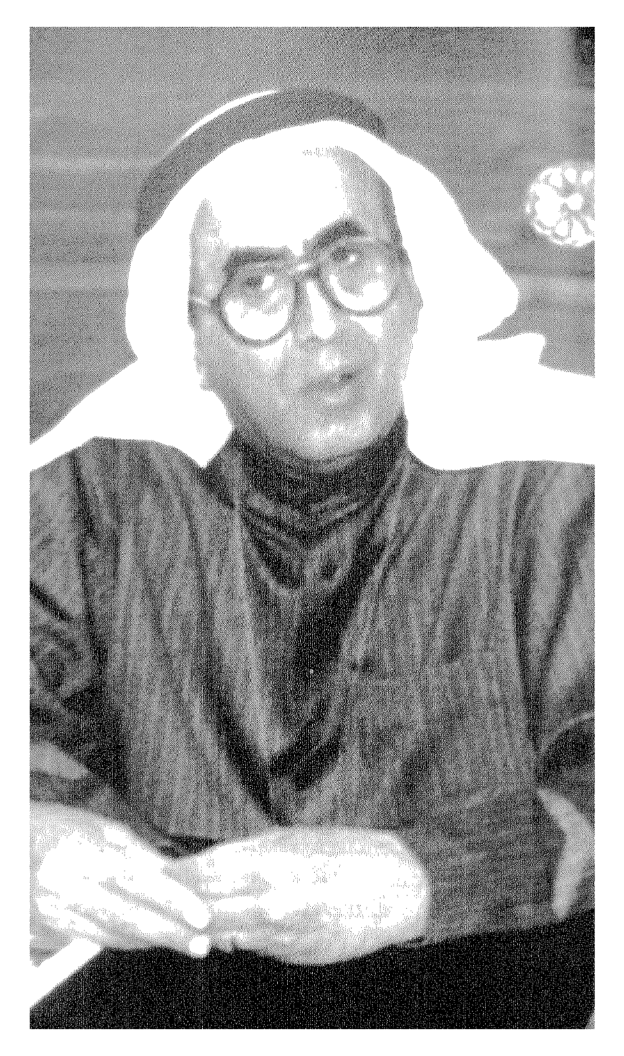
---

* العربي - العدد ٤٧٢ - مارس ١٩٩٨م.

ذاكـــرة العـــطـــاء ورحـــلـــة الإنـــمـــاء *

هل تصفح الذاكرة ينحصر في جزئيات الخصوصية الذاتية بكل أبعادها، أو يتجاوزها لتقصي مضامين عامة تهم الجميع في سياق شمولي أوسع؟ سؤال طرحته على نفسي منذ دعيت للكتابة في زاوية «مرفأ الذاكرة»، وأجد أن المدخل إلى مقاربة مثل هذا السؤال، هو الحديث عن شقه الثاني، لأن فيه فاتحة للحياة العامة، ويمكن به استيحاء الدروس والعبر الكثيرة اللازمة للأجيال العربية الحالية والقادمة لزيادة معرفتها بكل ما تختزنه الذاكرة الجماعية.

وهذا ما يبرر لنا استحضار لمحات تختزنها الذاكرة حول مسيرة متميزة لصندوقين إنمائيين هما الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية، والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، اللذان شاءت الأقدار أن أقضي معظم حياتي المهنية فيهما، وأن أتابع نشأتهما وصعودهما، وبفضل الخبرة المباشرة أتمكن من الحديث عنهما في



«مرفأ الذاكرة» فهما من أهم قنوات العمل العربي المشترك، وعلى الأخص في مجال العون الإنمائي المؤسسي، وقد تصاعد تأثير فعلهما الإقليمي على امتداد العقود السابقة في تعبئة الموارد العامة لتمويل المشاريع التنموية في جميع القطاعات الاقتصادية، وفي تقديم المشورة والخبرة للدول المستفيدة.

لقد تعزز عمل هذين الصندوقين لكون العون المقدم منهما منزهاً عن أي استغلال، ولا يرتبط بأي شروط تجارية أو سياسية بأي شكل كان، ولا يشكل أي تهديد للدول المتلقية، فلا تخشى هذه الدول ضغوطاً سياسية لاتباع أو تبني موقف سياسي محدد ولا هيمنة محتملة، إضافة إلى أن قروضهما تتسم بشروط أكثر يسراً من مصادر التمويل الدولية، ويتمثل هذا اليسر في انخفاض سعر الفائدة وطول فترتي السماح والسداد، الأمر الذي ينعكس إيجابا على نسبة عنصر المنح، الذي يرتفع في العون المقدم من الصندوق الكويتي والصندوق العربي لاشتماله على معدلات من الهبات والمنح التي تميزت بالاستقرار طيلة السنوات السابقة، إذ تراوحت في المتوسط بين ٤٣٪ و٤٥٪ على عكس العون المقدم من الدول المانحة المتقدمة اقتصادياً، الذي يرتبط بشروط مجحفة بحق الدول النامية، إذ تميل هذه الدول إلى فرض قيود على اختيارات الدول المتلقية في أشكال عدة تتضمن شكل المساعدة وتوقيتها وطرق إنفاقها.

يضاف إلى هذا أن قروض الصندوقين، توفر قدراً كبيراً من حرية الاختيار في أوجه استخدام أموال القروض التي تقدمها، حيث تتبع مبدأ المنافسة الدولية عند التعاقد مع المقاولين والموردين والاستشاريين، وبهذا يختلف العون المقدم منهما عن معظم المعونات التي تقدمها الدول المتقدمة اقتصادياً، التي تجبر الدول المستفيدة على شراء منتجاتها وخدماتها بالأسعار والمواصفات المتوافرة في أسواقها.

والشيء اللافت للنظر أن أعمال هذين الصندوقين تتلاقى وتتضافر وتتقارب وتتخذ لها مسالك متشابهة تنعكس في علاقات وروابط متعددة لا تقتصر على التعاون الذي يجمعهما في إطار مجموعة التنسيق مع بقية الصناديق العربية الوطنية منها والإقليمية، وما يقومان به من تمويل مشترك في إطار هذه المجموعة، بل تمتد لتشمل أمرين أساسيين، يتصل أولهما بكون دولة الكويت هي المقر الرسمي لكل منهما، إضافة إلى دورها في تأسيسهما ولا سيما دعوتها التي وجهتها للدول العربية في عام ١٩٦٧، لإنشاء مؤسسة إنمائية عربية، تجسدت في النهاية بإنشاء الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، ويتصل الأمر الثاني بقيام الصندوق الكويتي بكل إجراءات تأسيس الصندوق العربي عند إنشائه، وصياغة عدد من أنظمته الأساسية، وتولي إدارة رأسماله، واستكمال تلك الإجراءات وتكوين مجلس إدارته كي يتولى أعماله.

وقد سعت دولة الكويت منذ نيل استقلالها الكامل في عام ١٩٦١ للمشاركة في جهود التنمية الاقتصادية العربية، انطلاقا من إيمانها بضرورة التعاون العربي، وتحقيقا لذلك سارعت في ١٩٦٢/١٢/٣١ إلى إنشاء الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية، كأول جهاز مؤسسي عربي للعون الإنمائي، عبرت بإنشائه عن انتمائها القومي بأمتها، وإحساسها بالمصير الواحد مع الدول العربية، ورغبتها الأكيدة في توثيق الروابط الاقتصادية معها، وتدعيمها وجعلها إحدى ركائزها الأساسية لما فيه خير هذه الدول قاطبة وصلاح اقتصاداتها .

لهذا لم يكن إنشاؤه ـ كما أشار إلى ذلك تقريره السنوي الأول ـ «وليد ظرف عابر ينتهي بانتهائه، إنما هو تعبير مجسم لشعور حقيقي فياض لدور الكويت في المساهمة في دفع عجلة التقدم في الدول العربية»، في وقت كانت فيه تلك الدول بأمس الحاجة إلى هذه

المساعدات، فقد شهد اقتصادها خلال سنوات العقد الخامس، وبداية العقد السادس من القرن الماضي معدلات نمو وتطور متواضعة، وعانت من مشاكل هيكلية عميقة الجذور، ومن صعوبات في الحصول على الموارد المالية الإضافية من مؤسسات التمويل الدولية.

على الرغم من بداية الصندوق الكويتي المتواضعة عند إنشائه، فإننا على قناعة بأن مساعداته مع محدوديتها في سنيه الأولى قد ساعدت على زيادة موجودات البلدان المقترضة من العملات الأجنبية، إما مباشرة، أو عن طريق رفع القدرة التنافسية لصادراتها، إضافة إلى مساعدتها في تخفيض العجز في ميزان مدفوعاتها، وتمكينها من خدمة ديونها الخارجية وتسديد أقساطها، ولا أريد أن أرهق القارىء بتفاصيل البدايات الأولى لمسيرة الصندوق، فلدينا منها الكثير، وأكتفي فقط بالقول إن السودان قد كان أول بلد طلب قرضاً لتمويل مشروع لسككه الحديدية وتحسينها بمبلغ ٧ ملايين دينار كويتي، تم توقيع اتفاقيته في عام ١٩٦٢ بعد أقل من ثلاثة شهور من تأسيس الصندوق الكويتي، في وقت لم يكن قد استكمل جهازيه الفني والإداري.

وكان الأردن البلد الثاني الذي تلقى قرضا في عام ١٩٦٢ بلغت قيمته نحو ٧,٥ مليون دينار كويتي لتمويل ثلاثة مشاريع هي مشروع نهر اليرموك للري والطاقة الكهرومائية، ومشروع الفوسفات، ومشاريع مؤسسة الإنماء الصناعي.

وخلال العام الثالث قدم الصندوق الكويتي قروضاً لثلاث دول عربية أخرى، هي تونس والجزائر ومصر، حيث قدم عام ٦٢ قرضاً لتونس بلغت قيمته نحو ٤ ملايين دينار كويتي لتحديث محطة كهرباء حلق الوادي لتوليد الكهرباء قرب تونس العاصمة، وقرضا آخر بقيمة مليوني دينار كويتي لمشروع إحياء وادي مجردة للري واستصلاح

الأراضي، كما قدم قرضاً للجزائر بتاريخ عام ١٩٦٤ بلغت قيمته ٥,٧ مليون دينار كويتي لتمويل خط أنابيب النفط بين حقل حاسي مسعود في الصحراء إلى ميناء ارزو على ساحل البحر المتوسط، وقرضاً لمصر بتاريخ عام ١٩٦٤ بلغت قيمته ٨,٩ مليون دينار كويتي لتمويل مشروع توسيع قناة السويس وتحسينها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تلك المشاريع في الدول السابق ذكرها قد كانت مهمة لأنها استهدفت دعم استقلال هذه الدول من الضغط السياسي الذي كانت تواجهه من الدول المستعمرة لها سابقا، أو من مؤسسات التمويل الدولية، كل ذلك في السنوات الأولى للاستقلال.

وبنهاية عام ١٩٦٥ بلغت إجمالي قيمة القروض التي قدمها الصندوق الكويتي نحو ٣٨ مليون دينار كويتي، وبعد ذلك توسعت عملياته بتسارع كبير وامتدت أنشطته في النصف الثاني من عقد الستينيات إلى المغرب ولبنان وسوريا، وازداد تعامله مع الحكومات العربية على قدم المساواة بغض النظر عن أنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ومع نهاية عام ١٩٧١ كان الصندوق قد قدم تسعة عشر قرضاً بلغت قيمتها ٦, ٧١ مليون دينار كويتي، وكانت له أنشطة في تسع دول عربية.

مع توسع أعماله، سرعان ما زاد اجتذاب الصندوق الكويتي للخبراء العرب المتميزين للعمل فيه دون غيرهم من شتى الاختصاصات، لأن قرار مجلس الإدارة كان واضحا بأن يدار بكفاءات عربية لبناء جهاز فني يمكنه بالإضافة إلى مد الدول المستفيدة بالمساعدات المالية، التعاون معها في جميع الأمور الفنية والاقتصادية والمالية والقانونية المتعلقة بتنفيذ مشروعاتها، وتقديم النصح والمشورة لها في مختلف المراحل التي تمر بها من مرحلة تحديدها، وإعدادها، وتقييمها، وذلك حرصا منه على تحقيق أكبر قدر ممكن من المنافع

المرجوة من المشروعات التي يسهم الصندوق في تمويلها.

ولعله من المناسب في هذا المجال الإشارة إلى أن عدداً كبيراً من هؤلاء الخبراء قد تولوا فيما بعد مناصب ومسئوليات كبيرة في بلادهم، حيث خدم الكثيرون منهم في مناصب وزارية، وحتى رئاسة حكومات عربية.

وحين نرجع البصر في حيثيات العقد الأول من مسيرة الصندوق الكويتي، نجد أن مساهماته في الدول العربية في هذه المرحلة لم تنحصر في تقديم القروض فحسب، بل امتدت لتشمل أيضا تقديم منح وجهت لتنمية الموارد البشرية، والأجهزة المؤسسية، قدم الصندوق أول منحة منها لليمن في منتصف الستينيات من أجل تمويل مسح اقتصادي بكل ما يعكسه من حيثيات تتصل بمجمل المقومات الاقتصادية اليمنية، وإمكاناتها، وأسسها الارتكازية، وتحديد لأولوياتها القطاعية والإنمائية.

كما قدم الصندوق الكويتي في تلك المرحلة لأغراض المعونة الفنية، منحة قدمت إلى مشروع التنمية الحيوانية في اليمن، وتمويل دراسة حول تصنيع الأعلاف من مسحوق الأسماك في اليمن الجنوبي، ومنحة لتمويل دراسة قطاع أولويات النقل في السودان، ومنحة أخرى قدمت لليمن في أوائل السبعينيات لبناء مؤسسة قادرة على توجيه التخطيط الاقتصادي والاجتماعي للبلاد التي كانت ترزح تحت سيطرة نظام متخلف لم يرغب في مسايرة العصر، وقد أسهمت هذه المعونة في استحداث هيئة تخطيط مركزية، أنيطت بها مهمة تنسيق التنمية الاقتصادية، كما غطت هذه المنحة نفقة تدريب عدد من أبناء اليمن لاكتساب مهارات في مجال التنمية.

بحلول عام ١٩٧٤، وفي أعقاب تصحيح أسعار النفط وارتفاعها بمقدار أربعة أمثال عما كانت عليه من قبل، أتيح للصندوق الكويتي

زيادة رأسماله وتوسيع أنشطته خارج الدول العربية لمساعدة الدول النامية الأخرى، التي اشتدت معاناتها كثيرا في عقد السبعينيات، بسبب المشاكل الاقتصادية الكثيرة التي خيمت على مفاصل اقتصاداتها، بما فيها مشاكل خدمة الدين، والفقر الذي ضرب جذوره عميقا في كثير من تلك الدول وبخاصة في إفريقيا جنوب الصحراء وغيرها من المناطق الأخرى.

هكذا مر الصندوق الكويتي من حيث انتشار نشاطه جغرافيا بمرحلتين متكاملتين لبعضهما البعض، اقتصرت عملياته في المرحلة الأولى على الدول العربية وحدها، وامتدت من عام ١٩٦٢ وحتى أواسط عام ١٩٧٤، وقدم الصندوق خلال هذه المرحلة ٤٧ قرضا بلغت قيمتها ١٣٤ مليون دينار كويتي، استفادت منها ١٢ دولة عربية، وقد وجهت هذه القروض لتلبية احتياجات تمويل المشاريع ذات الأولوية الملحة في إطار خطط التنمية في هذه الدول، وتمتد المرحلة الثانية من مسيرة الصندوق الكويتي من أواسط عام ١٩٧٤ حتى الوقت الراهن، وقد اتسع فيها نشاطه في مجال التغطية الجغرافية بسرعة كبيرة، فخلال الفترة ما بين أواسط ١٩٧٤ وأواسط ١٩٧٥، قدم قروضا إلى عشر دول خارج الوطن العربي، خمس منها في إفريقيا وخمس في آسيا، ومنذ ذلك الوقت، والدول النامية المستفيدة من معوناته حتى النائية منها في ازدياد عاماً بعد عام، مما أدى إلى اتساع نشاطه في منتصف عام ٢٠٠٠ في ٩٦ دولة، بينها ١٦ دولة عربية، و٤٠ دولة إفريقية، و٣٠ دولة آسيوية وأوربية، و١٠ دول في أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي.

ولا يفوتني الإشارة في هذا السياق إلى أن الصندوق الكويتي قد وسع عملياته في دول أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي، بعد تحرير دولة الكويت، كما أنه وسع عملياته في بلدان الكتلة الشرقية سابقاً

في السنة المالية ١٩٩٢/١٩٩٣، كما قدم مساعداته لإريتريا التي استقلت في عام ١٩٩٣، وكان الصندوق الكويتي أول مانح أجنبي لها، إذ قدم قرضاً لها بقيمة ٥ ملايين دينار كويتي لتمويل مشروع بناء محطة كهرباء بليزا بقدرة ١٥ ميجاواط في العاصمة أسمرة.

ومن نافلة القول أن الصندوق الكويتي قد صمم منذ بدء امتداد نشاطه للدول النامية على عدم التأثر بأي محاباة سياسية أو دينية، والتقيد بمبدأ عدم الانحياز لأي دولة كانت، ويتبدى لنا صدق هذه المقولة من خلال انتشار مساعداته في دول ذات انتماءات دينية وأنظمة سياسية مختلفة، ويكفي أن نذكر على سبيل المثال أنه قدم أول قرض إنمائي للصين الشعبية عند انفتاحها على العالم الخارجي في عام ١٩٨٠، وسبق بذلك جميع مصادر التمويل الأخرى، كما أنه قدم مساعداته أيضا لفيتنام في وقت كانت الدول الغربية تقاطعها، وغير قادرة على الحصول على أي مساعدات منها، كذلك قدم مساعداته لأنغولا وزيمبابوي اللتين لم يكن مرحباً بهما في كثير من الأوساط.

بالإضافة إلى هذا اعتمد الصندوق الكويتي منذ بدء نشاطه على عدم تقييد مساعداته أو إخضاعها لأي شكل من الشروط، وتنفيذ المشاريع التي يمولها بسرعة وكفاءة لمصلحة الدول المتلقية دون أي تهديد، فلا تخشى هذه الدول ضغوطا سياسية تضم الكلمة أو تبني موقف سياسي محدد، ولا هيمنة خارجية محتملة، إضافة إلى أن المساعدات التي يقدمها الصندوق الكويتي تقدم بالعملات الصعبة التي تتسم بمحدودية توفرها في الدول النامية، وتشكل هذه المساعدات وسائل ضرورية لإتمام مشاريع إنمائية مهمة، وأدوات أساسية للتخفيف من وطأة العوائق الحقيقية التي تعرقل حركة

التنمية الاقتصادية.

وهذا ما أثبتت صحته العقود الأربعة الماضية من مسيرته التي اتسع فيها نشاطه، وتمكن خلالها من تأصيل التضامن والثقة مع كل الدول المستفيدة، ومواصلة العطاء معها عاماً بعد عام حتى في فترة الغزو العراقي الغاشم للكويت، فقد سارعت إدارة الصندوق الكويتي بعد أسبوعين من الغزو إلى اتخاذ مقر مؤقت لها في المنفى في مدينة لندن، واستطاعت من هذا المقر بالتعاون مع الدول المقترضة والمؤسسات التمويلية العربية والدولية، من إعداد ملفات لكل المشاريع الممولة بما فيها اتفاقات القروض والمراسلات الخاصة بها وتقارير المناقصات، مما مكنها من مواصلة الوفاء بالالتزامات المترتبة على الصندوق، حسب الاتفاقات الموقعة مع البلدان المقترضة، حيث بلغ حجم المبالغ المسحوبة خلال فترة الاحتلال العراقي للكويت، وفقاً لاتفاقات القروض الموقعة، (٥٠٠) مليون دولار أمريكي، كما واصل الصندوق الكويتي من مقره المؤقت أداء عملياته الإنمائية، واستطاع استكمال كافة الإجراءات اللازمة لعقد أحد عشر قرضاً، ووقع سبع اتفاقات قروض لتمويل تنفيذ مشاريع جديدة وواصل العاملون في الصندوق السفر في بعثات تقييمية على نطاق واسع، لدراسة مشاريع مقترحة، ومتابعة اتفاقات سارية.

وقد اشتملت القروض الموقعة على ثلاثة قروض للدول العربية، وقرضين لبلدين إفريقيين، وقرضين لبلدين آسيويين، واشتملت قروض الدول العربية على قرض بقيمة (٢٠) مليون دينار كويتي لمشروع استصلاح ٤٠٠ ألف فدان من الأراضي الصحراوية في شمال سيناء، في مصر، وقرض بقيمة ٣٠ مليون دينار كويتي قدم إلى المغرب لتمويل مشروع بناء سد المجاعرة، أما بالنسبة للقرضين المقدمين إلى إفريقيا، فقد قدم أحدهما لغينيا، وبلغت قيمته ٥,٩ مليون دينار

كويتي وخصص لتمويل مشروع طريق سيريدو - نزربكوري، وقدم القرض الثاني للنيجر وبلغت قيمته ٣ ملايين دينار كويتي، وخصص لتمويل مشروع توفير مياه الشرب في القرى والأرياف، وأما الدول الآسيوية، فقد قدم للصين قرضا بقيمة ٨,٧ مليون دينار كويتي، لتمويل مشروع لرقائق الألمنيوم، وقدم لباكستان قرضا بقيمة ٦ ملايين دينار كويتي لمشروع إعادة تأهيل السكك الحديدية.

وهكذا يمكننا القول إن إنشاء الصندوق الكويتي كان مثلا رائدا لما يمكن للدول النامية أن تفعله لتزيد اعتماد بعضها على بعض علاجاً لأوضاعها، وتخفيفاً لوطأة تخلفها، وتبعيتها الاقتصادية للدول المتطورة اقتصادياً. لقد كان إنشاؤه نموذجاً استثنائياً وحيداً لجهاز تمويل له أبعاده الاقتصادية والحضارية، أسسته دولة نامية صغيرة قليلة السكان وغير صناعية، تواجه تحديات التنمية، بما في ذلك تنويع القاعدة الإنتاجية لاقتصادها، وتطوير وصيانة بناها الأساسية بما يكفل العيش الكريم لأجيالها الحالية والقادمة، وتعتمد في مواجهة أعبائها والتزاماتها المالية الداخلية والخارجية بما فيها التزاماتها في إطار العون الإنمائي الذي تقدمه على إيرادات بيع سلعة استراتيجية مآلها النضوب، وتتعرض أسعارها لتقلبات في الأسواق العالمية من الصعب التنبؤ بها مسبقاً.

من الجلي أن هذا هو الذي يفرق ما بين مساعدات الصندوق الكويتي والمساعدات التي تقدمها الدول الصناعية، فهي تمثل فوائض مالية تقدمها دولة نامية إلى دولة نامية أخرى، أي أن دولة الكويت تحول جزءا من ثروتها، إلى الدول المتلقية، بينما العكس بالنسبة للدول المتقدمة صناعياً التي تقدم مساعدتها من دخل متجدد، وتخضعها لشروط تعكس طابع التبعية والارتباط السياسي والاقتصادي بالإضافة إلى المصالح الاقتصادية، وتعود بالنفع الواضح

عليها كإتاحة فرص العمل لمقاوليها وخبرائها ومكاتبها الاستشارية أو سفنها، أو إتاحة الفرصة لشركاتها لتوريد المعدات وغيرها. مما يرفع من تكاليف المشاريع الممولة بنسبة تتراوح بين ٢٠ ـ ٣٠٪، زيادة على تكاليف اختيار البضائع والخدمات من خلال المناقصات الدولية المفتوحة، وفي المقابل يمنح الصندوق الكويتي قروضاً غير مشروطة، ولا يقتصرها على شراء البضائع والخدمات من الكويت، كما هو الحال في معظم القروض الأخرى، ويسمح لها بالحصول عليها، بما في ذلك اختيار المقاولين عن طريق المنافسة الدولية المفتوحة، متيحة للدول المتلقية الاستفادة القصوى من المساعدات باختيارها أفضل العروض المقدمة، وخفض تكاليف المشاريع وبالتالي تحقيق وفورات مالية لا يستهان بها.

وهناك فوارق أخرى كثيرة، تثبت أن للصندوق الكويتي تأثيرا كبيرا على تحسين الترتيبات التعاقدية وشروط العقد وأداء الاستشاري والمقاول، بينما في المقابل تسعى الدول الصناعية المانحة الهيمنة على مصير المشاريع بواسطة الاستشاري، وصياغة الترتيبات التعاقدية لصالحها، والتي تتنافى في كثير من الأحوال مع الأعراف التعاقدية، وشراء المعدات اللازمة في بعض الأحيان من شركاتها دون طرحها في مناقصة عامة.

ولا ريب أن الخصائص المميزة لمساعدات الصندوق الكويتي قد تأصلت في تجربته منذ سنواته الأولى، وتمكن خلالها من جذب الاهتمام الدولي لقضايا واحتياجات الدول النامية، والتأثير في حجم وتدفقات العون العالمية، واعتماده كنموذج في الدول الخليجية وبعض الدول العربية الأخرى، لإقامة مؤسسات متعددة الأطراف، أو مؤسسات وطنية، كان تجربة الصندوق الكويتي محل نظرها عند الإنشاء، وعند صياغة هياكلها ونظم إدارتها، واختيار أساليب العمل

وبدء النشاط.

وهذه المؤسسات هي: الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي «١٩٧١»، والمصرف العربي للتنمية الاقتصادية في إفريقيا «١٩٧٣»، وصندوق الأوبك للتنمية الدولية «١٩٧٥»، والبنك الإسلامي للتنمية «١٩٧٥»، ومن الصناديق الوطنية، صندوق أبوظبي للتنمية «١٩٧٤» الذي اقتصر نشاطه في البداية على الدول العربية، من ثم بدأ في عام ١٩٧٥ تقديم مساعداته للدول النامية، والصندوق السعودي للتنمية «١٩٧٥» الذي أجاز له قانون تأسيسه منذ البداية بمنح القروض للدول العربية وغيرها من الدول النامية على حد سوء، وتشكل كل هذه الصناديق منظومة مميزة في عالم اليوم لما تقدمه من قروض ميسرة ومعونات فنية على شكل منح لدعم المشاريع التنموية في مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية.

وهذا ما ينقلنا إلى القول بأننا لا نبالغ إذا عممنا أن تأثير تجربة الصندوق الكويتي في إنشاء هذه المؤسسات قد ساعد أيضا على إحداث ما يسمى بظاهرة «العون الإنمائي العربي المؤسسي» التي تبلورت في العقود الثلاثة الماضية وتمكنت من أن تحقق قدرا مرموقا من النجاح في جذب الاهتمام الدولي لقضايا واحتياجات الدول النامية، والتأثير في حجم وتدفقات العون العالمية، والاستجابة للالتزامات الدولية في مؤازرة الدول النامية بشكل لا يقل أهمية عن الجهات الدولية المانحة للعون بمعيار نسبة التدفقات، إذ تجاوزت نسبة تدفقات العون الذي تقدمه الدول العربية إلى ناتجها القومي الإجمالي نسبة ٠,٧٪ وهي النسبة المحددة من قبل الأمم المتحدة كهدف للمساعدات الإنمائية المقدمة من الدول الصناعية المتقدمة، إذ بلغ على سبيل المثال حجم المساعدات الكويتية في بعض الأحيان نسبة ٨٪ من الناتج القومي الإجمالي للكويت، وهي تفوق بأكثر من

عشر مرات النسبة التي استهدفتها الأمم المتحدة، كما بلغ المتوسط السنوي لحجم مساعدات الكويت ٤٪ طيلة الفترة الممتدة ما بين ١٩٦٢ ـ ١٩٩٩. وبلغت في عام ١٩٩٩ نحو ٢. ١٪ بالرغم من الضغوط الاقتصادية الناشئة عن انخفاض العوائد النفطية، وهي نسبة تزيد كثيراً على النسبة المقدمة من دول لجنة مساعدات التنمية «داك» الخاصة بدول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية في نفس العام، والتي بلغت ٢٣. ٠٪ من الناتج القومي لهذه الدول.

من الحقائق الخالية من أي مغالاة أن المساعدات التي تقدمها الكويت للدول الأخرى، لا تنحصر في مساعدات الصندوق الكويتي فحسب، لأن الصندوق في حقيقته ما هو إلا قناة من قنوات أخرى متعددة تتدفق من خلالها هذه المساعدات، كقناة الترتيبات الثنائية المباشرة ما بين حكومة دولة الكويت، والحكومات الأخرى العربية، وغيرها من الدول النامية، وقنوات المؤسسات الرسمية كالهيئة العامة للجنوب والخليج العربي «وزارة الخارجية»، وبيت الزكاة، وبيت التمويل الكويتي، وكذلك قنوات عدد كبير من المؤسسات الشعبية، كالهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، فضلا عن قنوات أخرى تتمثل بالمنظمات العربية والإقليمية والدولية التي تساهم فيها دولة الكويت. وتقدر المساعدات الرسمية التي تدفقت من دولة الكويت عبر كل القنوات الرسمية، بحوالي ٦٥ مليار دولار أمريكي منذ عام ١٩٦٢ وحتى الآن.

---

* العربي - العدد ٥١٣ - أغسطس ٢٠٠١م.

مرفأ الذاكرة | د. عبدالهادي التازي

ذكرى البدايات الجميلة
«العربي» هذا الصرح الشامخ *

ا

اقترحتم علي أن أقف قليلاً مع مجلة «العربي» في مرفأ الذاكرة، ورحبت باقتراحكم لأنه وجد في نفسي صداه، وحتى لو لم تقترحوه عليّ لتوسلت إليكم أن تفعلوا، لأن الموضوع يتصل بظرف ما كان أعزه عليّ وأحبه إلى قلبي! عنفوان الشباب:

فإذا تمثل في الضمير رأيته

وعليه أغصانُ الشبابِ تميد!

كانت بداية قصتي مع «العربي» بمدينة فاس (المغرب) وليس في الكويت!! وهذا أمر قد تستغربونه، ولكنه الواقع! وكان التاريخ أواخر يناير ١٩٥٨ عندما ورد علينا الأستاذ الدكتور أحمد زكي، بصفته رئيساً للوفد المصري، ليحضر المؤتمر الإقليمي الأول للجان الوطنية العربية لليونسكو، وكنت أنا ضمن أعضاء الوفد المغربي، فبهذه المناسبة وخلال اللجان التي تفرعت عن المؤتمر والتدخلات التي كانت تعرفها قاعة الاجتماعات بثانوية مولاي إدريس، وأثناء تجوالنا في دروب المدينة العتيقة، وما أدراك ما دُروب فاس! وتجوالنا كذلك في مدينة صفرو البستان الدائم، وفي المآدب التي أقيمت آنذاك تكريماً للضيوف، وعلى رأسها مأدبة الملك محمد



الخامس الذي كانت الفرحة العارمة تغمره وهو يجد نفسه بين إخوانه من ديار المشرق بعد أن كان الأمس الذاهب يحرمه من التعرف عليهم. بل ومن قراءة كتبهم بل ومن الاستماع إلى إذاعاتهم!!

هناك بفاس كانت «القمة» التي خصصها الدكتور زكي للحديث حول «العربي» كنا نستمع إليه في إمعان، وأحاول الآن أن أتفقد أسماء الحاضرين معنا وأشعر بالتأثر العميق يلفّني وأنا أذكر أن التّراب طواهم أجمعين على نحو ما سيفعله بالباقين!

مـاتَ المـداوي والمـدَاوَى، والـذي جَـلَـبَ الـدو

اء، وبَـاعَـهُ، ومَـن اشْـتَـرى!!

هناك، وبعد أن قدم لنا الدكتور مجلة «العربي» التي تعتزم الكويت إصدارها أعرب عن الرغبة في أن يجد له بالمغرب مراسلاً يكون «على شرط البخاري ومسلم» كما يقول المحدّثون! وكان المتكلم الأول في هذه «القمة» الأستاذ محمد الفاسي وزير التربية الوطنية آنذاك ورئيس المؤتمر... خاطب الدكتور زكي بقوله وهو ينظر إليّ رحمه الله: ستجد رغبتك في هذا التازي الذي يوجد بجانبك!

وتبادلنا إشارات المجاملات والمكايسات التي كانت تعبر عن نوع من التفاهم... ثم جرت أحاديث حول «العربي» لكن هذه كانت بيني وبين الدكتور، على حدة، ومع ذلك لم تتم «البيعة» إن صحّ هذا التعبير.

ونظراً للمركز الذي كان يحظى به الدكتور عند الجميع فقد كان مجلسه محبباً إلي، وكان يكفي أن أصيخ السمع لما يقول، فما يقوله جميعه حِكمة وعلم وفائدة.

ووجدتُني بعد أن رحل عنا إلى الكويت مدفوعاً للكتابة إليه مذكراً بأيام فاس، ومقدما إليه ما استجد من الأخبار الحارة، وخاصة عندما تحول الأستاذ الفاسي من الوزارة إلى رئاسة الجامعة.

وعلى إثر هذا سعدت بخطابه الأول المؤرخ يوم ١٩٥٨/٨/١٨ الذي

كان يحمل في رأسه عنوان «العربي» باللون الأحمر وقد رُسم على خريطة تمثل العالم العربي... وكتب تحت الاسم: مجلة عربية علمية أدبية فنية ثقافية عامة. صندوق البريد رقم ٧٤٨ - رقم تلفون ٣٣٧٤.

وقد تخلص الأستاذ زكي ليقول في رسالته التي أعتز بالاحتفاظ بها ضمن شخصياتي:

«... أما عن مراسلة مجلة «العربي» فأرجو أن تقبل أن تكون أنت مراسلها، وسأبذل كل الجهد لتخفيف أعبائها عنك، فأنتم - لما فيكم من صفات شخصية ممتازة ومن علو ثقافة، ومن شباب وقاد، فضلاً عن المركز الذي تشغلونه، ولما توطد بيننا من أسباب الصفاء، لكلّ هذا أنتم جديرون بأن تقوموا - عن إخلاص - بنفع هذه المجلة العربية الخالصة التي لا أرجو منها كسباً أكثر من كسب يكسبه قراؤها ...».

كلام تأثرت به وكان وراء تشجيعي على أخذ الطريق مع زميل عظيم كبير جليل القدر كالدكتور زكي.

ومن الصدفة أن يكون أول موضوع يقترح علي الدكتور الكتابة حوله هو «مسجد القرويين بمدينة فاس»، هذا المسجد الذي يعتبره الباحثون في التاريخ المغربي أنه ليس فقط مسجداً لأداء الصلوات، ولكنه جامعة علمية لو لم يمنّ الله بها على أهل المغرب... لكان ربّما يدين بدينٍ غير الإسلام ويتكلم بلغةٍ غير لغة القرآن.

وأسجل أن هذا الاختيار من «العربي»، لهذه البدايات يعبر وحده عن الهوية التي اختارتها المجلة، وكان مما زاد في اقتناعي بمصداقية «العربي» ما طلبه الدكتور من الحصول على الصور الملونة للمسجد المذكور... واستعداد المجلة لمكافأة الذين يقومون بالمساعدة على تحقيق الرغبة وتقديم الموضوع أحسن تقديم وليس مجرد تقديم!

وقد ختم الدكتور رسالته المؤرخة كما قلت، يوم ٢٨ أغسطس ١٩٥٨ بهذه العبارة الكافية في تقديم «العربي» قال: فمجلّتنا نريدها عالمية لا

تنشر إلا الممتاز.

ولم أتأخر عن جواب الأستاذ أحمد زكي فقمتُ بتحرير مقال عن «جامعة القرويين» نال تقدير الدكتور الذي كتب إليّ بذلك بتاريخ ٤ نوفمبر ١٩٥٨. وكان توقيعه هذه المرة بصفة «رئيس تحرير مجلة العربي».

ولقد نشر مقالي في العدد السادس من «العربي» في شوال ١٣٨٧ هـ بداية ١٩٥٩م، ومما استطرد ذكره هنا أن هذا الموضوع المقترح عليّ من قبل «العربي» كان طالع يمن بالنسبة إلى لأنه سيمسي هو موضوع أطروحتي فيما بعد لنيل درجة دكتوراه من جامعة الإسكندرية.

وقد صحب خطابه المذكور بمكافأة بلغت «عشرين جنيهاً استرلينياً» وهي ما هي قبل أربع وأربعين سنة!! ولقد طلب إلي أن أقوم بحجز صندوق بريد في الرباط لحساب مجلة «العربي» يكتب إليه القراء رسائلهم... ليكون عليّ أن أجمع هذه الخطابات كلّها وأرسلها برسم «العربي»... الأمر الذي تحقق حيث أصبح الصندوق يحمل رقم ٧٠١، أكْدال، الرباط!!

وقد أسعدتني الفرصة بزيارة دولة الكويت ذاتها وعينها! وكان ذلك بمناسبة انعقاد المؤتمر الرابع للأدباء العرب، هذا المؤتمر الذي لا أنسى فضله عليّ في التعرف، أكثر، على حشد حافل من رجالات العالم العربي من المحيط إلى الخليج بعد أن كنت أخذت عنه فكرة في مؤتمر اليونسكو سالف الذكر.

وصلنا الكويت يوم الخميس ١٨ ديسمبر ١٩٥٨ حيث تم تجمع الواردين، بعد وداع المطار، في نادي الموظفين حيث تتوزع الوفود على مراكز الضيافة. وهناك في النادي كانت مفاجأتي الأولى هي الوقوف على الوليد الجديد الذي سمعت عنه بفاس، هذا الوليد هو العدد الأول من مجلة «العربي»، التي وجدتها ضمن المنشورات التي تستقبل الواردين!! كانت لدي بعض الخلفيات عن هذه المجلة التي أصبحتُ مراسلاً لها بالمغرب، وقد تصفحت

بشوقٍ كبير هذا العدد الذي كان يحمل تاريخ جمادى الأولى ١٣٧٨هـ - ديسمبر ١٩٥٨م.

وقد عرفنا جميعاً ماذا يعني اتخاذ الكويت منزلاً للعربي، كلمات جميلة وازِنةٌ خاطب بها المحرر قراءه: لماذا سميت المجلة بـ «العربي»، وما هي المبادئ التي تستند إليها المجلة، والأهداف التي تتوخاها».

كلام لم نعتد التمهيد به في عمل من الأعمال الثقافية المشابهة، خطاب واضح، ونحوٌ واضح، وقلب مفتوح، وآمال موصولة، رءوس أقلام لمستقبل واعد زاخر بالعطاءات.

لقد نُقشت موضوعات هذا العدد في ذاكرتي بعد فاتحة الدكتور أحمد زكي، القومية العربية كما ينبغي أن نفهمها، بحث عن النخل والتمور مزوداً بالصور الملونة، صلاح الدين الأيوبي، التبادل بين الشرق والغرب، واعرف وطنك أيها العربي، عناوين لبحوث جادة تشدّك شداً إلى المجلة إضافة إلى العناوين الترفيهية والعلمية والشعرية، عدد سمين يحتضن كلّ الحقول التي يحتاج إليها القارئ العربي.

وأتذكّر أن «العربي» طغت على ما عرض على طاولة النادي من نشرات سجلت أسماءها في مذكراتي التي صدرت عن مطبعة حكومة الكويت.

كان في تلك النشرات «الأندلس» لسان حال أسرة طارق في ثانوية الشويخ، رسالة النفط التي تصدرها شركة نفط الكويت و«الكويت اليوم»، الجريدة الرسمية للحكومة، ثم المجتمع والشعب والفجر والعامل، إضافة إلى الجرائد الخارجية.

لقد كان مقامي بالكويت أثناء انعقاد هذا المؤتمر في الضيافة رقم ٢ حيث كان مرافقي هو الأستاذ عبدالوهاب الزواوي الذي انقطعت عني أخباره.

كان أول ما فكرت فيه زيارة أستاذنا الدكتور زكي الذي كنت معه على «شبه موعد»، زرته في بيته حوالي السادسة من يوم الجمعة ١٩ ديسمبر

قبل أن نغرق نحن مع الأدباء في الموائد والفوائد!

كان في نيتي أن أعود للضيافة حوالي الساعة الثامنة لكن ساعتين لم تكونا كافيتين مع الدكتور الذي وجدتُه يحتفظ دائماً بحيويته ونشاطه وضحكاته. لقد كان وصله حديث عن المغرب: «البلاد المباركة» بقلم الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية الذي كنت تعرفت عليه بالمغرب، كان الدكتور زكي يعتزم نشر الحديث في العدد القابل من «العربي»، ولما كان المقال يتوفر على صور من المغرب. فإن الدكتور كان يلح علي أن يعرف مطابقة الصور للتعليقات حتى لا يظهر المقال على صفة تجافي الحقيقة!

ولما كان الحديث طويلاً مع الدكتور فقد استمرت المذاكرة على مائدته الإنجليزية التي علّق عليها الدكتور بقوله وكأنه يعتذر: إن المعيشة هنا صناعية... بين يديك خير كثير ولكن هذا الخير مجلوب من جهات أخرى نائية، صُبِّر وقصَد طريقهُ إلى الكويت في علب تحتاج إلى المفتاح واللولب!

***

لقد كان الدكتور زكي يقيم في «فيلا» ممتازة على مقربة من النادي، تجاذبنا أطراف الحديث بمحضر السيدة حرمه وهي سيدة فاضلة من جنسية إنجليزية، وكان الثالث في سمرنا حفيده رشاد الذي كنت أرى الجدّ زكي يتلقف كلماته بتقدير كبير! ويعلق على تساؤلاته، حريصاً على أن يرضي استطلاعاته، كنت أشعر بأن قلبه يهفو للنظر كثيراً في حفيده، كان هو سلواه بعد العمل المتواصل في «العربي»... وهذا جانب عاطفي وتربوي في حياة الدكتور يجب أن نقف عنده..!

وأذكر أن الدكتور زكي سألني عن الدكتور طه حسين الذي قام، صيف هذا العام ١٩٥٨ بزيارة للمغرب كانت محل تعليقات ضافية وقد كنت ضمن مرافقيه أثناء هذه الزيارة.

وكنت أشم من خلال السؤال ما كان بين «الزميلين» من مراجعات كان

في صدرها ما وصلنا حول إخوان الصفا.

وقد التحق بنا بعد العشاء وعلى غير موعد الدكتور صلاح الدين المنجد الذي تناول الحديث عن ثروة المخطوطات بالمغرب مستدلاً ببعض العناوين، وأذكر أنني كنت حملت معي إلى الكويت ميكروفيلماً لعدد من المخطوطات بقصد إهدائها للمكتبة الوطنية.

وأذكر بتقدير كبير أن الدكتور زكي بما عهد فيه من تواضع العلماء ألحّ على أن يشيعني، وهنا وقع بصري في الحديقة على حبّات مما نسميه في المغرب الدلاع: أو الركي كما يعرفه أهل الخليج، لقد اعتدنا في المغرب ألا نرى هذه الفاكهة إلا في عز الصيف واليوم أراها ناضجة في الكويت يوم ١٩ ديسمبر!

وودعت أخي الدكتور زكي ولكن على موعد قابل من أجل متابعة الكلام حول «العربي» وهكذا استمر تواصلنا طوال أيام انعقاد مؤتمر الأدباء.

لقد حضر هذا المؤتمر الرابع سائر الدول العربية بوفود رسمية وغير رسمية تعبيراً منها عن تحية هذه الدول لاستقلال الكويت: حضرت جامعة الدول العربية، والمملكة الأردنية، والبحرين، وتونس، والجزائر، وإمارة دبي، وجمهورية السودان، والجمهورية العراقية، والمملكة العربية السعودية، والجمهورية العربية المتحدة، وفلسطين، وإمارة قطر، والجمهورية اللبنانية، والمملكة الليبية، وعمان، والمملكة المغربية، والمملكة المتوكلية اليمنية، والجنوب العربي، والكويت.

تسع عشرة رايةً كانت تخفق على أعالي البناية التي تحتضن اللقاء: نادي المعلمين، لقد كنت أعيش ببصري وسمعي مع كلّ ما يجري من حوالي في زيارتي الأولى هذه للديار الشرقية.

لقد حضرتُ المهرجان الرياضي الذي أقيم بهذه المناسبة يوم الجمعة ٢٦ ديسمبر ١٩٥٨ حيث حررت خطاباً إلى زوجتي أقول فيه بالحرف:

«... وإذا كنتِ تريدين أن تتكهني عن مستقبل الكويت فيكفي أن تكوني من الذين حضروا المهرجان الرياضي الذي نظم بعد ظهر هذا اليوم في ملعب ثانوية الشويخ التي تعتبر جامعة بكل ما تحمله كلمة الجامعة من معنى، مهرجان حضره ثلاثة آلاف وثلاثمائة وأربعة تلاميذ وتلميذات (٣٣٠٤).

ولو رأيت الفتيات اللاتي اعتدن أن يشاهدن أمهاتهن في العبايا السود، لو رأيتهن بالشّورْت والقمصان ذات الأكمام القصيرة لآمنت بما ينتظر الفتاة بالخصوص من تطور، إن شعار هذه الأمة دائماً إلى الأمام».

في كل منعطف كان عَلَم الكويت يرفرف، وحتى على السيارات التي تُقلنا من الضيافة إلى مختلف الجهات، العلم الأحمر يتوسطه اسم الكويت باللون الأبيض.

لقد كان من أبرز ما أثار انتباهي ممّا كان الدكتور زكي حكاه لي: إنك لا تجد أثراً هنا في الكويت للمتسولين، فالدولة ملتفتة إلى ذوي الحاجة ترعاهم في دور الرعاية، ولذلك، فإنه لا أثر للمتسكعين ولا للمحتاجين حتى يوم الجمعة على أبواب المسجد!! وتلك إشارة لها دلالاتها الكبرى لا يسوغ لي أن أمر عليها مرور الكرام!

لقد ظل الدكتور زكي دليلي الصادق في تعرّفي على الكويت ورجالها الأمر الذي جعلني آخذ فكرة جيدة عن الآفاق الواعدة التي تنتظر البلاد، وكان مما أثار انتباهي ثلة من الطلاب المغاربة الذين وجدوا في الكويت ملاذهم منذ هذا التاريخ، وهم يقولون إن طلبة الكويت أسعد طلبة على وجه الدنيا. تعرفت على السيد الإدريسي الذي كان من طلبتي بجامعة فاس أيام كنت مقيماً بها، كما عرفت منهم السيد المؤمن من القصر الكبير، ومصطفى الصباغ من تطوان إلى آخرين غابت عني أسماؤهم.

كما كان مما لفت نظري كذلك وجود عدد من التجار هنا من أصلٍ مغربي، من الريف وللشمال المغربي ينعمون بصيت طيب وذكر جميل،

ظلّوا على اتصال بنا ودعونا إلى بيوتهم، ومن هؤلاء من ذهب إلى إمارة دبي، وأصبح قاضياً هناك بحكم مذهب الإمام مالك، شأن المعروف بالمغرب.وقد ادخرت لي الأقدار أن أتعرف فيما بعد، عام ١٩٧٠ على ابنته وهي سيدة فضلى كانت زوجة للسيد أحمد سلطان سليم. كنت سفيراً لبلادي ببغداد وعهد إليّ بمهمة خاصة في الإمارات.

وفي مؤتمر الأدباء بالكويت هذا طرح اقتراح إنشاء نادي ابن بطوطة للتعارف، فقد أدرك الأدباء أنهم بحاجة إلى ما يربط وشائجهم أكثر ولم يجدوا غير اسم ابن بطوطة شعاراً لهذا التعارف!

فهل كانت تلك آخر صلةٍ لي بالدكتور زكي؟

لقد كنتُ على موعد معه صباح الخميس ٢٥ ديسمبر ١٩٥٨ وهذه المرة بدائرة المطبوعات التي يرأسها الشيخ صباح الأحمد الصباح الذي أصبح من أعز أصدقائي... وتعتبر هذه الدائرة من أحدث الإدارات التي تُعنى بما يقدم للشعب الكويتي مما يغذي معلوماته، فهنا تطبع الجرائد والمجلات والكتب والمحاضرات، وتحتل مجلة «العربي» هنا جانباً مهماً في الدائرة بما تحتوي عليه من مكاتب ومحررين وفنيين. ولا أحتاج مرة أخرى إلى أن أتحدث عن الدكتور أحمد زكي الذي كان محل احترام وتقدير ودّ كذلك من الجميع، ولذلك، فإن مكتبه بالدائرة يظل اليوم كله كعبة الزوار الواردين من جلّ جهات العالم العربي. ومن أولئك الذين كانوا يلازمونه صباح مساء ممن تعرفت عليهم عن كثب الأستاذ الدكتور محمود السمرة، والأستاذ أحمد السقاف اللذان كانا ينعمان بقوة في النشاط ودأب على العمل. وبهذه المناسبة أخذت لنا صورة تذكارية نشرت فيما بعد بمناسبة مرور ربع قرن على ظهور «العربي»، عدد يناير ١٩٨٤.

وأذكر في المشروبات الشّتوية التي قدمها لنا الأستاذ زكي شراب القرفة: ما نسميه بالمغرب (دارصين) وهو مما يقدم بالمشرق للضيوف، تطبخ أعواد القرفة طبخاً، ثم تضاف إليها أقراص من السكر حسب الرغبة.

وقد تجددتْ مرة أخرى أحاديث الدكتور معي حول «العربي» مما كان يشعرني أنه كان يتعلق بها تعلّق الأب بابنته الوحيدة!

وأمام تكاثر طلب المغاربة لمجلة «العربي» التي كانوا يجدون فيها ما يشتهون، وما يتطلعون إليه ويتوقون، أصبحتْ إدارة «العربي» تواجه مشكلاً مادياً كبيراً. تكشف عنه الرسالة التي بعثها إلى الدكتور بتاريخ ٢٧ مايو ١٩٥٩ بعد عودتي إلى المغرب.

«.. إن مسألة التوزيع في المغرب أقلقتنا، عزيزي الأستاذ عبدالهادي، إن النسخة الواحدة تكلفنا لكي تصل إلى بلادكم أربع روبيات أي ست شلنات إنجليزية، لذلك، عدلنا عن إرسال «العربي» إلى المغرب، وقررنا أن نترك الحرية لمن يشاء شراءها من مصر أو بيروت وبيعها بما شاء!».

ولما كان الدكتور طلب إلي استطلاعاً عن المرأة في المغرب، فقد عهدت إلى زوجتي الأستاذة ثريا بوطالب بإعداد الجواب عن هذا الاستطلاع الذي نشرته «العربي» في عددها الحادي عشر. ربيع الأول ١٣٧٩هـ/ أكتوبر ١٩٥٩م على النحو الذي طلبه. وأذكر أن رسوم هذا المقال وصوره كانت وثائق ناطقة تعبر عن تاريخ النهضة النسائية في المغرب لاسيما بعد استرجاعنا لاستقلالنا ووقوف الفتاة المغربية على مشارف الطرق التي نقبل اليوم على تجاوزها.

وقد زاد في تقديري للدكتور أنه ظل وفياً لتلك الأواصر، وظل يتابع نشاطي حتى بعد التحاقي بالعمل الدبلوماسي ومن هنا طلب إليّ تزويده بنسخةٍ من تحقيقي لمخطوطة عن تاريخ المغرب والأندلس وهو التأليف الذي قدمه زميلي وأخي الدكتور محمود السمرة في مجلة «العربي» عدد ٩١ ـ صفر ١٣٨٦هـ/ يونيو ١٩٦٦م.

لقد ظلت «العربي» رفيقة دربنا طوال مسيرتنا ولا تزال، وإذا كانت الظروف حالت دون الاستمرار في مراسلتها بسبب انتقالي للعمل في الحقل الدبلوماسي، فقد ظللت على صلة بها سواء كنت في بغداد أو

طرابلس أو الإمارات أو طهران. اعتدتها وأمست لي «نشوة» كما يقولون في المغرب. لقد أخذني كلّ شيء فيها: توزيع موضوعاتها، توازنها، خصوصياتها، مبادراتها، تصيّدها للفرصة المناسبة لتناول الموضوعات المناسبة ولكأنها على موعد مع اختيارات القارئ وهواجسه، وإني لأعتز أيما اعتزاز أنني كنت في صدر الذين عملوا على إيصال صداها إلى بلادي المغرب.

كنت وما أزال أعتبرها موسوعة جديرة بأن تحتل رفوف مكتبتي ولا أكتمكم أن أسعد أوقاتي هو الوقت الذي أجلس فيه إلى جانب عدد قديم من أعدادها أتصفح أوراقه لأستمتع بما مر في أمسي من أحداث، وما غاب عني من وجوه، لا أدري هل ما إذا كان من حقي أن أقترح على المشرف عليها الزميل د. العسكري وقد حظيت بالتعرف على جميع الكوكبة التي قادت المسيرة: زكي، بهاء الدين، الرّميحي، اقترح عليه أن يسهر على إعداد فهرس بل فهارس لمحتويات «العربي» منذ صدورها إلى اليوم، فهرس موضوعاتي، وفهرس بعناوين المقالات والبحوث، وفهرس بأسماء الرجال والنساء الذين كانوا يتنافسون على أن تظهر أسماؤهم على صفحات «العربي» التي لم تكن مجلة لدولة الكويت وحدها، ولكنها مجلة لكل العرب سواء أكانوا في الكويت أم بعيداً عن الكويت، أكثر من هذا مجلة لا تنتمي لجهة سياسية فتختفي باختفاء، تلك الجهة، ولا تخضع لسلطان غير سلطان العلم والفكر، ظلت كما تمنّى أصحابها: أن تكون عالمية ممتازة بكل المعايير شكلاً ومضموناً، بل إنها تنافس المجلات العالمية. تلك مبادئ مجلة «العربي» كما أعلن عنها منذ أن خط الحرف الأول على صفحاتها، تلك المبادئ التي كانت وراء صمودها وحبّ القراء لها.

---

* العربي - العدد ٥٢٢ - مايو ٢٠٠٢م.

مرفأ الذاكرة | علي زكريا الأنصاري

رحلة عمر بين الموسيقى والأدب *

عندما يستعرض المرء شريط حياته، يعجب كيف أن الظروف البيئية تتدخل في تحديد مسار حياته، مما يدفعه أحيانا الى اتخاذ قرارات لها تأثيرها المباشر في مسار مستقبله.

مازلت أتذكر أنني في عصر يوم من الأيام، وأنا في مقتبل العمر، ربما كنت في الثالثة عشرة أو نحوها، لا أدري على وجه التحديد، ولكن الذي أدريه هو أنني كنت أتصفح كتاب (العبرات) لمصطفى لطفي المنفلوطي، في إيوان مدرسة الوالد في سكة بن دعيج الكائنة في مدينة الكويت. وخلفت الاسطر القليلة التي قرأتها انقلاباً جذرياً داخل نفسي. بل إنها قررت مصير مستقبلي منذ تلك اللحظة. سحرني أسلوب المنفلوطي الجميل، بفصاحته، وعذوبته، وعباراته المنتقاة، وحسن معانيه، فصرت أتقصى كتبه لأشبع نهمي، مستمتعا بقراءتها متأملا أحداثها، متأثرا بها أيما تأثر. فقرأت كل ما وقع تحت يدي من كتبه. واقتنعت وقتها بأنني أمتلك المؤهلات اللازمة التي يحتاج إليها الأديب من حس صادق مرهف، وفهم للنفس البشرية، وإدراك أن ما نراه من مظاهر التصرفات الخارجية للإنسان، ما هو الا ردود فعل في الواقع لانفعالاته الداخلية. وكرست منذ ذلك الوقت حياتي للأدب، ولم أحد عن هذا الاتجاه في تحديد مستقبلي فيما بعد في دراساتي الأكاديمية.



وعندما وقع علي الاختيار لأكون أحد طلاب البعثة عام ١٩٤٣، وبعد ان استقر بي المقام في القاهرة، اتسعت دائرة اهتماماتي الأدبية لتشمل النجوم البارزة آنذاك في سماء الأدب، طه حسين، وتوفيق الحكيم، والزيات، والمازني، ونجيب محفوظ وغيرهم من الأدباء المرموقين.

كما استهوتني كتابات الدكتور محمد حسين هيكل، والدكتور أحمد أمين، وبعض كتب العقاد، وخصوصا عبقرياته، وعلى الأخص عبقرية عمر. كما كنت أترقب مجلتي الرسالة والثقافة كل أسبوع لألتهم ما تشتملان عليه من مقالات أدبية. وفي خضم تلك التجربة طرأت على بالي فكرة جديدة، فقد أيقنت في داخلي، أنني حتى أصبح أديبا يشار إليه بالبنان، فإنه لابد من الاطلاع على الآداب العالمية. وهذا لا يتيسر لي إلا إذا أجدت لغة أجنبية، بجانب لغتي العربية، التي لاشك أنها كانت الوسيلة للاطلاع على الآثار الأدبية العربية، سواء أكانت شعراً أم نثراً، منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الراهن. ولذلك فإنني حينما أنهيت المرحلة الثانوية في المدرسة السعيدية بالقاهرة، التحقت بكلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية، إيمانا مني بأن هذه اللغة ستكون مفتاحي للاطلاع على آداب اللغات الأخرى. هذا إلى جانب اطلاعي على عالم الأدب الإنجليزي، وهو غني بأفكاره، واتجاهاته.

لا أدري كيف. فإنه في هذه الفترة من عمري استولت على اهتماماتي الأدبية كتب إبراهيم عبدالقادر المازني، أكثر من غيره من الأدباء. كنت مأخوذا بأسلوبه الفذ العميق، الذي تستوقفك عباراته، وتلزمك بالتأمل لإدراك أبعادها ومغازيها.

كما كنت متأثرا بنظرته الفلسفية الواقعية لحياتنا، وتفاهة الكثير مما نتظاهر بالاحتفال به، باعتباره خلقاً أو إبداعاً. إن المتأمل في أعماله الأدبية لاشك يدرك هذا الاتجاه الذي يعكس صفحة نفسه المجبولة على

التواضع الجم، وأن جل ما يبذله الإنسان في دنياه الطارئة لا يعدو أن يكون قبضا للريح، أو حصاداً للهشيم. ولعل العبارات التالية تلخص مجمل رؤاه في الحياة:(الفرق بيني وبين هاملت، أنه معني بالحياة والموت، وبأن يكون أو لا يكون، وبأن يبقي على نفسه أو يبخعها، أما أنا فلا يعنيني شيء من هذا، ولست أراني أحفل لا بالحياة، ولا الموت، ولا الوجود ولا العدم، أو لعل الأصح والأشبه بالواقع أن أقول أني لا أرى وقتي يتسع للتفكير في هذا).

وتأمل في عناوين كتبه: صندوق الدنيا، من النافذة، ميدو وشركاه، عود على بدء، إبرهيم الكاتب، إبرهيم الثاني. ولاحظ أنه لم يعن حتى بإضافة الألف إلى اسمه، فكان يكتبه (إبرهيم) وليس (إبراهيم).

بل إن ديوانه الشعري لم يعن به، ولم يُعد طبعه إلا قريبا، ذلك لأنه يعتقد في قرارته أنه لم يكن شاعراً مجيداً، مع نقده اللاذع لأشعار شاعرين كبيرين هما: أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم.

وفي القاهرة، وأنا في خضم هذه الاهتمامات الأدبية، قرر بعض طلاب بيت الكويت الذي أسسه المرحوم الأستاذ عبدالعزيز حسين، تلقي دروس خصوصية في الموسيقى على يد أستاذ مصري. وعُرضت علي الفكرة، فقبلتها على الفور، لاستعدادي الفطري لإشباع هذه الهواية القابعة في الأعماق.

ولاحظت بعد فترة قصيرة من الزمن، أن حلقة الطلاب الملتحقين بهذه الدورة الموسيقية أخذت تتقلص شيئا فشيئا، حتى وجد أستاذ الموسيقى أن من الأجدى عدم الحضور كلية. إلا أنني وبعد أن اشتريت عودا من شارع محمد علي كلفني آنذاك ثلاثة جنيهات مصرية، واصلت طريقي من غير أستاذ، ودون الاعتماد على النوتة الموسيقية. واكتفيت بالاستماع إلى الأغاني الشائعة ثم تقليدها عزفا على العود. وتأكدت هوايتي للموسيقى، ولكنها لم تغير من تصميمي على الاستمرار في تخطيطي الأدبي. وهكذا

كان الأمر معي حينما تخرجت من كلية الآداب بالقاهرة، والتحقت بجامعة (اكستر) في المملكة المتحدة عام ١٩٥٢، حيث قضيت سنتين فزت بعدهما بدبلوم عال بعد أن كللت رسالتي بالنجاح، والتي كنت قد كتبتها عن (جين اوستن) الكاتبة الإنجليزية المشهورة، والتي عاشت في القرن التاسع عشر. كنت مفتونا بأسلوبها الرشيق، المقنن، والمتزن.

وعدت بعد هذه التجربة إلى الكويت لأبدأ حياتي العملية، فمن أستاذ للغة الإنجليزية، إلى وكيل لمدرسة ثانوية إلى مفتش للغة الإنجليزية، ثم إلى ملحق ثقافي في لندن.

وفي هذه الفترة التي امتدت من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٥٩ في الكويت التقيت الأستاذ عبدالرؤوف اسماعيل، الذين كان أستاذا لمادة الموسيقى في مدارسها. شاقني عزفه المتميز والمعبر على العود، فتعلقت به أيما تعلق. واستطاع بتمكنه من الموسيقى العربية، واطلاعه الواسع على مقاماتها، وصوته الجميل، أن يبعث في نفسي من جديد هذه الهواية، وأن يبصرني أكثر بمواقع الجمال فيها، وأن يعمق حبي لها. واتفقنا على أن نلتقي يوم الجمعة من كل أسبوع في سكني. كنت أسجل المقطوعات الموسيقية المقررة بعوده، ثم أعيد عزفها على مسامعه في الأسبوع القادم.

وكانت بيروت هي محطتي الأولى في وزارة الخارجية، حيث كنت وزيراً مفوضاً ومساعداً للسفير. وهناك تعرفت على عازف العود الشهير منير بشير. كنت أعجب بعزفه الدقيق، وتحكمه بالريشة، وقدراته الفنية المتعددة، التي تنتقل بك من أجواء هادئة حالمة، إلى أجواء مشحونة بالإثارة، حتى يتحول العود بين يديه إلى ما يشبه الأوركسترا الهادرة والمعبرة عن أشد الانفعالات قوة.

وعندما تم نقلي إلى جنيف في أواخر عام ١٩٦٩ مندوبا دائما في مكتب الأمم المتحدة، وبعد أن استقر بي المقام، تعرفت البروفيسور سيمون جارجي أستاذ الأدب العربي والدراسات الإسلامية في جامعة جنيف،

وعلى مدى الأيام توثقت هذه العلاقة وصارت صداقة متينة واستمرت حتى اليوم، نظرا لتشابه اهتماماتنا الأدبية والموسيقية. والحق يقال، أنني استفدت كثيراً من علمه الغزير في الموسيقى العربية. وكان يجيد اللغة العربية كأحد أبنائها، بالإضافة إلى اللغة الأم (الفرنسية)، كما أنه يجيد الإنجليزية. وقد أصدر كتابه المعروف (الموسيقى العربية) عام ١٩٧١ باللغة الفرنسية. وكان الناشرون الغربيون يعتمدون كثيراً على معلوماته وآرائه في مجال الموسيقى العربية في دورياتهم ومجلاتهم ومراجعهم العامة باللغتين الفرنسية والإنجليزية.

وفي أحد الأيام اقترح علي أن نقوم برحلة استطلاعية عن أحوال الموسيقى الإسلامية، وتسجيل الممكن منها لتثبيت مختلف اتجاهاتها. فوافقت على اقتراحه فوراً. وفي أبريل من عام ١٩٧٣ قمنا برحلتنا الأولى بالسيارة، ابتداء من جنيف وانتهاء بلبنان، مروراً بالأصقاع التركية والسورية. والحقيقة أننا كنا نقصد بشكل خاص مدينة (قونيا) لزيارة متحف المتصوف الإسلامي المعروف جلال الدين الرومي، للاطلاع على ما خلفه من مخطوطات شعرية ومن آلات موسيقية.

وبينما كنت والبروفيسور جارجي منهمكين في الاطلاع على مخطوطاته الشعرية، وعلى الأخص مثنويته، وكذلك الآلات الموسيقية التي يستخدمها، فوجئنا بعزف منفرد على الناي، صادر من ضريح جلال الدين الرومي، القائم في وسط المتحف، عن طريق سماعات مثبتة على جانبي القبر، غير ظاهرة للعيان. كان العزف شجياً، حزيناً ومؤثراً هزنا من الأعماق، كما لو كان مرثية لشخص مات تواً. وأصخنا بكل جوارحنا إلى عزف الناي حتى نهايته. ومعروف أن جسد جلال الدين الرومي قائم في قبره، وليس مسجى كما هي العادة. ومن فرط إعجابنا بعزف الناي الشجي، توجهنا إلى مدير المتحف، لمعرفة المزيد عن العازف. واستطعنا عن طريقة تعرف اسم العازف، وعنوانه. واتضح أنه كان صيدلانيا اسمه حسين أوكسوس. ودعوناه إلى

الفندق، فلبى الدعوة، واخترنا غرفة هادئة، منعزلة لتسجيل عزف الناي المعبر على آلة الناجرا التي لا تفارقني في رحلاتي.

أما في رحلتنا الثانية فقد توجهنا إلى البحرين بالطائرة في شتاء ١٩٧٥، وتمكنا من تسجيل بعض الأصوات والأغاني الشعبية للمرحوم يوسف القوني، المغني البحريني المعروف، وكذلك للمغني آدم عبدالوهاب.

ثم قمنا بعد ذلك بزيارة (دار جناح) في المحرق، حيث كان في استقبالنا عدد كبير من البحارة المتقاعدين وعلى رأسهم النهامون: سالم العلان (الكفيف)، وهلال بوخالد وأحمد بوطبنية. وسجلنا لهم (فن زمية وفن مخموس وفن مجيلس وعدساني وحدادي). وأذكر أنني دعوت الموسيقار السوفييتي المعروف خاتشادوريان إلى حفلة عشاء في منزلي بموسكو. وأدرت التسجيل أمامه، فقام من مقعده وتوجه إلى جهاز التسجيل وكله آذان صاغية. وقال بعد أن استمع : إنه تأثر بغناء النهمة، وبجمال الإيقاعات الغريبة عليه، والمصحوبة أحيانا بالتصفيق، وبتناسق أصوات المجموعة التي تشكل خلفية رائعة.

وغادرنا بعد ذلك إلى أبوظبي، عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة. وفي منزل السفير الكويتي - وقتها - سليمان ماجد الشاهين، الذي عرف غايتنا من الزيارة، وأكرم وفادتنا، أقام لنا مأدبة عشاء دعا إليها المغني المعروف محمد زويد مع عازف المرواس راشد بن سند، وحضر مع زويد المغني السيد خالد، الذي أشجانا بصوته الرخيم، ومن بعض الأغاني التي استمعنا إليها وسجلناها تلك الليلة: لمع البرق اليماني (صوت شامي)، وحشاشة نفس (صوت عربي).

أما رحلتنا الثالثة فكانت عام ١٩٧٦ طرنا فيها إلى عاصمة اليمن (صنعاء)، وكانت غاية زيارتنا تسجيل الأغاني الشعبية اليمنية، ذات الايقاعات المتعددة، وكان السفير الكويتي إبراهيم البحوه كريماً معنا، فدعانا إلى وليمة عشاء، وكان من ضمن المدعوين اليمنيين المغنيان علي أحمد

الخضر ومحمد الحارثي، فتمكنت من تسجيل بعض الأغاني اليمنية ذات الإيقاعات المميزة ومنها: الصوت الصنعاني، وايقاع السارع والمطول والوسطي. كما اطلعنا على العود الصنعاني المشهور في زيارة أخرى في دار الشيخ عبدالله شايف زهرة، حيث حضرنا جلسة (قات) عند العصر. واستمعنا في هذه الدار إلى أغاني صنعانية قديمة الإيقاع، من قبل المغني اليمني محمد الحارثي.

وفي عام ١٩٧٣ ألقت بي مقادير العمل إلى موسكو، عاصمة الاتحاد السوفييتي آنذاك. وهنا يجب التوقف قليلاً، لأن السنين الخمس التي قضيتها في موسكو، أحدثت انقلابا جذريا آخر في حياتي، وأحيت ناحية مهمة قابعة في أعماق الروح، وهي تعلقي بالموسيقى. ولكن أي نوع من الموسيقى أستمع إليه هنا؟ إنها من النوع الراقي الذي يجمع بين الفن والعلم والتجربة. وأتيحت لي الفرص لمشاهدة الأعمال الأوركسترالية العظيمة في مسارح البولشوي والكرملين وتشايكوفسكي وغيرها. بهرني بالذات، هذا التعاون التام بين أعضاء الأوركسترا، واستجابتهم لإشارات المايسترو بانتباه ووعي ونظام. هذا إلى جانب ما أسمعه من تراكيب موسيقية مركبة لم أتعودها، والتي أبدع فيها المؤلف الموسيقي، بما بذله من جهد عظيم في اختيار نسيجها الموسيقي، المبني على قواعد، وعلى ذوق، وعلى خبرة واسعة. وبهرني أيضا هذا الاستثمار الذكي للمساحة الفسيحة المتيسرة في الآلات الموسيقية في الأوركسترا، فمن آلات حادة، يرتفع مداها إلى الأعلى، كالبيكولو والفلوت، إلى آلات ينخفض صوتها كالتيوبا والكاونترباص. هذا إلى جانب توظيف آلات الإيقاع وهي متعددة لخدمة الأفكار الموسيقية.

وطرأت على بالي فكرة، وألحت علي مع الأيام، حتى ترسخت في الذهن. هل من الممكن أن ننقل إلى الغرب في المستقبل، موسيقانا المطورة، عن طريق أوركسترا عربية قادرة على نقل روح موسيقانا، ذات الشفافية الروحية، بشكل متقن وراق؟ ولكن كيف الطريق؟ وما الوسائل؟ واقتنعت

في داخلي بأن أبدأ بنفسي رغم تقدم السن، وعدم وجود خلفية موسيقية لدي. وقد تعودت دائما أن أسبح ضد التيار إذا ما تملكني الشعور بسلامة رأيي، يؤيدني في ذلك استعداد فطري، وحب للموسيقى، وعزيمة صادقة. وقررت أن أبدأ من الصفر. وأن أتعلم النوتة الموسيقية، وأن أكتب بها، وأن أغتنم فرصة وجودي في موسكو حيث تتوافر الإمكانات لدراسة الهارموني والبولوفوني والتأليف الموسيقي وما يتطلبه من تقنيات لابد منها في العمل السيمفوني. كنت أصحو والناس نيام، لأؤدي واجباتي الموسيقية، كأي طالب مجد قبل أن أتوجه إلى مكتبي لمزاولة أعمالي الدبلوماسية. وقد عاهدت نفسي منذ البداية على ألا تؤثر هوايتي الموسيقية المتمكنة في قلبي على عملي الرسمي. وقد وفيت بهذا العهد والحمد لله. وعلى مدى السنوات الخمس التي قضيتها في موسكو، تعرفت خاتشا دوريان المؤلف الموسيقي الكبير، والمعروف عالميا. بل إنني حضرت بعض دروسه. كان ديكتاتورا في مهنته الموسيقية. لا يجامل، أو يتنازل عندما يكتشف خطأ ما عند طلابه. وكان طلابه يحسبون له ألف حساب. وقد تمخضت جهودي الأولى في تأليف موسيقى وطنية قائمة على المقطوعة الشعرية للمرحوم أحمد مشاري العدواني (يا دارنا يا دار)، والتي لحنها الموسيقار رياض السنباطي.

وقد ساعدني البروفيسور ميخائيلوف في التوزيع الموسيقي، وتم تسجيلها في استديو الإذاعة والتلفزيون في موسكو بتاريخ ١٩٧٧/٩/١٣ من قبل الأوركسترا السيمفوني للراديو والتلفزيون بقيادة المايسترو فلاديمير فيدوسييف.

وعندما تم نقل خدماتي من الاتحاد السوفييتي إلى البرازيل عام ١٩٧٨، كانت الأسس السليمة قد ترسخت في ذهني، مما ساعدني على مواصلة مهمتي الموسيقية، فعندما استقر المقام بي في برازيليا، عاصمة الاتحاد الفيدرالي للبرازيل، اتفقت مع أستاذ من أصل إنجليزي، كان يدرس في كلية الموسيقى في برازيليا. وعن طريقه استطعت أن أواصل ما سبق وأن

بدأت به من هارموني وألحان معارضة وتقنيات موسيقية أخرى تعينني في التأليف الموسيقي. وكالعادة، اخترت مساء الجمعة من كل أسبوع، لتلقي الدروس، وذلك لكي أستفيد من يومي السبت والأحد في القيام بواجباتي الموسيقية، إضافة إلى استلهام أفكار جديدة وكتابتها بالنوتة، ثم التخطيط لتنظيمها في إطار ما تعلمته من مهارات فنية في جمل موسيقية مركبة ومتناغمة.

وأذكر أننا دعينا إلى افتتاح مسجد في بونتاجروسا، وهي ثاني أكبر مدينة في ولاية بارانا، ويقطنها الكثير من المهاجرين العرب، وكنت ضمن وفد من السفراء العرب. وفي إحدى الأماسي في بونتاجروسا، دعانا رئيس البلدية إلى حفل موسيقي، وصادف وجودي بجانب مقعد مدير الأوركسترا وهو جوزيف القنواتي، من أصل عربي سوري. وفي مجرى الحديث العام عن الموسيقى، ذكرت له أن لدي محاولات في التأليف الموسيقي، فانشرح صدره وقال: إننا في شوق لعزف موسيقى عربية مطورة، وطلب مني إرسال النص الموسيقي، وإن لم تخني الذاكرة، كان ذلك في أبريل من عام ١٩٨١، وواصل حديثه قائلاً: إننا في نوفمبر القادم سنقيم حفلاً موسيقيا، فإذا أرسلت ما لديك من موسيقى، كان لدينا الوقت الكافي للاطلاع عليها وتنفيذها، ويمكن أن تحضر هذه المناسبة. وبعد عودتي إلى مقر عملي في برازيليا، أرسلت إليه النص، وكان تحت عنوان (عود على بدء) وقد غيرته فيما بعد ليصبح (الخضوع للقدر). واطلع عليه المايسترو (هاس) وكان من أصل ألماني، وقبله. إلا أنني راجعت القطعة الموسيقية فيما بعد مع أستاذي الإنجليزي، وأضفت إليها آلات أخرى، وبعض اللمسات الفنية التي رأيت من المناسب إضافتها، ثم جعلتها الحركة الأولى لعمل سيمفوني مكون من ثلاث حركات سميته (رحلة حياة)، في ذكرى صديق عزيز قريب، اختطفته أيدي المنون وهو في مقتبل العمر.

وعندما أتيحت لي فرصة إعادة تسجيل هذا العمل السيمفوني في

لندن خلال مارس ١٩٩٨، كنت قد راجعته بحكم ما اكتسبته من خبرة في العمل الأوركسترالي، كما أضفت إليه حركة رابعة، وأصبح بذلك متكاملا حسب رأيي الخاص.

وتجمع لدي، بعد فترة من الزمن، عدد من الأعمال السيمفونية التي كتبتها بتأن، ومراجعة مستمرة من قبلي، ومن قبل أستاذي الإنجليزي الذي كان خبيرا في التحليل الموسيقي. كان يطلعني على أخطائي الفنية، فأبادر إلى تصحيحها، كما أنه يوجه مسيرتي بالذات في الألحان المصاحبة، وفي الهارموني، ويبصرني بعمليات الإبداع في بعض الأعمال الموسيقية العظيمة، وبالذات لبتهوفن وتشايكوفسكي.

ودفعني النجاح إلى أن أقوم بعمل سيمفوني أكثر طموحا ولأوركسترا متكاملة. وبدأت بهذا العمل المحفوف بالمخاطر، والذي استغرق مني أكثر من ثلاث سنوات، في عمل متواصل ساعات الصباح الأولى، وأيام العطل والإجازات وأحيانا في المساء حينما يخلو برنامجي من أي ارتباطات رسمية. كنت مدفوعا بقوة خفية، أبتدع اللحن ثم أعيد النظر فيه بعد فترة، مبدلا، مغيرا حتى ترتاح نفسي لترتيبه المنطقي، فأبدأ في توزيعه على آلات الأوركسترا، ثم أعرضه على أستاذي الإنجليزي، فيبدي ملاحظاته الفنية التي آخذها بعين الاعتبار. ويساعدني في كثير من الأحيان في تنظيم الخلفية الموسيقية، وأحيانا يتفتق ذهني عن لحن جديد مناسب، أثناء بلورة اللحن الأساسي، ومحاولة كسائه، فأسجله بالنوتة قبل أن أنساه، وأثمرت هذه الجهود، بعد صبر وعناء عملا سيمفونيا من ثلاث حركات أطلقت عليه (السباحة ضد التيار). وعرضت ما لدي على المايسترو دي كارفاليو. وبعد أن درس العمل، أقره، وأبدى استعداده لتنفيذه. ولكن لابد في هذه الحالة من موافقة المؤسسة الثقافية للراديو والتلفزيون في البرازيل، ومقرها سان باولو. وبعد مراسلات مع المسئولين في هذه المؤسسة الحكومية، وعلى رأسهم (لويس)، المدير المالي للمؤسسة، وهو نفسه شاعر معروف، وافقت

المؤسسة على تنفيذ العملين السيمفونيين، (رحلة حياة)، و(السباحة ضد التيار) بحركاتهما الثلاث، في أبريل عام ١٩٨٥، وأبدت المؤسسة استعدادها لعرض هذه الأعمال في محطات الراديو والتلفزيون التابعة لها في البرازيل. أما بالنسبة لتكاليف تسجيل هذه الأعمال على فيديو كبير فتبلغ (٥٠٠٠ ORTN)، وهو ما يعادل في لغة الأرقام ٣٧,٨٠٠ دولار أمريكي. وكتبت بهذا العرض إلى وزير الإعلام آنذاك معالي الشيخ ناصر محمد الأحمد الصباح، الذي أجاب مشكورا بالموافقة. وفي ٧ أكتوبر من عام ١٩٨٥ تم تسجيل (رحلة حياة) بحركاتها الثلاث، في حفل حي بمسرح الفن والثقافة في مدينة (سان باولو)، وقوبلت الموسيقى باستحسان كبير، وقالت لي شخصية بارزة في المجتمع البرازيلي من أصل عربي إنه اهتز تأثرا عند سماع هذه الموسيقى، التي تذكره بانتمائه العربي. أما العمل السيمفوني الآخر (السباحة ضد التيار)، فقد تم تسجيله في استديو المؤسسة الثقافية في شهر يونيو ١٩٨٥ من دون جمهور، وبقيادة المايسترو دي كارفاليو. ووصلتني رسائل فيما بعد تمتدح هذه الأعمال السيمفونية، ومنها قصيدة للشاعرة البرازيلية (تريزي دي جودوي).

وبينما كنت أعد نفسي للانتقال من البرازيل إلى الهند عام ١٩٨٦ حيث تقرر نقل أعمالي إليها، تسلمت رسالة من ابني معن، في الولايات المتحدة الامريكية، والذي يعرف عشقي للموسيقى، ذكر لي فيها أن هنالك اختراعا جديدا في عالم الموسيقى، يتيح لك كتابة النوتة على الكمبيوتر، لأي آلات موسيقية تراها، وأنه عن طريق (الميدي) أو (الواسطة) التي توصل بين الكمبيوتر والأورج أو (Synthesizer)، فإن الكمبيوتر يستطيع التمييز بين الآلات الموسيقية التي تحمل كل منها رقماً يشير إليه، ويحوله إلى أصوات مسموعة عن طريق السماعات. ولم أصدق بادىء ذي بدء، وبدا لي الأمر كالسحر، وطلبت من ابني تفاصيل أكثر مطبوعة، مع العناوين اللازمة. وجاءني الرد بأن المصنع موجود في بوسطن، وأنه سيكون هناك في التاريخ

الذي أحدده، إذا توافرت لدي الرغبة. وهكذا قررت أن ازور بوسطن قبل توجهي إلى الهند، لرؤية المصنع عن كثب، ودراسة إمكان تشغيلي لهذه الآلات الإلكترونية واستعدادي لدفع الثمن مهما كان باهظا. وسكنت في أحد الفنادق القريبة من المصنع في بوسطن، مع ابني معن، الذي سبق أن عاش أيام دراسته في أمريكا. وكان قد استأجر سيارة، مما سهل لنا مهمة تنقلاتنا إلى المصنع، وإلى غيره. وعندما شاهد المسئولون في المصنع رغبتي الأكيدة في امتلاك هذه الآلات الإلكترونية، قرروا تزويدي بها في غرفتي بالفندق، وأرسلوا بعض خبرائهم لتلقيني الدروس الأساسية في تركيب وتشغيل هذه الآلات. وبعد قضاء حوالي عشرة أيام، بدأت فهم المبادىء الأولى في كيفية استخدامها. وقررت شراءها. وكانت فعلا باهظة الثمن. ولكن هذا يهون في سبيل امتلاك ما يشبه الأوركسترا في سكني.

أما في الهند التي قضيت فيها خمسة أعوام، فكانت لي تجربة أخرى مع الموسيقى، وهي مختلفة تماما عن تجاربي السابقة.

والحقيقة هي أن الموسيقى الهندية، ترتكز على أسس سليمة يتوارثها الأبناء عن الأجداد. إن عازف أي آلة موسيقية هندية متوارثة يعكف على التدريب ساعات وساعات، ليعود أصابعه العزف السليم لكي يتمكن بالتالي من نقل أحاسيسه على الآلة الموسيقية التي اختارها. وهذا ما دفعني إلى محاولة فهم الموسيقى الهندية، على الأخص الراج الهندي، الذي يتميز بقالب موسيقي معروف لدى الهنود. فاتفقت مع عازف سيتار بارز هو (بيدي سنج)، على أن أتلقى دروسا في الموسيقى الهندية مساء كل جمعة. وقد لاحظت تشقق أصابع (سينج) وتصلب أطرافها من فرط التدريب الذي قد يمتد إلى خمس ساعات أو أكثر كما قال لي. كنت أصغي إلى ما يعزفه، ثم أكتبه بالنوتة الغربية التي تعلمتها. وأحاول عزف ما أكتبه على العود للدرس القادم. وكان أغلب تركيزي منصبا على موسيقى (الراج الهندي).

وحينما حان وقت التقاعد عن العمل الرسمي عام ١٩٩٤ وآن الأوان لعودتي إلى الكويت، وصار الوقت ملك يدي، عاد شوقي إلى الكتابة الأوركسترالية وبادرت إلى شراء آلات موسيقية أكثر تطورا مما سبق، وباشرت العمل، وبعد دروس قليلة بدأت معالم الطريق تتضح شيئا فشيئا، واستطعت بعد زمن قصير أن أواصل الأمور بنفسي، وبدأت في مراجعة العملين القديمين السابقين (رحلة حياة) و(السباحة ضد التيار)، وكتبتهما على الكمبيوتر من جديد، مصححا أحيانا، مضيفا أحيانا أخرى، وكتبت الحركة الرابعة لكل من هذين العملين السيمفونيين.

وفي عام ١٩٩٥ وبمناسبة الاحتفالات بمهرجان القرين الثاني الذي ينظمه المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت دعيت الأوركسترا السيمفوني لأكاديمية شوبان في بولندا إلى الكويت للمشاركة في هذه الاحتفالات، وكان من ضمن ما قدمته أوركسترا الأكاديمية، عملان سيمفونيان هما: (الطموحات المبكرة) و(السراب). وفي عام ١٩٩٨، وبمناسبة العيد الوطني لدولة الكويت، وبالتعاون مع الأمين العام للمجلس الوطني الدكتور سليمان العسكري تقرر إقامة حفل موسيقي في لندن في القاعة الموسيقية لسان جون. وكان من ضمن الأعمال السيمفونية التي قام بأدائها الاوركسترا السيمفوني لفريق موزارت اللندني المعروف، (رحلة حياة) بحركاتها الاربع، وكذلك (نبض حالم)، والتي كان العود فيها الآلة الرئيسية، وقام بأدائها ابراهيم طامي، المدرس في المعهد العالي للموسيقى بالكويت وكنت قد عرضت على البروفيسور ستانلي جلاسر هذه الأعمال السيمفونية، قبل إرسالها إلى أعضاء أوركسترا فريق موزارت اللندني، الذي أبدى ملاحظات فنية قيمة، أخذتها بعين الاعتبار. وقام المجلس الوطني بإصدار أسطوانتي ليزر. وكانت الأسطوانة الأولى تشتمل على: (١) رحلة حياة بحركاتها الأربع، (٢) نبض حالم، (٣) سيمفونية التحرير بحركاتها الثلاث وسبق أن قدمتها الأوركسترا السيمفوني للأكاديمية الملكية

للموسيقى في قاعتها في حفل عام في يناير.١٩٩٤ أما أسطوانة الليزر الثانية فقد اشتملت على (السباحة ضد التيار) بحركاتها الأربع، والتي استغرقت ٥٣ دقيقة، وسجلت في قاعة سان جون من دون جمهور. وكان قائد الأوركسترا السيمفوني لفريق موزارت اللندني هو سيمون ماكفيه، رئيس قسم الموسيقى في كلية جولد سميث التابعة لجامعة لندن، وهو أستاذ محاضر في الكلية، وعازف كمان من الدرجة الأولى.

وفي عام ٢٠٠٠ كان قد تجمع لدي أعمال سيمفونية أخرى كتبتها على الكمبيوتر وهي: (١) انعتاق، (٢) تساؤلات في الداخل، (٣) دوافع خفية، (٤) لحظات سكينة، بالإضافة إلى عملين تراثيين للموسيقار الموهوب المرحوم عبدالله الفرج وهما: (الحمد لمن قدر خيراً وجمالاً)، و(ملك الغرام عنا ليّ). وقد رأيت تقديمها بأداء سيمفوني جديد إحياء لذكرى هذا الفنان المبدع. وصادف أن قابلت السفير البولندي في إحدى الحفلات الروتينية، وجرى الحديث عن الموسيقى، وعرضت عليه فكرة تسجيل هذه الأعمال السيمفونية من قبل الأوركسترا السيمفوني لأكاديمية شوبان. فوعدني بالكتابة إلى رئيس الأكاديمية ريتشارد جيماك ليرى رأيه. وبعد فترة من الزمن جاء رد البروفيسور جيماك، طالبا النوت الموسيقية للاطلاع عليها. وقد سبق للبروفيسور جيماك أن رافق الأوركسترا السيمفوني لأكاديمية شوبان عند حضورها إلى الكويت عام ١٩٨٥، وكانت لديه فكرة عامة عن إمكانياتي الموسيقية. وبعد أن اطلع على النصوص الموسيقية، واستمع إلى التسجيل من الكمبيوتر الذي أرسلته إليه، جاءني الرد بالقبول، وتطوع أن يقود الاوركسترا بنفسه. وبعد مراسلات معه، تم تحديد الموعد في شهر يوليو من عام ٢٠٠٠، وطرت إلى وارسو، وحضرت التدريبات والتسجيل. ووعدت شركة (DUX) التي تولت التسجيل بتزويدي بأسطوانات الليزر حالما تنتهي إجراءات الدبلجة، وإتمام طبع التعليقات على الموسيقى باللغتين: العربية والإنجليزية.

أما الخطوة التالية، التي اعتبرها أكثر جرأة وتطورا، فهي تأليف مقطوعات موسيقية عربية استخدمت فيها ربع التون، من مقامات عربية معروفة من رصد وبيات وهزام وصبا.. إلخ.. وقد سهل لي هذه المهمة الأورج الشرقي الذي اخترعته اليابان. وعلى مدى حوالي السنوات الثلاث الأخيرة، تجمع لدي مقطوعات موسيقية ألفتها من مقامات عربية، لأوركسترا سيمفوني عربي ليست موجودة أصلا. وهي: (١) لمسات عاطفية، (٢) عطر من الماضي، (٣) في هوى بدري وزيني، مستوحاة من أغنية قديمة للموسيقار والشاعر الموهوب المرحوم عبدالله الفرج، (٤) رؤى تصوفية. كما ضمت هذه المجموعة عملاً سيمفونيا تحت عنوان (ذكريات مبكرة) مكون من أربع حركات هي: الحركة الأولى: انفعالات غامضة، الحركة الثانية: صراع في الداخل، الحركة الثالثة: احتجاجات مكبوتة، الحركة الرابعة: آمال.

إن كل أملي أن تتمكن هذه الموسيقى، ذات المذاق العربي الصرف، من أن ترى النور قريبا، لأنني بصدد محاولة تنفيذها في القاهرة، ويمكن اعتبارها استمرارا لعملية تطوير الموسيقى العربية، على أسس علمية سليمة، تاركة المجال لجيل الشباب القادم من الموسيقيين الموهوبين، الطموحين، للمضي في الطريق إلى نهايته القصوى. حتى تصبح لدينا موسيقى عربية عالمية، بأداء سيمفوني سليم.

---

* العربي - العدد ٥٠٩ - أبريل ٢٠٠١م.

مرفأ الذاكرة | د. علي الراعي

تنفست نسيم الحرية والتسامح*

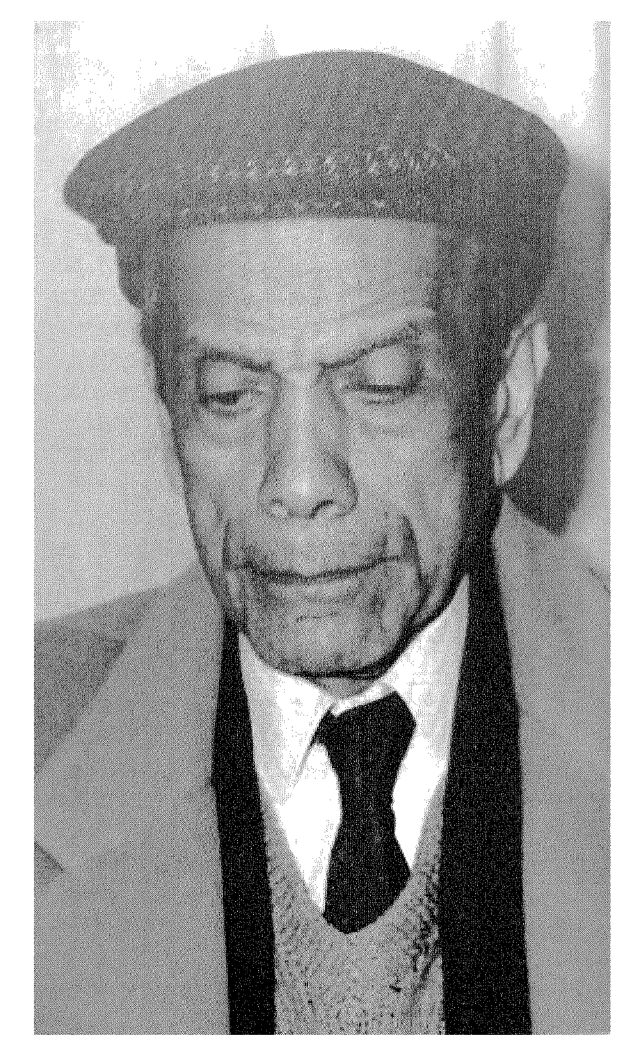


من عجب ألا يستطيع المرء اختيار زمانه، ولا يوم مولده ولا مكان ميلاده، ومع هذا فما أشد تأثير هذه العوامل جميعا في حياته.

ولدت في مدينة بنها عام ١٩٢٠، وخرجت منها طفلا في الشهر التاسع مع أسرتي، حيث نقل إليها والدي الذي كان يعمل موظفا صغيرا في الحكومة، وجاء ليلتحق بزملاء له في محافظة الإسماعيلية.

التاريخ: ١٩٢٠ تاريخ عبقري! كانت مصر قد ودعت ثورة ١٩١٩ المجيدة بكل ما حفلت به من بطولات وهزائم وأعمال فداء وبطولة وخيانة وكان لايزال أمامها نضال متصل قاده زعيم مصر سعد زغلول، الذي تقلب به الإنجليز في المنافي ثم عاد إلى مصر ليستقبل استقبال الفاتحين، قبل أن يموت في ٢٣ أغسطس ١٩٢٧.

كنت طفلا لما مات الزعيم، وبرغم سنواتي الباكرة استطعت أن أتبين أن أمراً جللا قد حدث في البلاد، كانت أغان حزينة تتردد في أرجاء الإسماعيلية، كان من بينها صوت يردد: (وسعد مات يوم



أربع، والنعش شالوه على مدفع) أظن أن هذا كان صوت أم كلثوم، وسرت مقولة مغرضة تقول: إن الزعيم قال لرفيقة حياته صفية زغلول: (أنا انتهيت يا صفية)، وأنه أضاف قبل هذا قوله: (مفيش فايدة)، تلقف خصوم الحركة الوطنية العبارة الأخيرة وقالوا إن سعد كان يعني: لا فائدة من مكافحة الاستعمار البريطاني.

كانت الإسماعيلية بالنسبة لي أرضا مناسبة تماما لتلقي تطلعاتي وتوجهاتي وأحلامي، كانت في العشرينيات مدينة عالمية بكل معنى للكلمة، كانت (كوزموبوليتان) صغيرا، تحوي أخلاطا من الأجناس والثقافات والسلطات، فمن جهة كانت شركة قناة السويس - الفرنسية - تحكم جزءا مهما من المدينة: ما عرف آنذاك بالحي الإفرنجي، وكانت الإدارة المصرية تحكم حي العرب، وبين جزئي المدينة كان يقوم كل ما يستطيع المرء أن يتخيله من تناقض، الحي الإفرنجي به كل مقومات الحضارة والمدنية الحديثة، فيلات بالغة الأناقة، حدائق ملحقة بهذه الفيلات، حدائق واسعة تحيط بها تستخدم أحدث وسائل الري، الري بالرشاشة المتحركة على شكل مروحة، كان به مستشفى على مستوى كبير من حسن التجهيز اسمه مستشفى نمرة (٦)، وكان الحي يشهد حفلات راقصة سمعنا عنها نحن الأطفال، وذهبنا نشاهدها عن بعد، وعرفنا أن اسمها (باللو)، كانت الحفلات تستمر حتى الساعات الأولى من الصباح، وكنا نذهب لنعاين مخلفاتها من زهور وزجاجات ومأكولات ندهش لوجودها بكل هذا القدر من التوفر.

وفي الجانب الآخر كان يقوم حي العرب - أصحاب البلاد الأصليين، فيما عدا مدرسته الأميرية، ومبنى المحافظة، كانت مبانيه متواضعة، يؤسسها الفقر الشامل، ويخطط شكلها ومستقبل شاغليها،

وبين الفرنسيين والمصريين كان يعيش اليونانيون والإيطاليون، الأول متداخلون مع المصريين معايشون لهم في ود حقيقي، كانت لنا جارة يونانية تصادق أمي، وتتبادل وإياها الود والعون.

وحي المعسكر - الذي توجد به ثكنات جيش الاحتلال البريطاني - كان جنود الاستعمار يعيشون في راحة وترف - غذائي وترفيهي - كانوا يقيمون الاستعراضات العسكرية ويطوفون بها الشارع الرئيسي في البلد - الذي يحاذي الترعة ويمتد إلى مبنى المحافظة وما بعدها، وكنا نصطف على أحد جانبي الشارع ونهتف مرددين: (يا عزيز يا عزيز، كبة تاخد الانجليز)، لم تكن هتافات الشعب المصري ضد محتليه الغاصبين بعيدة عن أسماعنا، كان هتاف مثل: (مصر للمصريين)، الذي ردده ثوار ١٩١٩ بالإنجليزية لايزال يتردد بيننا، وكانت أغنيات مثل: (الحرية الحرية، هي روحي ودوا عنيه)، ماثلة أمامنا كذلك، أما النشيد الساخر الذي ردده ثوار ١٩١٩ ضد المستعمر البريطاني لورد اللنبي، والذي حوروا فيه إحدى أغنيات كشكش بيه (نجيب الريحاني) فكان يقول: (يا اللنبي بيه الله يسمك، ويطريق التربة على أمك، وأحطك يا واد يا لنبي.. تحت التتجرة)

كان أهل الإسماعيلية برغم غلبة الوجود الأجنبي في البلد ينقمون على الإنجليز والفرنسيين وجودهم وتحكمهم في مقاليد الأمور، وكانت هذه النقمة مكبوتة حينا، وظاهرة حينا آخر، ولم يكن صدفة أن بداية حركة الإخوان المسلمين قد كانت في الإسماعيلية، على يد الشيخ حسن البنا، الذي كان يعمل مدرسا للغة العربية في المدرسة الأميرية، والذي جلست إليه في مقاعد الدرس، كان رجلا شديد الذكاء، فصيح العبارة، ساحر الشخصية، وكان حفياً بي بصفة خاصة، لما لمسه فيّ من حب اللغة العربية وإتقانها، أذكر أنه دخل علينا الفصل ذات يوم وبدأ بندائه المألوف: أخرجوا كتب المطالعة وأقلام

المتابعة. ثم قص علينا قصة الشيخ الفاني المشرف على الهلاك، الذي جمع أولاده إلى جواره وأمر كلا منهم أن يكسر عودا من الخيزران فكسروه جميعا بلا عناء، ثم أمرهم أن يضموا الأعواد على شكل حزمة، وطلب إليهم أن يحاولوا كسرها فلم ينجح أحد منهم، فتغني الشيخ قائلا:

كونوا جميعا يا بني إذا اعترى
خطب ولا تتفرقوا آحادا

ثم أمرنا الشيخ حسن أن نكتب موضوعا إنشائيا في هذا المعنى ولما قرأت له ما كتبت اهتز طربا، فقد قلت: فلما مات الشيخ وواروه التراب.. الخ، فشاقه أن يعرف حدث مثلي هذه الكلمة (واروه).

وكان الشيخ حسن يسهم في نشاط المدرسة الرياضي، مدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية، وطلب إليه أن يكتب كلمات لنشيد يلقى في حفل آخر العام الرياضي، فكتب يقول:

الإسماعيلية روض مونق
كوكب التعليم فيها مشرق
زانها الحفل فزاد الرونق
وأزدهى زهر الرياض بابتسام
مرحبا أهلا بمن قد شرفوا
وعلى أبنائهم تعطفوا

... الخ.

كنت قبل التحاقي بالتعليم الابتدائي الأميري، قد عرفت ألوانا أخرى من التعليم، قضيت فترة في مدرسة الإسماعيلية الإلزامية، وقرأت فيها القرآن، وتعلمت مبادئ الحساب، وتعلقت - مبكرا - باللغة العربية وأعجبت إعجابا وافرا بمدرس اللغة العربية، مازلت أذكره حتى الآن، شاب شديد الإخلاص لعمله، متقن لمادته، أغلب الظن أنه تخرج في دار العلوم، تلك القلعة الحصينة التي احتمت بها

لغتنا وواجهت بها أعاصير الفرنجة، ودعاوى استخدام العامية في الأدب والصحافة والمسرح، لقد علمني اللغة وأسرارها فريق من خريجي دار العلوم، صحبوني في رحلتي الباكرة من التعليم الإلزامي حتى التعليم الابتدائي، وامتد أثرهم من بعد إلى مرحلة التعليم الثانوي، عن طريقهم عرفت النحو والصرف وقرأت بعضا من عيون الشعر، فرسخت في نفسي وعقلي قاعدة صلبة، تولت بدورها حمايتي حين انتقلت إلى الجامعة لأدرس الأدب الإنجليزي وأتخصص فيه.

على أنني قبل الالتحاق بمدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية كنت قد قضيت سنة أو نحوها في مدرسة تبشيرية يديرها الإنجليز وتسمى: (المدرسة الإرسالية الإنجليزية للصبيان)، لم يجد والدي ما يدعو إلى الاعتراض في دخولي هذه المدرسة - برغم طابعها الديني الواضح - كان المناخ الثقافي والسياسي والديني إذ ذاك رخياً، وكان التقارب بين أبناء الدين الواحد وغيره من أديان سماوية قائما، صحيا، سمحا، يسعى إلى التبادل وليس إلى التنابذ، وعلى هذا دخلت المدرسة الإرسالية وأنا مشوق لأعرف ما يجري فيها وما تعلمه أبناءها، ودخلت كنيسة المدرسة مع غيري من التلاميذ، وأنشدت ما ينشدون من أناشيد وترانيم مازلت أذكر واحدا منها: (الرب قسمتي.. حظي ومنيتي) وعندما حل ميعاد آخر العام كان من بين المواد التي تفوقت فيها مادة الدين المسيحي، جنيت من هذه المدرسة فضيلة التسامح وسعة الصدر، ولم يؤثر التعليم المسيحي في عقيدتي، إذ إنني حين انتقلت إلى المدرسة الأميرية تفوقت في أربع مواد هي: اللغة العربية والإنجليزية والقرآن الكريم والدين والتاريخ أو الجغرافيا. لا أذكر الآن أيهما، وكانت المدرسة قد خصصت جوائز رمزية للمتفوقين هي صورة الملك فؤاد وصورة الملك فاروق، وقال لي

المشرفون: نكتفي بصورتين فقط فلا داعي للتكرار.

تركت الإسماعيلية من بعد إلى القاهرة والتحقت بمدرسة التوفيقية الثانوية في حي شبرا، الذي كان آنذاك - أوائل الثلاثينيات وما بعدها حتى الخمسينيات - غاصا بالأجناس جميعا. كان صورة مصغرة للمجتمع المتعدد الأجناس الذي خبرته في الإسماعيلية، يونانيين وإيطاليين وأرمن وإلى جانب المصريين من مسلمين وأقباط، كنا جميعا نعيش في وئام، وكما كنت أغشى المساجد لأصلي، كنت أذهب مع أصحابي الأقباط لنحضر صلواتهم ونردد أناشيدهم وأذكر من أناشيد تلك الفترة نشيد:

مـــــرة تـــــــهـــــــت بـــعـــــــيـــــــدا

عــــن مــــخـــــلـــــصــــي يــــســـــوع

والذين يعرفون شبرا تلك الأيام يعلمون أن المسلمين كانوا يزورون ضريح القديسة تيريزا، وينذرون لها النذور ويسألونها الشفاعة عند الله تماما كما كان يفعل الأقباط.

والبيت الذي كنت أسكنه في شبرا، كان صاحبه قبطيا، وكانت الشقق الأربع التي ضمها البيت موزعة كالتالي: الدور الأسفل تسكنه أسرة قبطية ويعلوه الدور الذي نسكنه، وفوق هذا كانت تسكن أسرة مسيحية، وفوقها أسرة مسلمة، وكان الود قائما بين هذه الأسر الأربع، حتى أنه حينما مات والدي، سارع أصدقاؤنا الأقباط من سكان الدور الذي يعلونا إلى احتضاني، والترفيه عني وإبعاد وقع المأساة عليّ.

في عام ١٩٣٩ التحقت بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - لأتخصص في الأدب الإنجليزي، وكانت هذه أمنيتي منذ السنوات الباكرة للمرحلة الثانوية، كنت أحلم بأن أكون ناقداً يعتد به في قابل الأيام، وكانت عدتي في هذا، الرغبة في إتقان

اللغة الإنجليزية إلى جوار لغتنا العربية، وقد تقدم ما ذكرت من أن أساتذتي الأجلاء من خريجي كلية دار العلوم كانوا قد أرسوا في نفسي أساسا متينا للتماسك القومي والثقافي بإزاء ثقافة الغير. وعلى رأسها الثقافة الإنجليزية التي كانت قد اتسعت انتشارا وأثرا في النفوس منذ الاحتلال عام ١٨٨٢، ولهذا فقد دخلت قسم اللغة الإنجليزية وآدابها وأنا يقظ أشد اليقظة لما يمكن أن تنتجه دراسة أدب عالمي الانتشار مدعوم بقوة مادية عظمى هي قوة الإمبراطورية البريطانية - ما يمكن أن يخلفه هذا الأدب من استلاب للشخصية القومية، غير أن الثقافة البريطانية - مخالفة في هذا غيرها من الثقافات - الفرنسية خاصة - تعلم متلقيها التساؤل وتدعوه إلى التحدي، وقد كنا نقول في محيط الطلاب إن قسم الأدب الإنجليزي هو أكثر الأقسام الجامعية الذي يندد فيه بالاستعمار البريطاني، وكان هذا واقعا فعلا، ساعد عليه أن ظروف الحرب قد وفرت لنا طاقما من المدرسين الإنجليز، كان بينهم متمردون على الجوانب السيئة في ثقافات بلادهم وفي ممارسات حكوماتها، وكان على رأس هؤلاء مستر ويمنت، الذي كان يعلمنا الأدب الإغريقي والروماني في الصباح ويدعونا في المساء إلى شقته في جاردن سيتي ليعلمنا الاشتراكية، علاوة على أن الثقافة البريطانية تزخر بكثير من أعلام الثوار: ملتون الشاعر الذي حمل السلاح في وجه الملك وشيللي الذي دعا الجماهير إلى الثورة قائلا: أنتم الكثرة وهم القلة. وبرنارد شو الذي ساند الشعوب المستضعفة في وجه ظالميها، وبيرون الذي حارب في صفوف اليونانيين ضد الاستعمار التركي.

لم يكن ثمة خطر على أقوياء النفوس من الثقافة البريطانية، وقد زاد من ضعف هذا الخطر ما كان يسود العالم آنذاك من موجة تحرر عارمة، أفرزتها ملاحم الكفاح البطولي لشعوب العالم ضد

العنصرية البغيضة التي كان يدعو لها كل من هتلر وموسوليني، وقد كنت خلال الحرب التي اندلعت قبيل التحاقي بكلية الآداب بشهور منضما قلبا وقالبا للشعوب المكافحة للفاشية، وكنت أردد آنذاك: مادامت الحرب قائمة فنحن نساند الحلفاء، وحين تنتهي الحرب سيكون لنا مع بريطانيا شأن آخر.

في عام ١٩٤٣ تخرجت في كلية الآداب، وانضممت بعد أسبوعين اثنين فقط، إلى الإذاعة المصرية (التي كان يديرها ويوجه سياستها الإنجليز، بالتعاون أحيانا مع الملك وأحزاب الأقلية)، وكانت هذه نقلة بالغة الأثر في حياتي، فقد كنت قبل أيام أدرس وأتمتع بروائع الأدب العالمي من قديمه ووسيطه وحديثه فإذا بعملي الجديد يلغي عقلي ويحيلني إلى لسان فقط، عليه أن يردد ما يطلب منه وحسب، كانت الصدمة شديدة، غير أنني استوعبتها بعد وقت لم يطل، وأخذت أتبين ما في الإذاعة من مزايا، أهمها الاتصال المباشر بتيارات الفكر والسياسة والفن، ولقاء الأعلام في هذه المجالات، إلى جوار التعرف على نجوم الفنون العامة من مسرح وموسيقى وأغان شعبية ومونولوجات.. الخ، وقد ساعد هذا كله على أن أهدم حيطان الأكاديمية في نفسي، حينما عدت من بعثة إلى إنجلترا عام ١٩٥٥، درست فيها أدب المسرح العالمي، كانت طريقة تدريسي تحمل سمات الرجل الذي خبر الاتصال المباشر بطوائف كثيرة من الناس، وأزعم أن هذا قد ترك أثره على طريقتي في التواصل مع طلبتي.

خلال السنوات الثماني التي قضيتها في الإذاعة، تعرفت إلى الفكر الاشتراكي عن كثب، ووجدت فيه ـ كما وجد غيري من شباب الجيل ـ ردا واضحا على الظلم الاجتماعي ودليلا هاديا يوضح طريق محاربته، وقد كنت منذ سنواتي الباكرة شديد الإحساس بفداحة الظلم الذي يصيب الفقراء في بلدنا، وقد دفعني هذا إلى

مناصرة الفقراء بالقول والفعل، أذكر أن خادما كان يعمل لدينا جاءني ذات يوم شاكيا من أن أخي الأكبر قد ضربه، على الفور التقطت حجرا فصوبته إلى رأس أخي وأدبته، هنالك ضحك الخادم وقال: إنني كنت أمتحن مدى حبك لي وحسب!

على أنني اقتربت من الفكر الاشتراكي بعقل مفتوح، قبلت منه ما تعلق بمناصرة الشعوب المقهورة بعضها لبعض، ومبدأ أن ملكية وسائل الإنتاج يجب أن تكون للشعب ومبدأ تساوي الفرص أمام الناس، فلا يملك أحد كل شيء بينما يبيت جاره على الطوى، وأحسب أن هذه المبادئ هي التي تبقى من الفكر الاشتراكي وهي القادرة على تطويره في الظروف المتغيرة التي يمر بها العالم، عدا هذا، لم أشأ أن أنضم إلى الحركة السرية للاشتراكيين، وفضلت أن أعمل في العلن لتغيير المجتمع بالطرق السلمية ما أمكن.

وقد انعكست هذه النظرة الرحبة للفكر الاشتراكي على ما قدمته فيما بعد من نقد للأعمال الأدبية والفنية، فقد رفضت رفضا تاما، أن يقوم العمل على أساس ما يحمله من رسالة - مهما كانت نبيلة - وألححت على أن يقوم العمل الفني على أساس من جودته الفنية أولا - أن يكون له الحق في الحياة بوصفه عملا فنيا متكاملا، على أن يبث رسالته التي يريد إيصالها للناس بوسائل فنية وحسب، لا بالهتاف ولا بالصوت الجهير، ولا بالنبرة التعليمية الواضحة.

وحين سافرت إلى إنجلترا عام ١٩٥١، لأدرس الأدب المسرحي العالمي لحساب كلية الآداب، جامعة محمد علي - أسيوط الآن - حملت معي هذه الرغبة المفتوحة لتقصي حقائق الأشياء، بدلا من الاكتفاء بما يقوله عنها الدارسون والباحثون، وربما لحظ المجاهد الوطني النبيل فتحي رضوان هذا الميل فيّ، فقد قال لي وهو يودعني: ستعود من إنجلترا أكثر اعتدالا، يومها كان المجاهد الكبير يكافح

الطغيان الإقطاعي الملكي والاحتلال العسكري البريطاني، وكنت قد تعرفت قبل لقائه بشهور إلى جميلة كامل ـ شابة جامعية متفتحة، حديثة العهد بالتخرج في كلية الآداب ـ قسم الأدب الإنجليزي، رأيتها فأسرتني دماثتها وخلقها الرضي وتعلقها بالحياة العصرية دون بهرج ولا إعلان، كما شاقني منها استعدادها الدائم للخدمة العامة التي نذرت نفسها لها فور تخرجها، وقد كان من أبرز مظاهر التوفيق في حياتي أن تحولت علاقة الود بيننا إلى زواج، وحين بعثت إليها بمن يقول أني أطلب يدها، ردت قائلة: إنها تخشى أن أمنعها من العمل بعد الزواج، وكان ردي: أنني لن أكتفي بعدم منعها من العمل، بل سأبذل كل جهدي لكي تكون مواطنة عاملة ناجحة وفعالة، وقلت لها أيضا ـ بعد الزواج ـ إنني أعدك بأن أجعل حياتنا شهر عسل متصلا، وليس مجرد أيام سرعان ما تنقضي، وقد كان من فضل الله عليّ وعليها أن اتصلت حياتنا الزوجية منذ ١٩٥١، كان كل منا نعم القرين للآخر، مساندا له في السراء والضراء معا.

في إنجلترا قرأت الأدب الإنجليزي وأدب المسرح العالمي، وشاهدت المسرح والباليه واستمعت إلى الموسيقى العالمية، وأنهيت مدة البعثة ـ أربع سنوات ـ بالحصول على درجة الدكتوراه، وأهم من هذا كله عشت الحياة التي كان يحياها الإنجليز آنذاك وراقبت عن كثب تطورات المجتمع الغربي السياسية والاقتصادية، وفي قمة احتدام الحرب الباردة بين المعسكرين قلت لزوجتي: إنني أرى أن الصراع لن تحسمه الأيديولوجيا بل التكنولوجيا، وأن السابق في الميدان الأخير هو الذي سوف يتسنم القمة العالمية، ولكني أضفت: إنني أرى الصراع بين المعسكرين سيفضي إلى قيام نظام ثالث ينبذ مساوئ الاشتراكية والرأسمالية، ويفيد من مزايا كل منهما.

وهذا هو الذي يحدث الآن ـ وإن كان بطيئا ـ يحدث في جمهورية

الصين الشعبية على وجه الخصوص.

وعدت إلى مصر عام ١٩٥٥ لأرى فيها نعيما وملكاً كبيرا، فجرت ثورة يوليو المجيدة بقيادة جمال عبدالناصر طاقات الشعب الحبيسة، وردت إليه اعتباره، وأعانته على التخلص من أعدائه وخصومه في الداخل والخارج، ومدت بصره إلى شعوب القارات الإفريقية والآسيوية واللاتينية، وحفظت له ماء الحياة بإنشاء السد العالي، وضمنت أمنه وموارده المالية بتأميم قناة السويس، لا غرو أن تكاتف الأعداء الثلاثة: فرنسا وإنجلترا وإسرائيل، (وانضمت إليهم أمريكا في السر) لمحاولة إسقاط عبد الناصر ووأد ثورة يوليو في مهدها، غير أن المخطط الرباعي لم ينجح في شيء من هذا، وفشل في زحزحة ثورة يوليو عن خطها الوطني القومي التقدمي العالمي.

أتاحت لي ثورة يوليو أن أرأس مؤسسة فنون المسرح والموسيقى في الفترة ما بين ١٩٥٩ - ١٩٧٣ فاشتركت مع زملاء لي أفاضل في قيادة الحركة المسرحية وفنون الأداء بصفة عامة وإيصالها إلى الشعب في المدينة والأقاليم والقرى أيضا، وقامت آنذاك نهضة فنية لم يسبق لها مثيل، مما دفع الفنانين في الشرق والغرب معا إلى عرض خدماتهم على هذه النهضة العارمة.

وفي عام ١٩٧٣ سافرت إلى الكويت لأعمل ضمن هيئة التدريس في كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية - كانت رحلتي إلى الكويت التي استمرت تسع سنوات متصلة علامة فارقة كبرى في حياتي، كانت الكويت آنذاك في قمة الازدهار والتفتح، فجذبت إليها أعدادا كبرى من المثقفين أغلبهم من المصريين، ومنحتهم فرص العمل الحر، دون أن تسأل أحدا منهم عن هويته السياسية، كان المطلوب فقط أن يقدم أفضل ما عنده لخدمة الميدان الذي يعمل فيه.

في تلك السنوات الزاهرة تعلمت على الطبيعة، كيف أكون مواطنا

عربيا، كانت الكويت تعج بأجناس مختلفة من الناس، لقيت الفلسطينيين والسوريين والعراقيين والسودانيين والتونسيين، إلى جوار الكويتيين بالطبع فتخلص إليّ من هذا الاحتكاك المثمر إيمان لايتزعزع بالقومية العربية وضرورة استمرارها في البقاء خدمة للعرب وللعالم معا، وشاركت في تشكيل عقول شبان وشابات انتشروا في أرجاء الوطن العربي، حاملين معهم النور، وتعرفت إلى نخبة من كبارالمثقفين الكويتيين على رأسهم الراحلان العزيزان: عبدالعزيز حسين وأحمد العدواني، فضلا عن المثقف والفنان الكبير حمد الرجيب، وتعرفت أيضا إلى نساء كويتيات مثقفات بعضهن جلس إليّ في مقاعد الدرس، والبعض الآخر غشيت بيوتهن، وكن كاتبات ومثقفات وفنانات على رأسهن الكاتبة المرموقة ليلى العثمان.

واستعرض بعد هذا حياتي في عجالة فأجد أنني مدين للشعب المصري أساسا بما حصلت من تجربة ومعرفة، فقد دفع هذا الشعب الفقير المطحون نفقات تعليمي في جامعتين: القاهرة، وبرمنجهام، فأقسمت أن أرد له الجميل مضاعفا.

وأجدني مدينا كذلك لأبي وأمي، كان أبي شديد الولع بالمعرفة والتقدم، أنفق آخر ما يملك على تعليم أولاده، أما أمي فقد كانت كالشجرة الظليلة الراسخة، منها تعلمت حب الناس البسطاء، والعطف على المرأة التي طالما نبهتني إلى ما تعانيه من عنت وقهر في مجتمع يحكمه الرجال، وقد أحببت هذه الأم الحنون، وطالما عقدنا جلسات غنائية نتغنى فيها - معا - بالأغاني السائدة آنذاك.

وأجدني مدينا كذلك لأخي أمين الراعي، الذي وقف إلى جواري وقفة الرجل الشهم النبيل، كان أبي قد مات بعد إتمامي للدراسة الثانوية، مات فقيرا كما عاش، فالتف حولي بعض من أفراد الأسرة وقرروا ألا مفر من أن أعمل بالثانوية العامة، وما أن سمع أخي أمين

بهذا حتى ثار ثورة عارمة، وأصر على أن أتم تعليمي الجامعي، ودفع من إيراده المتواضع ما عنى هذا من تكاليف، وكانت ـ لحسن الحظ ـ قليلة، فقد كنت أتعلم في الجامعة بالمجان، مستفيدا من منحة التفوق التي كانت تقدم لي كل عام، وقد زاد من نبل موقف أمين أنه هو نفسه لم يستطع أن يتم تعليمه في كليات الجامعة، واضطرته الظروف إلى الاكتفاء بمعهد التربية، فحرم بهذا من حق واضح في أن يستزيد من العلم.

كان أمين أخا وصديقا لي، وكنت أراجع دروسي إلى جواره، فحفظت معه (مصرع كليوباترا)، وتعرفت إلى مدارس علم النفس المختلفة، وأخذت أردد أسماء فرويد، وآدلر ويونج ومدرسة الجشتالت، وسمعني مدرس اللغة الإنجليزية في مدرسة التوفيقية ـ وكان إنجليزيا ـ فحملني إلى حجرة الناظر، حيث كان يوجد مفتش إنجليزي يزور المدرسة، قال له: هذا الولد يعرف فرويد وآدلر ويونج، وعجب الناظر والمفتش، ثم نصحني الناظر بأن أهتم بصحتي فقد كنت بادي الهزال!

أستعرض وقائع حياتي وأقول: الحمد لله، قد آتاني الله فضلا كبيرا، وهيأ لي الفرصة كي أكون نافعا لنفسي وللناس، وإلى الذين سوف يقرأون هذه السطور أقول: ما من شعار ينبغي أن يتخذوه لحياتهم أوقع ولا أعظم من شعار: خير الناس أنفعهم للناس!

---

* العربي – العدد ٤٧١ – فبراير ١٩٩٨م.

مرفأ الذاكرة | فاتح المدرس

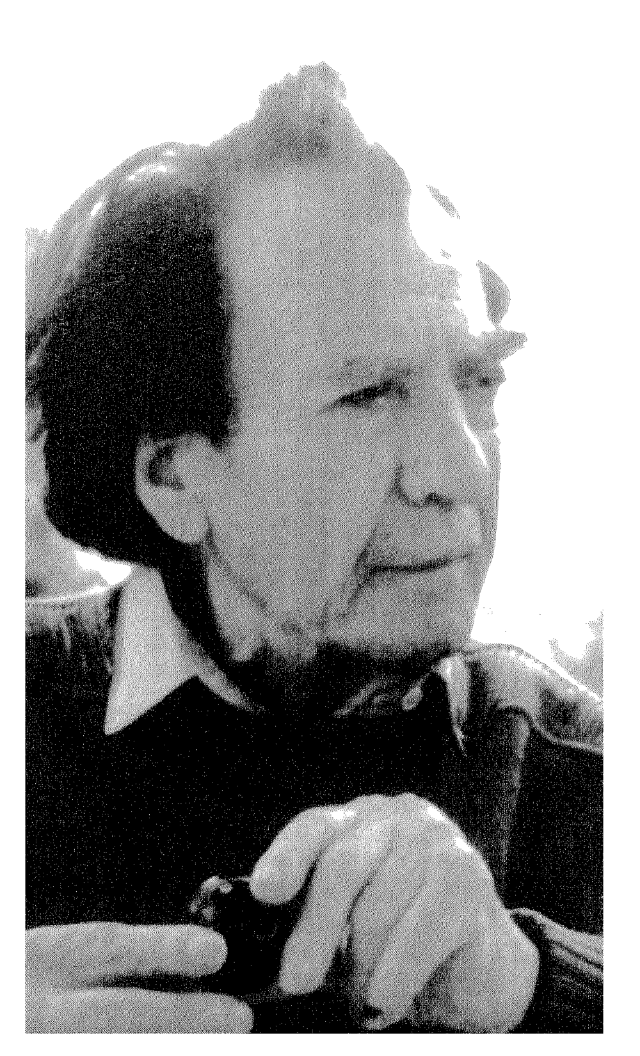
الوطن... بالريشة والكلمة *

ولدت في أقاصي الريف السوري في الشمال، كان والدي عبد القادر يسهم في الثورة السورية إبان الاحتلال الفرنسي، وكان ملاكا كبيرًا، قُتل وهو في السادسة والعشرين من عمره وعشت مع أخي كامل في كنف أخوالي الأكراد على الحدود السورية التركية، وكان الموت قتلا ظاهرة طبيعية لا يشعر بها أحد اللهم إلا الزوجات والأمهات.

هذا الطفل ذو الثانية من عمره الذي كنته أنا، استراح على عواء الذئاب في الليل وعلى سهول الأقحوان وشقائق النعمان نهارًا، وفي الصيف كنت أركض في الفلاة ألاحق جدارًا زجاجيًا رجراجًا من هواء الظهيرة مسدلاً بين زرقة السماء وتراب الأرض، وقبل أن أبلغه يكون قد ابتعد أكثر، وعلمت أنه «السراب».

أتساءل الآن وبعد مضي عقود كثيرة: يا ترى هل اخترقت هذا الحاجز الشفاف الرائع؟ هذا السؤال يستدعي تساؤلاً آخر وهو: هل كان ذلك الشيء رائعًا بحق؟ أبتسم الآن وأحدث نفسي: بلى كان رائعًا ولكن الدهشة هي ذلك الرائع الحقيقي، ما وراء السراب الرهيب.

توارت الدهشة، ولم يبق في ذاكرتي سوى صوت خيط الحليب وارتطامه بالأعشاب.



لقد تحولت الدهشة البصرية إلى ذاكرة سمعية. وأتساءل الآن... بعد عقود: هل هنالك في كياننا عالم آخر من صنف مغاير للعالم المحسوس الذي نعيشه بحواسنا،؟ هل هنالك عالم مواز لعالمنا هذا بالكاد أن يرى حواشي ضئيلة منه؟ على كل لا أريد جوابًا على ظنوني هذه، وإن كنت أتوق لجوانب أوسع مما ألمحه «متوهمًا» بين حين وآخر.

عندما أنجز عملاً تشكيليًا، أتجاهله لأمد وأتساءل: لماذا لا أبحث عن الأخطاء التقنية فيه؟» وأعرف الجواب سلفا: الذي يهمني من العمل هو أني عشت أخطاءه ثانية إثر ثانية، وأن العمل كله أخطاء أدارت ظهرها الجميل إليّ وأني لا أعرف وجهها إلى الآن.

وأحيانًا يقف إلى جانبي الأيمن- وأنا أمام لوحة بيضاء- جميع القتلة يتشاورون، وأتجاهل النظر إلى وجوههم، لأني أعرفها وسأطبعها الآن على سطح هذه اللوحة، أسود، أحمر، أصفر، ولون رابع ستولده الألوان الثلاثة، ولكنه غير موجود في العمل، على المتلقي أن يحدده.

وتمضي الخطوط الجرافيكية على مسارب التكون. هل هذا الخط الممتد من جانب الرأس حتى الفقرات القطنية هو من مشرط جراح أم من سلاح القتل، ويختفي القتلة، ربما عادوا إلى قانا أو الخليل أو جنوب لبنان أو إلى مرتفعات الأراضي، إلى أي مكان، على كل حال إنهم في كل مكان وإنهم من هذا العالم، وأتساءل: من هو هذا الإنسان الذي رسمته الطبيعة وجئت أنا لأتمم بشاعته، هل حقًا كان الإنسان ملاكًا؟ وهل وهل. . . . . في قلب كل ملاك قاتل محترف؟

لونان متطاحنان ومتجاوران، ما هو شعورك إزاء تنافرهما؟ هل هنالك أي حوار بينهما؟ أم التساؤل كلمة عبث في عبث؟ هل هنالك أبجدية للغة اسمها لغة اللون؟ وتلك للموسيقى، ولغة سرية عجيبة العجائب اسمها لغة «الحدس؟ لا أريد الخوض في جدل يختلف فيه الناس ويثير الكثير من الضوضاء. دعنا نكتفي بتلمس فروة هذا العملاق الشفاف الذي يمثل الجانب

المستقل من العقل البشري، أقول «بشري» ولا أقول «إنساني»، إذ إن الأول محصن ضد تراكمات المعرفة أما الثاني فيعتمد في أحكامه على لبنات وحديد وحواجز صماء مسبقة الصنع.

عندما أباشر بالعمل- لوحة- أو قصة قصيرة تكون المحاكمات الأولى تئز كالحشرات الليلية حول رأسي، ويبدأ غبار المعركة يشكل أمام عيني وعلى جوانبهما العمايات الجلدية التي يضعها سائق العربة حول عيني الكديش، أسمع ذلك الصوت الرائع من بعيد يأتي إلي محذرًا، «اترك العمل الآن».

إنه هس الحدس، فأجلسه بعيدًا عن اللوحة أو الورقة، يعود الهمس، أسمع. . ابدأ من الصفر!

البدء من الصفر يعنى شيئًا واحدًا، إلقاء جملة المعرفة وأحمالها في سلة القمامة.

وتمر دقائق مديدة وأحدث هذا الصفر:

– عزيزي الصفر الرائع متى ستوصلني إلى الواحد؟ أعود لأقف مرة ثانية أمام اللوحة، امرأة نائمة وإنها- يا إلهي- إنها لا تتنفس.

وأدرك أن اللوحة الفارغة هي تراب جميل نظيف نسيت أن أزرع بذرة فيه، وأن ساعة الصفر لبدء الرسم لم ترن في أذني، عليّ بانتظار أن تورق وريقاتها الأولى في جنة الحدس.

الفنانون الذين يهرولون إلى مراسمهم ويعملون كما يعمل النجار أو الحداد أو السياسي المرتزق وقد تسلحوا بالمناشير والمطاريق لا ينتجون إلا الزبد الفكري.

من الثورات المهمة في تاريخ الفنون الجميلة في أواخر هذا القرن ثورة الفن التشكيلي الذي أعاد النظر في قيم البراعة، وراح يبحث عن الحدوس المستقبلية.

وهذه الحدوس المستقبلية حرم منها أطفال العرب وأبناء الصحراء والبادية، علما بأنهم وحدهم عايشوا السراب، وهم وحدهم المرشحون

لاختراق جدار السراب. لأنهم وحدهم يحملون في ذواتهم بذرة الحدوس الجمالية.

هذا إذا اعتقدنا أن الجمال وحده يستطيع إنقاذ العالم من القتلة.

ها إني أضع في أعمالي وجوه القتلة، بجوار وجوه ضحايا القتلة، وأترك لحدس الإنسان أن يفتح حوارًا شخصيا معي.

أنا لا أرتجي من المتلقي الكثير، كل ما آمله أن يضع يده على قلبه ويعود إلى معين الطفولة الثري الذي كون بشكل تلقائي لغة اللون والخطوط الإنسانية، إذ إن هذين العاملين هما ما يتركه الإنسان خلفه في رحلته في هذا العالم اللامعقول!.

يتساءل البعض: هل للثقافة تأثيرها على إغناء الفهم الجمالي للون؟.

لا إجابة عن هذا السؤال إذ كل متلق وجهة نظره، إن دخول مجمل حضارتنا الجمالية أو إلغاء الجمالية إلى القرن الحادي والعشرين لن يكون إشراقة تجديد لأخلاق الجنس البشري إذ إن القتل سيكون السيد في القرن المقبل، وعلى ضوء هذا التقرير المؤسف ستتحول المفاهيم الجمالية إلى علاقات بصرية أو سمعية في غاية السأم وإعلان موت عامل الرحمة التي نادى بها الأنبياء، وبالتالي ستكون مقبرة الفنانين محددة وراء الخط الفاصل بين القرنين الحالي والقادم.

الوردة والفراشة لا وجود لهما في القرن الحادي والعشرين فالفن كجمال إنساني مجسدًا بالأخلاق، والذي نادى به الفلاسفة منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى نهاية القرن التاسع عشر لم يلق أذنًا صاغية إلا من حفنة من الشرقيين، أما القرن العشرون فقد اعتمد القتل الجمالي وذبح الحاجة إلى عالم جميل بسكين إلكتروني ذي فعالية بالغة.

أي حضارة؟! أي إنسان؟!

لعل بعض قراء هذه الخواطر المعتمة يقولون: كلنا أخلاقيون ونزرع أزهار المحبة والرحمة ونكتب الشعر ونعزف على ناي الأخلاق.

فأجيب: هل زرتم مقبرة جماعية في البوسنة؟

إني أتساءل، بحزن عميق: ماذا يستطيع الفنان التشكيلي أو الأديب الشاعر أو الموسيقار أن يفعل أمام حفرة تحوي آلاف جثث الآدميين الذين قتلوا رشًا ودراكًا أمام بعضهم البعض؟

هل يرسم زهرة في إناء؟ هل يرسم حبيبين في حالة عناق؟ هل يرسم السماء الزرقاء الرائعة؟

والإنسان فنان رامز، الحيوان لا يعرف الرموز، فهل يلجأ الفنان إلى الرموز في أعماله؟ تظهر بعض الوحوش الآلية في أعمالي، وبعض الوجوه التي ولدت خرساء، ثبتت على جدار الليل في الحرب الأهلية اللبنانية، كل هذا وذاك في لوحات تستدرج البصر وتمنحه مسرة غامضة، هذه المسرة اللونية هي من صلب تكوينات D . N . A لدى الإنسان الصياد.

من الشروط الجمالية لدى فن كل شعب هو توليده الرموز اللونية، الجرافيكية، شكلاً يطفح بالجمال السري. . هكذا تنمو الكنوز الجمالية في العالم وهي رموز جغرافية محصنة مثل نبات لا ينمو إلا في مناخ «الوطن».

إن القرون الأخيرة في حياة الشعوب العربية استطاعت بما تفرزه من التيتم، والترمل، وأطنان الألم والقهر أن تحرم العرب من لغتهم. كيف؟ بتفريغ محتوى الكلمة من معناها، خذ مثلا: شرف شجاعة، كرم، علم، حضارة، فن، أدب، موسيقى، عدالة، ديمقراطية، جمال، رجولة، عمل . . . إلى آخر ما هنالك من القيم والشروط الاجتماعية البناءة أصبح لها معانٍ أخرى مغايرة، ولا أريد أن أشير إلى توابيت هذه الكلمات التي كانت رموزٌ حضارة رائعة، وإني أتساءل: هل هنالك أي نية لترميم الخراب الكبير الذي أصاب لغتنا الجميلة؟ حتى الآن لم يتم ذلك، وكان من جراء ذلك أن انحسرت الموسيقى، وتراجع الشعر بل مات تماما وكذلك الأدب، وإننا استعضنا عن هذه القيم بعمارة مستعارة لا ترضاها شمسنا ويرفضها ليلنا الكريم.

وهكذا. . . نجد أن ما انسحب على العالم الحضارية ذات فالفنان المعاصر بكل بساطة يستخدم لبنات وحجارة مسبقة الصنع فهذه الاستعارات

اللا أخلاقية في البنائين التشكيلي والأدبي لا تصنع فنًا، أما المأساة الماثلة بقوة فهي صوت الموسيقى في قلب كل ملاك قاتل محترف في رسالة وجهتها إلى الشاعر الفلسطيني محمود درويش ختمتها بهذه العبارة: عزيزي الشاعر محمود، عبثًا نحاور الشيطان بالكلمات لأن الشيطان يعرف سلفًا قبل أن يطرد من ممالك الله . . أن في قلب كل ملاك قاتلاً محترفًا.

كثر، من أصدقائي شجبوا هذه العبارة، وإني أقول صادقًا: لماذا كتبت هذه العبارة الرجيمة وعلقتها على جدار مرسمي وإني في هذا اللقاء لن أحاول إيجاد تبرير ما شعرت به من حدس ملعون مثل هذا وأترك للقارئ أن يتأمل وبقليل من الأناة السياسة الأمريكية والأوربية، كيف تعالج القتل المجاني، الجماعي وفي موطن الفلسفة والعلوم والآداب والموسيقى وحقوق الحيوان، وحقوق الإنسان وتعرية غابات الفيتنام بقنابل لا يتقن صنعها إلا ذلك القاتل في قلب ذاك الملاك!!

وهكذا عندما رسمت لوحة بيروت في ليل الحرب الأهلية، وعرضت في بينالي سيئول ١٩٨٦، جاءني كتاب من أحد رواد المعرض الدولي ذاك يقول: إني لم أستطع فهم الابتسامة للسيدة في السائل الأزرق. . هل تتكرم أن تشرح لي ما تريده؟ طبعًا لم أجبه على تساؤله لأني أنا نفسي أرفض أي شرح.

وكل فنان يبحث عن هذا «الجسر الملعون» بين الرسام والمتلقي، بين عمله وعيون الزوار، وبما أن الرسم لغة صامتة، ولا تعرف أبجديتنا، وأنها لغة لها رموزها، فمن العبث تحويل ما تلم به اللوحة إلى كلمات ولعل هذه الحقيقة- إن كانت حقيقة- هل التي وضعت الحاجز الساخر بين العمل الفني والناقد التشكيلي.

إني أحاول جاهدًا قبل البدء بالعمل استبعاد النقاد عن ذهني، واستبعاد القيمة المادية للوحة لأن هذين العملين الأحمقين الرهيبين باستطاعتهما طعن أي عمل جمالي- أقول جمالي تجاوزًا- لأن العمل حتمًا سيولد ميتًا ولم ينج عمل واحد من هذه المطحنة.

العمل الفني هو نتاج ذات واحدة، وكل استعارة من خارج الذات الصانعة هي تدمير كلي للعمل.

كان ذلك مساء أحد أيام الصيف في روما، التقيت به بجانب الأكاديمية حيث مرسمي في فبادل بابونيو- أي شارع الفرد، في قلب روما حيث الأكاديمية وباعة اللوحات القديمة، لمس يدي، رجل قصير بوجه لطيف يرتدي نظارتين، بعينين حمراوين

- من فضلك فرماشيه «صيدلية»؟

تمعنت بوجهه مبتسما.

- البروفسور سارتر؟
- نعم أنا هو
- الصيدلة بجانبك . . دخلنا الصيدلية واشترى أسبرين وقال:
- أنت روماني من روما؟
- لا أنا من سوريا
- أرابو؟
- نعم أدرس في تلك الأكاديمية «وأشرت إليها».
- أنا تعب جدًا هذا المساء والألم في رأسي.

مشينا قليلاً وتمسك بذراعي الأيمن.

- بروفسور هل تتعشى معي في مرسمي؟
- بكل سرور . . أنت رسام، ومن الشرق.

عشت مع سارتر أسبوعًا وكان هارباً من باريس بسبب خلاف أيديولوجي مع الرئيس ديجول.

وفي المرسم رحت أدعو لأجله بعض الأصدقاء المتنورين من الطليان وكان يحب أن يشارك في طبخ السباجتي ويحب النبيذ الإيطالي الأبيض- وكان يفهم الإيطالية قراءة ولا يحسن الكلام بها.

هذا الأديب العظيم والفيلسوف الرائع، كان خفيف الظل، هادئا في نقاشه، وكان يتحاشى كل ما هو خارج دائرة الطبيعة الإنسانية من حيث

طرق المواضيع بشكل مفتعل، كان بسيطا مثل الهواء والماء، له رأس مستدير جميل ويتحاشى النظر في عيون الآخرين، إذا تكلم فهو كإبريق الزيت ينساب اللفظ من وجوده كخيط الزيت.

- أستاذ سارتر لماذا انتخبت هذه الأعمال دون غيرها؟

- أريد شيئا منك. أعمالك تتراوح بين التجريد الرصين ووجود الطبيعة كما نراها في الحلم، حتى إنسانك يتمتع بالقوة والغربة، والصمت.

- ما هو رأيك في الفن العربي الكلاسيكي، هل تستطيع أن تصنفه ضمن المفاهيم العامة للفن التشكيلي؟ ألا تعتبره جزءا مكملا للعمارة. ؟

- حتى الفن التريني بما فيه Art Aplique «الفن التطبيقي» إذا كان صاخبًا هو فن تشكيلي تام.

ومرة كنت أرافقه من شارع ألفرد إلى ساحة العمود حيث فندقه: عندما سألته:

- مسيو سارتر كم ضحية جزائرية تم قتلها في هذه الحرب الفرنسية الجزائرية؟ أعني الثورة الجزائرية.

- ثمانمائة ألف حسب إحصاء الإذاعات «عام ١٩٥٩». وصلنا إلى الفندق وقال وهو يتابع الحديث:

- ستقرأ رأيي في الثورة الجزائرية غدًا في جريدة Paese Sera «الوطن المسائي».

وأردف وهو ينهض من مكانه:

- لن أغيب طويلاً

وسار إلى نهاية الصالون وقلب عددًا من الكراسي في طريقه ورفع سماعة الهاتف وكنت أسمع صوته من بعيد، غاب ساعة كامله وعاد نشطًا وقال:

- أمليت مقالاً على مجلة «الأزمنة الحديثة» وغدًا سيصل المقال إلى روما وتقرأه.

اقتنى أربع لوحات من أعمالي. وسمعت بعد سنوات أنها مسجلة ضمن

إرثه بعد وفاته.

ترجم لي- رحمه الله- أربع مقطوعات من شعري الحر من الإيطالية إلى الفرنسية. ودعاني لأزوره في باريس وذهبت في بعثة جامعية إلى «البوزار» وكان بيته بجانب الأكاديمية ولكني لم أحاول لقاءه، لأن اتجاهه الأيديولوجي اتجه نحو دعم الصهيونية بسبب بنت صبية يهودية عاشت معه في سنواته الأخيرة.

وكلما فكرت بهذه الحادث يتنابني شعور غامض: هل حقًا في قلب كل ملاك قاتل محترف؟

كان اسمه يانكل، يعمل مدرسًا في أكاديمية باريس «البوزار» وكنت من نصيبه إذا انتخبني أن أكون في عداد طلابه الاثنى عشر، تماما مثل حواريي المسيح، كان ذلك عام ١٩٦٧ سنة الحرب العربية مع إسرائيل وحلفائها.

غاب هذا المدرس أو البروفسور الذي كان شابًا في الأربعين يحوم حول أعمالي وينظر إلى جانب من عينه اليمنى، غاب خمسة عشر يوما وعاد نشطًا يتجول بين طلابه في المرسم الضيق ووقف بجانبي ووضع رجله اليمنى على المقعد المفروض أن أجلس معه.

- مسيو مدرس ما هو هذا العمل؟
- كما ترى بروفسور يانكل.
- إني أرى كوفية فلسطينية.
- هي كذلك.
- وكذلك الطفل على ظهرها بجانب البندقية.
- إنه فلسطيني صغير وتلك بندقية أبيه.
- أراه ملثمًا؟
- نعم في فلسطين كل الأطفال يولدون ملثمين.

تراجع وهو يقطر سمًا ووقف على بعد متر ولف ذراعيه حول صدره:

- مسيو مدرس هل تعرف أين كنت خلال غيابي عنكم؟
- .... ؟

- كنت في ساحة الحرب في إسرائيل حرب الأيام الستة!!

- تقصد في فلسطين . . اسمع يا أستاذي المحترم هل تعلم أن العرب مدينون لإسرائيل؟

- بماذا أنتم مدينون لنا؟

- عدنا نحارب من جديد ولا أظن أن هذه الحقيقة ستتجاهلونها بعد اليوم.

دعيت إلى معهد العالم العربي في معرض استعادي عام ١٩٩٤ أي بعد أكثر من ثلث قرن، وكان هذا الأستاذ «يانكل» ضمن المدعوين . . اقترب وأخذني بالأحضان.

- مسيو مدرس مسيو مدرس وأخيرًا.

تأملت وجهه مبتسمًا وقلت له مبتسمًا:

- هل تذكر الذين يولدون ملثمين؟

لم ينتبه لما قلت لأنه أولاً فرنسي وحرب الأيام الستة ستكون حرب الألف عام. وأنهم يعرفون جيدًا الآن «لقد عدنا إلى القتال- أعني الشعب هذه المرة!».

لوحة كبيرة في متحف معهد العالم العربي تمثل المحاربات السوريات وأطفالهن، هل هم من النازحين أم المقاتلين؟

لا أحد يعرف

أنا أيضا لا أعرف

والعمل ينضح بالفرح

والقوة بلا صرخة آه

فعندما تقف الكلمة حائرة أمام اللوحة تكون اللوحة حدسًا لا فكرًا

والعودة إلى القصص القصيرة التي كتبتها في الستينيات والسبعينيات «مجموعة عود النعنع» تكشف قليلا عن العالم «الكلمة» الموازي، واللامرئي من «الصورة الشكل».

ومرة . . وكنت في روما، وصلتني بطاقة من صديقي الفنان الدكتور

لونز، تعلن عن معرض يقيمه هو ويتخلله تقديم دراسة مستفيضة عن الفنانين العشرين المشاركين في المعرض وبينهم بيكاسو وفاتح المدرس.

وما إن عرف أصدقائي الطليان بالنبأ حتى انفجروا ضاحكين.

قال أحدهم:

- أنت أيها الفلاح السوري تعرض مع بيكاسو؟! ولم أرد عليه، كان الرد من خلال المشاركة في المعرض وردود الفعل الإيجابية من الجمهور تجاه لوحاتي.

هنالك الكثير من وجوه غربة الإنسان استحال علي رسمها فعوضت ذلك بالكلمات، فالكلمة هي هيولا من نسيج الكون ولا يمكن رؤية أشكالها أو ما يوازي أشكالها، إلا في أعماق جمجمة الإنسان السحيقة، تلك الصور لا علاقة لها بالشكل المرسوم، وأداة ترجمتها الوحيدة هي «العين» أما الكلمة فلها جهاز رؤية آخر لم تكتشف ميكانيكيته حتى الآن.

---

* العربي - العدد ٤٨٢ - يناير ١٩٩٩م.

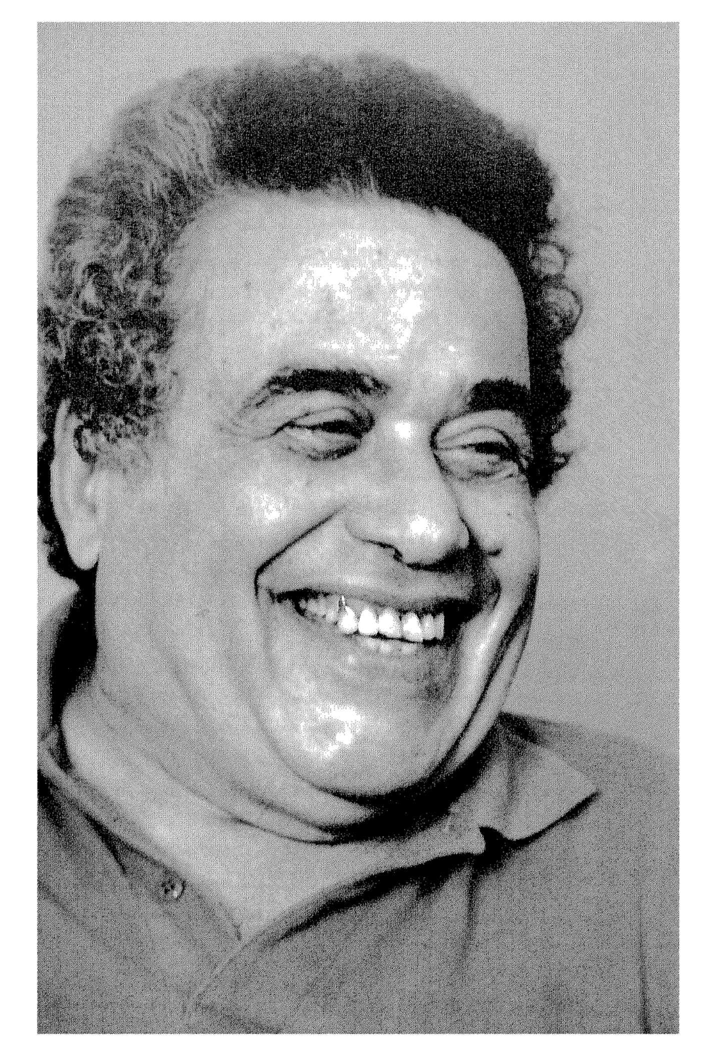
مغامرة التفكير الحر*



جهود كبيرة وكثيرة حرثت وزرعت بإخلاص في حقول الثقافة العربية المختلفة، وها هو بعض من حصاد عمرها، للحاضر والمستقبل

تدعوني مجلة (العربي) الغراء إلى كتابة مقال أو شهادة تكون أقرب إلى البوح الذاتي أقدم فيها ثمرة تجربتي التي هي حصاد السنوات الطويلة من التعامل مع الشأن الفكري، كما تطلب أن تكون هذه الشهادة في حدود خمس أو ست صفحات وأبدأ بأن أعلن أن الاستجابة إلى هذا المطلب على هذا النحو مستحيلة، ولو دخلت تجربة أو مغامرة الإجابة فربما اقتضى الأمر سنوات، ولذلك سمحت لنفسي بأن أختار جانبا من تجربتي، فأتناول بعض ملامح التطورات الثقافية والفكرية التي تعرضت لها أو تأثرت بها أو ساهمت في وقت ما بالمشاركة في صياغتها، وأقول (الملامح) لأني لا أستطيع أن أتناول التفاصيل التي تحتاج إلى مجلدات ومجلدات.

تكفي العناوين العامة لملامح رحلتي الثقافية والفكرية منذ كنت طالبا في الجامعة بكلية الحقوق في الأربعينيات حتى يومنا هذا



ونحن نودع القرن العشرين لترتسم أمامنا خريطة للتطورات التي مرت بها ثقافتنا منذ الحرب العالمية الثانية، إذ كانت البداية بالنسبة لي والجامعة تموج بالمظاهرات وطلبة الأزهر يتقدمون مع طلبة جامعة فؤاد في شوارع القاهرة يهتفون (إلى الأمام يا روميل)، القائد الألماني الذي ذاع صيته كثعلب الصحراء، وكان يطرق أبواب العلمين على بعد تسعين كيلو متراً من الإسكندرية بقوات الفيلق الإفريقي الذي أعده أدولف هتلر لغزو مصر، وقطع الطريق على الاتصالات البحرية بين الحلفاء والهند وجنوب إفريقيا ـوكانت سيارات الجيش الإنجليزي تجوب شوارع القاهرة مسرعة، تحمل العتاد والأثاث مما كان يدل على أنهم شرعوا فعلا في الجلاء عن القاهرة.

ما هي ملامح أفكار شاب مراهق وسط هذه الأحداث التاريخية التي تقرر مصير العالم لعدة أجيال قادمة؟ كنت أشعر بفرحة لمظاهر انكسار الإنجليز الذين يحتلون بلادي منذ حوالي ستين عاما، لكنني لا أشعر بفرحة لتقدم روميل، بل ينتابني قلق شديد وهواجس أننا نستبدل غطرسته وجبروت ألمانيا، بالاحتلال الإنجليزي واستغلاله وسيطرته على حياتنا، وكان الشيء الواضح هو أن الأقوياء يحاربون في أرضنا ونحن بلا حول أو قوة، والقوة الألمانية أو الإنجليزية هي قوة عقول ونظام للحياة وحضارة نحاول في مدارسنا أن نتعلمها، درسنا اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية ونحلم مع الخديو إسماعيل بأن تكون بلادنا قطعة من أوربا، لكننا نريد أن نكون مثل أوربا بإرادتنا وبعقولنا وليس بالخضوع لقوة أوربية تفرض علينا التمدن، ولا وجه للمقارنة أو التفضيل بين ألمان وإنجليز، الكل سواء، أجانب يريدون السيطرة علينا.

لكن معارك الحرب فتحت الباب في الجامعة لهبوب تيارات فكرية أخرى، كانت تصل إلينا وتدعونا أن نتأملها أو ننجذب إليها

ونشارك معها.

عرفت في كلية الحقوق لأول مرة الشباب الشيوعي، وكانت لهم طريقتهم الخاصة لتجنيد الشيوعيين، وهي الدخول في علاقات شخصية وصداقات حميمة ومناقشات مستمرة في جو لايخلو من المرح،ولقد عرفت شبابا من اليهود في الجامعة كانوا يروجون للأفكار الشيوعية من خلال حفلات الشاي والرحلات والرقص واختار شاب يهودي أن يعقد صلة معي بأن يساعدني على أن أتعلم اللغة الفرنسية بأن أشترك معه في ترجمة كتاب لأديب شيوعي، وهو رواية (أصبح الحديد صلبا) لأوستروفسكي.غير أن الشيوعية لم تنفرد وحدها بالعمل في الجامعة، فكان هناك تيار قوي آخر يرفع شعارات الإخوان المسلمين، وكان تياراً مشروعا ترحب به السراي وتراه يساندها ضد الأحزاب السياسية التي تتبادل الحكم، وكان مسموحا للشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان بأن يلقي محاضرات في قاعة الاحتفالات الكبرى تحت قبة الجامعة، ولقد استمعت إليه وهو يخطب في تلك القاعة قبل أن أستمع فيها لجمال عبدالناصر بعد ٥ سنوات.

وبرغم أني تعرضت بقوة لكلا التيارين الإخواني والشيوعي فإنني لم أنجذب لهذا أو ذاك، وكان الإحساس الذي يغالبني هو أني لا أفهم بالضبط ماذا يريدون، وحفلات الشيوعيين لاتريحني وهتافات الحناجر والعروق النافرة للإخوان لاتدعو إلى الاطمئنان، ولعل الذي منحني حصانة من الانجذاب إلى أحد هذه التيارات، هو أني نشأت في بيت يهتم بالعلم، وكان يتردد عليه كبار الأدباء والمفكرين بينهم العقاد وطه حسين والسنهوري، وكان والدي مشغولا بتأليف كتاب عن (جان دارك) وتوفي بعد طبعه بعدة شهور عام ١٩٣٦ وترك لي مكتبة كبيرة حاولت أن أشرع في مراجعتها وترتيبها على نحو أفهم منه موضوعاتها المختلفة، فكان لذلك تأثير لازمني يدفعني أن أراجع

بعقلي كل ما أتعرض له من أفكار، وكانت هناك كتب في المكتبة تتحداني بينها كتب التراث الإسلامي وقد نبهني إليها منذ طفولتي أستاذي الأزهري الذي قرأت معه القرآن وأنا في الخامسة، ومن بين هذه الكتب (الفصل في الملل والنحل) للإمام بن حزم و(الملل والنحل) للإمام الشهرستاني وكتاب (تهافت الفلاسفة) للإمام الغزالي، وقد فوجئت بكتاب كبير مترجم بالإنجليزية عن الألمانية لفيلسوف التاريخ (أوزفلد شبنجلر) عنوانه (أفول الغرب) وكان يتكلم عن الحضارة العربية أو (السحرية) بين حضارات الفراعنة واليونان والغرب، وكان يذكر أسماء كبار المفكرين المسلمين كالغزالي وابن رشد والبيروني، ويتكلم عن نشأة الحضارات وازدهارها ثم شيخوختها وموتها ووجدت في هذه الحركة لأطوار الحياة ما يجيب عن عدة استفسارات كنت أكتمها في صدري عن أسباب أفول الخلافة الإسلامية والهزائم التي انتهت بسقوط الخلافة في تركيا على يد كمال أتاتورك.

وشغلني أيضا كتاب للشيخ محمد عبده عن (التوحيد) نشره الشيخ رشيد رضا وذكر فيه أن ما جاء في الكتاب لايجوز ذكره أمام (العامة) وكان يتناول الإيمان وضرورة أن يكون عن طريق العقل ويسأل ماذا لو فكر الإنسان بعقله فلم يصل إلى اقتناع، هل يموت كافرا، وأجاب عن السؤال بأن الشك ليس كفرا، لأن عملية التفكير والشك هي الطريق إلى الإيمان الصحيح، فالكفر لايتحقق إلابالإنكار والنفي، وجاء في كتاب التوحيد عشرات الآيات من القرآن الكريم التي تدعو إلى التفكير والتدبر للوصول إلى يقين بوجود الله.

كانت لهذه المناقشات تأثيرها العميق في نفسي، وهي التي جعلتني لا أنجذب بسهولة إلى ما أسمعه سواء من شيوعيين أو إخوان، وكانوا يضيقون بي عندما أحاول أن أناقشهم بحرية ويتهمونني

بأني شاب مرفه يتشدق بفلسفات وسفسطات ويذكر أسماء كتب ومفكرين لكنه لايعمل من أجل قضية وطنه، قضية العمال والفلاحين في نظر الشيوعيين، وقضية عودة أيام مجد الخلفاء الراشدين في نظر الإخوان.وساعدني في بحثي عن حرية العقل كوسيلة لفهم الحياة كتاب المؤرخ الإنجليزي المشهور لورد أكتون بعنوان (أبحاث ودراسات تاريخية) وقد شرح هذا المؤرخ الذي ينتمي إلى القرن التاسع عشر مفهوم الليبرالية وأجاب عن السؤال الذي كان يراودني، هل تصل الحرية إلى حد الفوضى، فقال إن لله قانونه الطبيعي أو ما يسمى بالعناية الإلهية التي تتكفل بإصلاح أي خلل يطرأ على الموازين، فالشر إذا طغى قابله الخير، والمرض إذا استشرى تصدت له عوامل المقاومة والشفاء، وقد أعجبتني هذه الإجابة، وأفادني حديث لورد أكتون عن الصلة بين الدين والليبرالية، في أن أتتبع بعد ذلك موقف التيارات الفكرية الحديثة من قضايا الدين ولاحظت أنها جميعا لها موقف تفاهم أو تفسير أو مصالحة مع الدين، وحتى (الحداثة) و(ما بعد الحداثة) في أيامنا هذه تقوم على تفسير مفاهيم الدين بالرؤية الجديدة للعلاقات المتشابكة والمراوغة في حياتنا المعاصرة.

وهكذا لم أنضم إلى خلية شيوعية مع أني حضرت جلسات لخلايا شيوعية، كما لم أنضم إلى الإخوان مع أني ذهبت إلى بيت المرشد العام الشيخ حسن البنا وجلست أستمع إليه وسألني عن اسمي مرحبا بي كطالب في الجامعة يدخل داره لأول مرة، وبهرني الاجتماع لكنه لم يصل إلى إقناع عقلي، حتى جاء بعض الأصدقاء يدعوني إلى اجتماع فإذا به دعوة إلى تكوين خلية إرهابية وقد جلست معهم أستمع، أحاول أن أفهم وأقتنع حتى كانت جلسة ثانية جاء فيها أحد أعضاء الخلية ومعه منشور مطبوع استعدادا لتوزيعه،

ووقف وهو طالب في الحقوق يناقش جدوى الاستمرار في المشروع ويرى أن الوقت غير مناسب والإمكانات غير متاحة، إلا إذا ارتبطنا بالآخرين أي الشيوعيين أو الإخوان، كان هذا الطالب هو (جمال العطيفي) الذي سوف يصبح وزيرا للثقافة والإرشاد في عهد الرئيس السادات، كنا كالسمك الصغير الذي توشك أن تبتلعه الأسماك الكبيرة، وكانت الحالة في مصر تدعو إلى الاختناق، حزب الوفد حكم مصر حتى خارت قواه، والملك فقد إحساسه بواجباته وانتشرت أخبار مغامراته ومغامرات أسرته، وفقد الجيش الولاء للملك أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨ واكتشاف صفقات أسلحة وذخائر فاسدة تورط فيها الملك ورجال حاشيته، وانقطعت الصلة بين الجماهير والملك الذي أصبح مكروها، وفي هذا المناخ جاء يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ليعلن عن حركة الجيش، وسرعان ما تخلى الملك عن عرشه وظهرت قيادة لحركة الجيش في جماعة الضباط الأحرار يقودهم اللواء محمد نجيب.

وجاء يوم ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ فألغت القيادة الدستور وقررت حل الأحزاب ما عدا الإخوان المسلمين، وهربت الأحزاب الشيوعية للعمل السري تحت الأرض بعد أن صدرت أحكام إعدام في إضراب للعمال بكفر الدوار، واختنقت الحياة الفكرية بسبب اضطرابات وعدم استقرار في الرأي بين الضباط الأحرار، بينهم الشيوعي والإخواني والفاشي والوطني البسيط، وتحدث بينهم احتكاكات تؤثر في المناخ الثقافي، كان من أوضحها أن الضباط لم يستقروا بعد على رأي حول إذا ما كانوا قاموا بحركة إصلاحية، أو تدخل عسكري مؤقت، أو ثورة سياسية، وكانت تعليمات الرقابة على الصحف تتغير من يوم إلى آخر، فلما جاء يناير ١٩٥٤ قررت قيادة الضباط إيقاف أي نشاط فكري سياسي حتى بين حلفائها من الإخوان المسلمين فصدرت

الأوامر باعتقال أربعمائة وخمسين من الإخوان، وكان لابد وأن تحدث موجة استياء بين المثقفين تطالب بالديمقراطية وإن اختلفت أسباب ودوافع المطالبة، وبدا أن الضباط الأحرار سوف يقبلون الانسحاب إلى ثكناتهم والإعلان عن انتخابات ديمقراطية، لكن الرقابة عادت فجأة يوم ٢٨ مارس ١٩٥٤ وصدر قرار بتأجيل الانتخابات، وتحركت مظاهرات يقودها ضباط الصف الثاني من الضباط الأحرار، هاجمت طه حسين في مكتبه بكلية الآداب وهاجمت عبد الرزاق السنهوري في مكتبه كرئيس لمجلس الدولة، وصدر قرار بحل نقابة الصحفيين، وصدرت قوائم بأسماء كبار الصحفيين اتهمتهم قيادة الضباط بأنهم كانوا يتقاضون الرشاوى من زعماء العهود السياسية البائدة، وصدرت أحكام بالسجن عشر سنوات وخمسة عشر عاما على محمود أبو الفتح وأحمد أبوالفتح صاحبي جريدة (المصري) وسحبت رخصة إصدار الجريدة.

تستطيع أن تصف هذه الفترة بأنها كانت تمثل هجوما صريحا وبالغ الجسارة من الضباط الأحرار على المثقفين جميعا يكشف عن حالة نفسية من عدم الثقة وشكوك في أن الشيوعيين يرتبون للاستيلاء على السلطة والإخوان من جانبهم يعملون على الاستيلاء على السلطة ورجال الأحزاب القديمة يتحركون لنفس الغرض، وإذا كان هناك بعض المثقفين الذين لاينتمون إلى هؤلاء أو هؤلاء فقد تصرفوا على نحو يجعلهم غير جديرين بالثقة، مثل بعض أساتذة ومدرسي الجامعات حول تأييدهم للثورة إلى نفاق وطلب للمناصب بينما استطاعت المخابرات أن تجند بينهم كثيرين، وساد الاعتقاد بين ضباط الثورة أن المثقفين الذين عاشوا في أجواء الماضي والأحزاب والملكية لا أمل فيهم.

وكان لابد من البحث عن أفكار جديدة، وفي هذه المرحلة كانت

فكرة القومية العربية هي التي نجت من الاتهامات، ولا أستطيع أن أقول إن الجماهير المصرية كانت بعيدة عن معنى العروبة والقومية العربية قبل ثورة ٥٢ والدليل على ذلك أن جميع الأفلام المصرية - تقريبا بلا استثناء - التي أنتجت في مصر خلال الثلاثينيات والأربعينيات حتى قيام الثورة كانت تحرص على تقديم أغاني ورقصات ولهجات عربية وساهمت بشكل أقوى بكثير من كتب ساطع الحصري أو من النشاط الحزبي في تأكيد الهوية العربية لمصر، غير أن الظاهرة العامة كانت تكشف عن وجود فراغ فكري كان يشعر بوطأته الذين تبنوا أفكارا اعتمدوا عليها كالماركسية أو الإخوانية أو التمسك بالحزبية القديمة، وكنت على عكس هؤلاء أشعر أننا نواجه الواقع الذي نعيشه بغير أفكار مستوردة وأقنعة نستر بها فراغ رءوسنا، ومع الأسف الشديد مازالت قضيتنا الأولى في تقديري حتى يومنا هذا هي البحث عن العقل العربي الغائب أو المعطل، ولقد هرب البعض إلى فكر غربي وآخرون لجأوا إلى فكر شرقي، كما هرب البعض من العقل ورفضوا التفكير، تجنبوا مخاطره في انتظار المعجزة أو تصاريف القدر.

وطبيعي أن طلب التفكير الحر ليس مطلبا سهلا، فمن يستطيع أن يحرر أفكاره وكيف، ومن يستطيع أن يصدر قرارا بأن نستخدم عقولنا في تفكير سليم حر، وتجربتي مع محاولة التفكير الحر وصلت إلى مواقف لها دلالتها في الظروف التي كانت تعاني فيها (الثورة) من مجاعة حقيقية في الأفكار، وإليكم هذا المثل:

حدث في الخمسينيات والثورة تناقش قضية التنمية الاقتصادية وتخوض معركة الاستقلال مع الإنجليز أن ظهرت اتجاهات تنادي بالتخطيط وكان عبد اللطيف بغدادي هو وزير التخطيط مما قد نفهم منه أن هناك أفكارا مدروسة للتخطيط تقوم على فلسفة

اجتماعية واقتصادية معينة، وحاولت أن أفهم ما هو المقصود (بالخطة) وكنت أكتب مقالات أشرح فيها الأفكار والكلمات السياسية التي يتداولها الساسة والمثقفون فيما بينهم، وقرأت عن تجارب في التخطيط في فرنسا وهولندا والاتحاد السوفييتي، فلاحظت أن كل مجتمع يتبنى التخطيط بفلسفة معينة ولتحقيق أهداف معينة، هولندا ضد الشيوعية وتتبنى التخطيط بفكر رأسمالي والسوفييت ضد الرأسمالية ويتبنون التخطيط بفكر ماركسي وفرنسا تتبع نظاما للتخطيط تجمع فيه بين الاشتراكية والديمقراطية والسوق الحر، وسألت نفسي ما هي فلسفة التخطيط وقد بدأوا يتحدثون عنها في مصر، كان السؤال هو محاولة للتفكير وبحثت عن دراسات أو مذكرات تفسيرية تشرح ما هو التخطيط بالمفهوم المصري فلم أعثر على شيء، عندئذ كتبت مقالا افتتاحيا في مجلة روز اليوسف قلت فيه إننا لجأنا إلى التخطيط تحت شعار (الضرورة)! هناك أزمة في تمويل المشروعات وأزمة في الخدمات وأزمة في الإدارة، وصيحات تطالب بضرورة معالجة هذه الأزمات، لذلك نستطيع أن نقول إن حديثنا عن التخطيط هو حديث (ضرورة)! إنه مطالبة بأن تتدخل الدولة لتعالج أزمة دون أن ترتبط بنظرية أو فلسفة، والشيء الوحيد الذي أفهمه ويبرر تبني أسلوب التخطيط هو نظرية (الضرورة)!

وكانت المفاجأة المذهلة أن يتصل بي وكيل وزارة التخطيط وهو الخبير العالمي الدكتور حلمي عبدالرحمن، وتقابلنا وسألني أن أنضم إلى لجنة يفكرون في تشكيلها لدراسة شئون التخطيط، واعتذرت لأني غير مختص بالأمر، لكني عرفت أن هناك مجاعة أفكار، والجميع مشغولون بالأشخاص والمناصب واللجان، كما عرفت أن كبار الخبراء لايفكرون ولايريدون الاستقلال برأي وأنهم حرصا على تأمين أنفسهم من مغامرة التفكير يكتفون بتشخيص الأزمة

وتوضيح أبعادها بدقة لكنهم لايتدخلون برأي في العلاج في انتظار ما يراه القائد، خشية أن يقول أحدهم رأيا فيرى القائد رأيا آخر فتكون نهاية صاحب الرأي المرفوض.

وفي لقاء لي مع مدير مكتبة الكونجرس في مطعم بميدان سيدنا الحسين قال لي المؤرخ الأمريكي المعروف (دانيل بروتشتين) بلهجة سؤال: هل تستطيع أن تقول مثلنا أنا خالق هذا الشيء؟

قلت له بسرعة: الخالق عندنا هو الله سبحانه وتعالى وقد نقول هذا من اختراعي وابتكاري واكتشافي، ولكننا لانقول هذا من خلقي!.

فقال لي: عالمنا المسيحي يرى أن الإنسان قد خلقه الله على صورته.

قلت له: ونحن نفهم ذلك في الإسلام.

فقال: لذلك من واجبنا أن نفعل كما يفعل الخالق.

وهذه صورة أخرى من ارتباط التفكير الحر بالدين، وهي ليست واضحة في أذهاننا منذ إغلاق أبواب الاجتهاد، فلم يعد المسلم يعرف متى يكون مسيرا ومتى يكون مخيرا .

وبحثت عن معنى كلمة حرية في القواميس العربية (أساس البلاغة) و(لسان العرب) فلم أجدها والمعنى الوحيد الذي اقترب من مفهومنا المعاصر للحرية جاء في نقيضه، فتقول (حر المملوك أي حرره مولاه وأعتقه)!

وعندما كنت رئيسا لتحرير صحيفة الجمهورية في عهد عبد الناصر طلبت من علي صبري أن يساعدني في الحصول على مذكرات المشير عامر عن سوريا فنظر إليّ كمجنون لأنه من المستحيل أن يقبل المشير (التفكير) فيما حدث بصورة علنية تفتح الباب للناس لأن تفكر في انفصال سوريا عن مصر وسقوط حلم الوحدة، ولو كان هذا الأمر في أي بلد آخر لخرجت مئات الكتب والدراسات

تبحث وتحلل كل صغيرة وكبيرة تمس حدث الانفصال من قريب أو بعيد وكان المفروض أن يكون المشير عامر هو الشاهد الأول في رواية وتقويم الأحداث.

وحدث ذات مرة أن دخلت في مناقشة مع صديقي أحمد بهاء الدين حول مفهوم الاشتراكية في مصر بعد أن أعلن عبد الناصر عن المجتمع الاشتراكي وبعد قراءات مطولة وتفكير (حر) خرجت بمعنى واضح هو أن الاشتراكية هي (تدخل الدولة) وهنا اعترض بهاء على ما كتبته بهذا المعنى وقال لي بذكائه غير العادي إنه اعترض حتى لايشجع السلطات على التدخل في كل شئون حياتنا باسم الاشتراكية، هم لايفهمون شيئا عن الاشتراكية وسوف يتمسكون بكلمة (تدخل) ويفرحون بها!

الأمثلة كثيرة تفوق الحصر لتؤكد المجاعة الفكرية، وإنهاك المثقفين في تحصيل المعارف المستوردة من هنا وهناك دون أن يهتم أحد اهتماما جادا بمواجهة الواقع ورؤيته بوضوح ودقة والتفكير في هذا الواقع تفكيرا حرا وليس مجرد ترديد أفكار ونظريات لاصلة لها بالواقع ولكن لها صلة بإحداث تأثير مطلوب عند السلطات التي تصدر القرار، وتظل الحقيقة تائهة وأذكر في حسرة الشيخ محمد أبوزهرة عندما كان يحاضرنا في كلية الحقوق ويناقش اختلاف الفقهاء والفتاوى ويتساءل معنا هل نبحث عن الحقيقة عند الفرد حتى لو خالف الأغلبية وما ضمان أن ما عند الفرد هو الحقيقة، ثم قوله إن الصواب الذي نفرضه على الناس بالقهر سيكون ضرره أكبر من نفعه، ومن هنا كان الأفضل والأقرب إلى الحكمة أن نأخذ برأي ومشورة الأغلبية ونترك للزمن والتجربة كشف وتصحيح الخطأ ونتحمل مسئولية اختيارنا .لاشك أن مطلبي منذ البداية هو أن أكون مفكرا حرا، ولاشك أن الظروف السياسية والاجتماعية

التي مررت بها ما كانت لتسمح بتنمية الفكر الحر الذي يحتاج إلى مناخ عام تسود فيه حرية الرأي على نحو مازالت قيود كثيرة تمنع تحقيق هذا المناخ، لكنني مارست الفكر الحر بكل حريتي في أعمالي الروائية، وهناك فرق بين أن ترى الشيء على حقيقته، وكما يستقر في نفسك بحرية كاملة على أنه الحقيقة، وبين أن الشيء متأثر بدعوة سياسية، ولقد مرت مصر بتجارب مريرة وخطيرة، حرب ٦٧ وموت عبد الناصر واغتيال السادات بعد كامب ديفيد والأحداث لاتنقطع والذي يهمني أن أدرك أولا ما الذي يحدث دون أن أصوغه في ثوب سياسي أو أتورط في تبرير أو دفاع، المهم هو الفهم أولا، وأن أقدم الرؤية الصادقة كما استقرت في نفسي من خلال أعمالي الفنية، وأعلنت أن الأدب أهم وأشمل وأصدق من السياسة قبل أن يقول لي (موروبرجر) أستاذ الاجتماع في جامعة برنستون ونحن نتناول الغداء في القاهرة في أوائل السبعينيات أنه بصدد الانتهاء من كتاب يقرر فيه أن الأدب هو المصدر الرئيسي لفهم المجتمع قبل تقارير تصدر عن مخابرات ورجال أمن وجواسيس وغيرهم، ولقد تأكد هذا المعنى بعد أن طغى فن الإعلام وفن الإعلان على ما يقرأه ويسمعه الناس من أخبار وتعليقات عن أحوال مجتمعهم وتحولت الانتخابات في أكثر الدول ديمقراطية إلى حملات إعلان، ولاينقذ الإنسان أو المواطن غير رؤية فنية صادقة عن مجتمعه.

وهنا اختتم هذا الذي كتبته بصورة تلقائية وبغير مراجعة بكلمات لزعيم فريق البيتلز (جون لينون) بعد أن تسيد الفريق على أذواق الجماهير في أوربا وأمريكا وأماكن أخرى كثيرة من العالم، سألوه: ما هي رسالتكم؟ فأجاب بعد تفكير: رسالتنا أن نصور الواقع كما هو للناس، قدمنا لهم لهجاتهم الشعبية وهمومهم في العمل واحتفظنا بطبيعتنا كعمال شعبيين من ليفربول، وأكمل لينون قائلا: أظن أن

الصدق في التعبير عن الواقع هو الرسالة الحقيقية.

واليوم والنظريات تنهار والتيارات الفكرية تتلاشى، والسياسة والإعلام والإعلان تختلط بالأحداث لتزييفها أشعر بأني لست نادما عى ما اخترته كطريق في الأدب والفن أو في السياسة، وأشعر بسعادة غامرة عندما أمتنع عن إصدار الأحكام بأن هذا صحيح وهذا فاسد لأني أقدم الواقع بكل ما أراه فيه من صدق ليصدر المتلقي حكمه بنفسه، وكلما تراجعت ككاتب في تواضع تقدم القارئ بشجاعة وأصدر بنفسه الحكم المطلوب، حرية الفكر ليست حكرا على إنسان مفكر يتبعه الآخرون، بل هي حرية الفكر التي يتلقاها كل فرد بحرية ويصدر فيها أحكامه الخاصة بحرية، وأقول دائما إن الله سبحانه وتعالى لم يصدر أحكاما نهائية على البشر وأجلها إلى نهاية الدنيا.

---

* العربي - العدد ٤٧٠ - يناير ١٩٩٨م.

مرفأ الذاكرة | د. محمد جابر الأنصاري

مرفأ لحقيقتنا الضائعة *



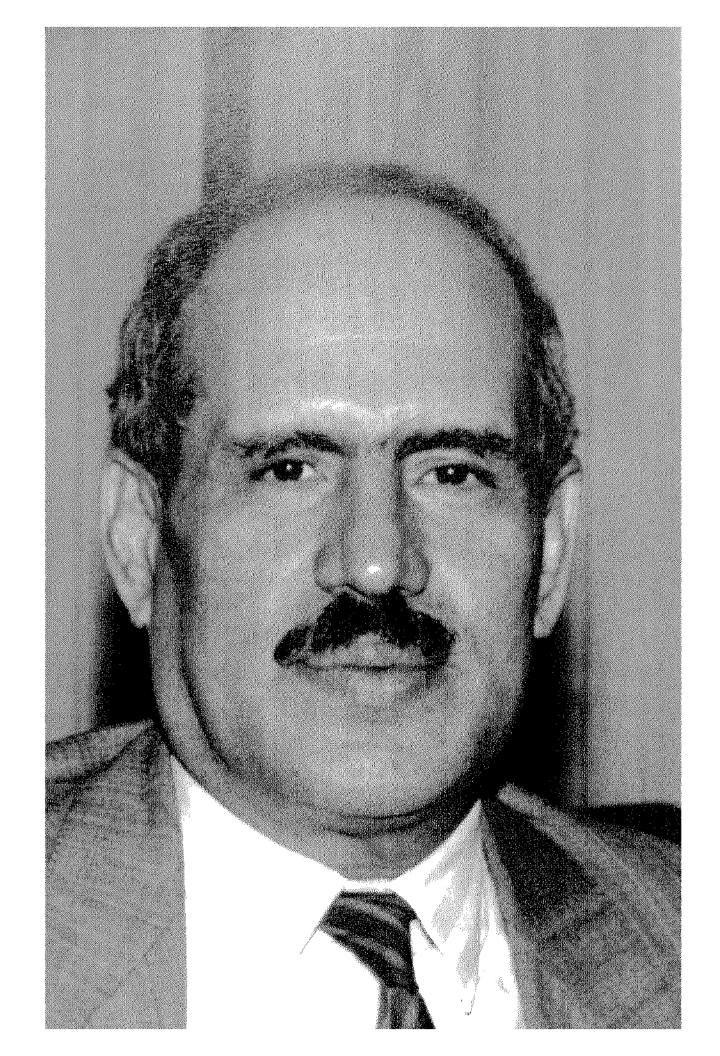
هل تبدأ ذاكرة الإنسان لحظة ارتطام وعيه الطفولي بحقائق الحياة، الأشياء، أم أن لهذه الذاكرة بداية أبعد غوراً بأزمان وعصور؟

لا أقصد بذلك مذاهب «التقمص» القائلة إن للإنسان «حيوات» أسبق عاشها في أزمنة وأمكنة أخرى، فما ذلك إلا رجم بالغيب، وإن كان لا يخلو من إثارة لبعض النفوس التي تتجاذبها الأسرار الماورائية.

لكني قصدت: إن كان الإنسان مجرد كائن فرد محصور في ذاتيته المباشرة، فإن ذاكرته لا تعود كونها رصيده الشخصي من شريط العمر.

أما إذا كان الإنسان يتعدى فرديته، و«أناه الصغرى» إلى مكوناته الأعمق والأبعد في الزمان والمكان- وهذا قدر الكاتب بالأخص- فإنه لا مندوحة من تجاوز الذاكرة المفردة إلى الذاكرة الجمعية التي كونته- زماناً ومكاناً- فصار من قدره أن يكون بؤرة لاقطة لابعادها المتباينة، ونسيجاً عاكسا لخيوطها وألوانها المتشابكة.

وإذا كان «المكان الأول» لذاكرة اللاوعي، السابق لتفتح الوعي، لدى الإنسان الفرد هو رحم الأم، فإن «المكان الأول» لذاكرة «الإنسان- الجمع»



هو حضن الوطن بترابه وموقعه وإرثه المتراكم عبر التاريخ.

فللمكان الأول بهذا المعنى حضوره في الإنسان أيا كانت مؤثرات الأزمنة والأمكنة الأخرى «فحنينه أبداً لأول منزل».

وفي البحرين المكان / الوطن- في قلب الخليج العربي المتصل بقارات وبحار- تلقيت بعضاً من أعمق فواعل التكوين: التآلف الواقعي مع النفس، الانفتاح على الآخر وشهوة الوصول والاستماع إليه، التمرس بالاتصال مع الذات والانفصال عنها في الوقت ذاته ضمن براحة ذهنية ونفسية تبتعد لتقترب، من أجل حميمية أصدق ومعرفة أوعى للنفس وللآخر.

لم يكن هذا مجرد اكتساب ذاتي، فالبحرين موضوعياً هي البلد العربي الوحيد الذي ينفرد كليا بجغرافية الجزر في الوطن العربي. إنه متصل بالكيان العربي أوثق اتصال لكن براحة مائية من الخليج تفصل أرخبيله عن اليابسة الأم في جدلية برمائية- مكنته من المزج والتوليف في هويته بين ثوابت الصحراء الراسخة ومتغيرات البحر المتحرك، وذلك في تقديري مفتاح فهمه ثقافيا ومجتمعياً- كما أتاحت له من جانب آخر جدلية الانفصال / الاتصال، والابتعاد / الاقتراب كما لم يتح جغرافيا ومعنوياً لأي بلد عربي.. وهو مراس أعتقد أننا نحتاج إليه عربيا أكثر من أي وقت مضى أعنى ممارسة الاقتراب من النفس عن «بعد» يسمح بسبر الذات عن صفاء رؤية لا يتحقق إلا بهذا الابتعاد من أجل الاقتراب (وذلك ما مررت به في حياتي الشخصية، حيث ابتعدت عن الوطن لسنوات، لأقترب منه).

هذه الميزة أكسبت مجتمع البحرين وإنسانها القدرة على تأمل الذات العربية التي هي جزء منها بشيء من الحيدة والمحايدة التي إن كانت في صميم الداخل إلا أنها تستطيع رؤيته تأملياً من خارجه. لربما كانت عبارة صلاح عبد الصبور «أجافيكم لأعرفكم» خير معبر عن هذه الحالة على أن يفهم الجفاء بأنه جفاء التصافي.

ولصغر حجم البلد مع حساسيته ورهافته الحضارية والثقافية استطاع

أن يستمع أكثر مما يسمع.

فقد اهتمت أقطار الثقل العربي بتسميع ما لديها من دعوات وأيديولوجيات إلى العرب الآخرين. أما البحرين فانشغلت بالاستماع إلى جوارها الأقرب والأبعد، القومي والعالمي، فاكتسبت من الاستماع على الأرجح أكثر مما كسب غيرها من التسميع في وطن كبير مازالت أغلبيته تستمع إلى صوتها المنفرد مع قلة إصغاء للصوت الآخر.

وفي الفضاء الوادع والمنفتح للجزر والبحر والإنسان التقت المتغايرات، وربما الأضداد، وتعلمت التعايش والتوافق. ومثلت البحرين ساحلاً وجزراً، تحت اسمها التاريخي «دلمون»، صلة الوصل بين حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي السند ثقافة وتجارة. ومن مفارقة دراما الصراع المعهود في وادي الرافدين بتقلباته المفاجئة، حولت الأسطورة السومرية- بالمقابل- أرض البحرين المجاورة لها جنوباً إلى أرض للخلود الهادئ السمح، وجاء جلجامش باحثاً بين لؤلؤها الأبيض عن اللؤلؤة السوداء الزامرة لخلود الأبد.

وبالنظر لتعايش المتغايرات والأضداد على أرض البحرين مقابل اصطراعها فوق أرض الرافدين ذهبت الميثولوجيا السومرية إلى حد التخيل أنه في أرض دلمون يتعايش الحمل مع الأسد والعصفور مع الثعبان، ولا ينعب البوم ولا يشيخ الإنسان، كما ورد نصاً في نشيد سومري مقدس عن البحرين.

وعمّد هذا النشيد البحرين / دلمون «ميناء العالم كله»، وذلك ما تحقق لها منذ فجر تاريخها ميناء تجارة وبالتالي ثغر ثقافة وحضارة. وظلت البحرين منذ فجر عروبتها أيضاً- في جزرها خاصة وفي إقليمها التاريخي بعامة- تمثل ائتلافا للمختلف بمواصلة انفتاحها على بحار العالم وثقافاته من ناحية مع تفاعلها الحميم مع براري العرب بادية وحضارة. وكانت هي حاضرة البحر التي تعايشت فيها، قبل الإسلام وبعده، المسيحية مع

الزرادشتية مع الهندوسية، وتقاسم فيها الإخوة في البيت الواحد المعتقدات الدينية المتباينة، حتى قال قائلهم عن رهطة وعشيرته:

وإنـــي وإن كـــانـــوا نـــصـــارى أحـــبـــهـــم

ويـــرتـــاح قـــلـــبـــي نـــحـــوهـــم ويـــتـــوق

وفي العصر الحديث كانت البحرين أول فضاء على أطراف الجزية العربية ينفسح لإقامة الكنائس في اقتراب وادع من مساجدها وحسينياتها المؤتلفة هي الأخرى في تبادين حميم. لذا لم يأت الفصل الخاص بالفكر المسيحي العربي وبالفكر الشيعي بين عقلانية عربية وعرفانية فارسية في أوسع مؤلفات كاتب هذه السيرة الوجيزة: (الفكر الربي وصراع الأضداد)، لم يأت اهتماماً محض أكاديمي من جانبه بقدر ما كان معايشة حياة كانت البحرين مسرحها الأصيل.

وعلى مدى التاريخ الإسلامي شهد إقليم البحرين فكريا وسياسيا توتر الجدلية بين دول الخلافة والقوى المعارضة والمتمردة حقبة بعد أخرى، فمن هنا مر الخوارج والزنج والقرامطة بين آخرين مما أصل في لا شعورها الجمعي حس الجدل التاريخي والفكري دون أن تتخلى عن ثوابتها عروبة وإسلاما وجماعة، فكانت الغلبة دائما لصيغة التعايش المختلف لكن في إطار الجماعة المؤتلفة منذ العيونيين إلى يومنا هذا.

لربما بدت هذه الصورة التي أرسمها للوطن صورة تجنح إلى المثالية والرومانسية خاصة بمقياس واقع الزمن الزاهر ووقائعه. لكنا صورة المثل الأعلى التي أوحاها إلي الوطن واستقيتها منه في تصوري لحياة الفكر وتعايش الأفكار بحثا عن المتماثل في المتباين وكشفاً عن المتبادين في المتماثل، كما عاينت ذلك في كتابي المذكور وغيره من المؤلفات.

أما بحرين العصر الحديث فأعتبرها «حالة مشرقية» في الخليج. حالة مشرقية يعتمد فيها الإنسان على كده وفكره أكثر من اعتماده على ثرائه وماله، وليس فيها من نفط، كما عبر كاتب غربي إلا ما يكفي لتزييت

العقول، وكان هذا التميز في أساس ريادتها للخليج الحديث، وهي ريادة أدعها لشهادة التاريخ، كي أعود لتاريخي مع المكان والزمان والفكر، عبر هذه المرافئ.

وأنا كمواطن من البحرين لا تدهشني عولمة اليوم كثيراً. فقد عشنا العولمة وتجر عناها طوعاً أو كرهاً، سلباً وإيجاباً ولم تكن شرا كلها بمقياس ما لدينا في الواقع العربي من شرور ذاتية بل كانت هذه المؤثرات الخارجية، أحياناً أهون الشرين. وعلى كل حال فقد كانت حينئذ عولمة حاسرة الرأس، مكشوفة الوجه لم تقتنع بدعوى حقوق الإنسان ولا بالديمقراطية ولا حتى بأبسط حقوق العمل الذين كانت تضطهدهم شركاتها الجشعة، كان أبي مشاركا في حفر آبار البترول لإضاءة العالم ولم أجد إلى آخر دراستي الثانوية مصباحا كهربائياً واحداً أذاكر في ضوئه مما قلص ضوء عيني. وأدركت على الفور معنى قول الشاعر العربي حين سمعته:

النفط من عرق الشعوب مقطر

ومن العيون تفجر الأبار

لذلك، وعلى ما شهده الخليج من رفاهية وطفرات اقتصادية في العقود الأخيرة، فإني لم أستسغ تقسيم العربي وشطره إلى «كائن نفطي» حسب تعبير بعض العرب خارج الخليج، و «كائن غير نفطي» كما يصفون أنفسهم، (في مثل هذه التشطيرات التي لم تجلب للعرب غير الفرقة كما بين رجعية وثورية، وبين قوميات آشورية وفينيقية الخ، حسب تصنيفات الأيديولوجيا السائدة في منطقة الهلال الخصيب، وما أكثر تشطيرات هذه المنطقة المنشطرة على نفسها!).

فمن واقع كدح أبي في حفر النفط- منذ ١٩٣٤- قبل خمس وستين سنة، ومعه بالتأكيد الآلاف المؤلفة من رجال الخليج العربي، من جنوبه في سلطنة عمان إلى شماله في دولة الكويت مروراً بعمقه في المملكة العربية السعودية، من واقع الكدح الشريف لسنا في موقع نعتذر فيه لأحد عن

رفاهية إن نالتها أجيالنا الجديدة فبكدح آبائها وأجدادها في حرقة الشمس وضراوة الصخر. وإذا كان ثمة سوء استخدام للثروة في بلداننا، وهو واقع نملك الشجاعة للاعتراف به، إلا أنه شأن داخلي من شئوننا لنا وحدنا أن نقومه ونصلحه، دون وصاية أحد كما أصلحنا شأننا أيام الشدة والقحط، بجهدنا المتواضع دون نجده من أحد ورحم الله امرءاً أصلح بيته قبل أن يمد يده إلى بيت أخيه.

وأياً كان الأمر، فعندما سيقول التاريخ كلمته بهذا الشأن، فقد لا يبقى على المحك سوى الدعم المصري لعرب الخليج، في الضراء قبل السراء، وفي الشدة قبل الرخاء، منذ كانت مصر تبعث البعوث التعليمية من خيرة معلميها لبلادنا في الخليج والجزيرة- وعلى حسابها إذا اقتضى الأمر- منذ أيام الملكية إلى أن أسهم نضالها القومي التحرري على الصعيد العربي في تحقيق الكثير من المطالب الوطنية والشعبية لعرب الخليج. وليس صدفة أن الذين زايدوا على مصر ونضالها التحرري في حقبة سابقة هم الجهات ذاتها التي تزايد على عرب الخليج اليوم. وقد حان الوقت لتجاوز احن النفوس العربية جمعاء بنقد ذاتي شجاع لا يعرف الهوادة.

أعلم أنها قضية عربية شائكة ولا أطرحها للجدل، فهي جرح ذاتي ضمن هذه اللمح الذاتية، وأرجو قبولها من ذوي قربانا على أنها شكوى إلى ذي مروءة وكل الأشقاء العرب هم كذلك في لحظة الصدق مع النفس، فلقد عشنا بشرف ونحن نحفر بأظفارنا آبار النفط في الخليج ونحافظ على عروبتنا في الوقت ذاته، ونؤكد انتماءنا القومي للوطن العربي الكبير، شعوباً ومثقفين.

أبعد هذا، يكافئنا الشقيق بمثل هذا التجني؟ أي «نضال قومي» وشرف قومي يستبيح تزييف الحقيقة، إلى هذه الدرجة، وتعميم هذه «النمطية» النفطية على كل عرب الخليج؟

أفنعجب إن تدهورت أوضاعنا إلى هذا الحد، ونحن نمارس باسم

القومية هذا التجني على جزء من حقيقتنا القومية في هذا الخليج الذي لم يحافظ على شيء كما حافظ على عروبته، رغم طعنه في الظهر من بعض أشقائه في.. العروبة؟!

وما ذنب على الخليج إن هبطت الثروة النفطية على فئات منهم فلم يحسن بعض أفرادها التصرف والتدبير؟وهل مسلك الأثرياء العرب وباشواتهم في الأقطار الأخرى فوق مستوى الشبهات؟ بل هل مسلك القادة «الثوريين» منهم أقرب إلى الطهر والتقشف؟

ولعلها ليست صدفة أن يكون قائل هذا البيت القديم شاعراً من الخليج وشرق الجزيرة (طرفة بن العبد):

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

فلمن يهمه إعادة اكتساب ذوي قرباه في الخليج من الأشقاء العرب في كل مكان أقول: لن يسترد الخليج إلا من داخله- طوعاً لاكرها- وبغلبة إيجابة على سلبة ذاته بذاته!

لقد مثلت هزيمة يونيو ١٩٦٧ ثم وفاة الرئيس عبدالناصر ١٩٧٠ نقطة تحول في حياتي حيث قررت بعدها مباشرة ترك المنصب الوزاري الذي توليته في البحرين عشية استقلالها (١٩٧٠/١٩٧١) وذلك للتفرغ لبحث الدكتوراة في الفكر العربي ليس من أجل الدرجة ولكن لأتيح لنفسي أساساً فترة من التأمل والبحث والتعمق النظري.

فقد تبين لي بعد هزائمنا العربية المتوالية أن أخطر ما نفتقده هو التأسيس المعرف لقضايانا، قبل الترويج الأيديولوجي لها، وإن الظن لا يغني عن الحق شيئا. ومازلت أزداد يقينا أن اللحظة التاريخية الراهنة في حياة العرب هي «لحظة ثقافية» ولحظة تصحيح للوعي المعرفي بالنفس والآخر، وأكثر منها لحظة سياسة ومواجهة خارجية، على ضراوة هذه الانشغالات الوقتية. ومنذ بداية عهدي بالتفكير والكتابة تنازعتني اهتمامات

عدة بين أدب وفلسفة وسياسة واجتماع- تشوقا مني للحقيقة الواحدة وراء كل العلوم- فلم أكن يوما رجل التخصص الواحد أو الاهتمام الواحد. لذلك فقد وجدت في الفكر- أخيراً- ضالتي لأنه المنطقة المشتركة الجامعة بين هذه الاهتمامات، وهو الذي يمكن الكاتب من أني صبح عابر للتخصصات، لكن في منهج منضبط، وإن لم يمنعني ذلك من الكتابة الذاتية والسجالية التي تمثل وجهي الآخر وإجازتي المفضلة التي ألجأ إليها طلباً للراحة من الكتابة البحثية والأكاديمية. لذلك فرجائي من النقاد والقراء أن يتأكدوا إن كان ما يقرؤونه لي بحثاً أم سجالا. حتى لا يحاسبوا الباحث من خلال الساجل ولا المساجل من خلال الباحث!

بل لعلني لا أذيع سراً من أسرار «المهنة» إذا قلت إن الباحث بداخلي يقف له المساجل بالمرصاد، ويستفزه، ويشاغبه ويدفعه دفعاً للخروج من برود الباحث الأكاديمي.

انعكست اهتماماتي العابرة للتخصصات في كتب مثل: تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، الحساسية المغربية والثقافة المشرقية، ورؤية قرآنية للمتغيرات الدولية، وأخيراً: انتحار المثقفين العرب وقضايا راهنة في الثقافة العربية.

من بين هذه الكتب أستأذنكم في التوقف برهة عند كتاب (العالم والعرب سنة ٢٠٠٠) الذي صدر قبل عشر سنوات مايو ١٩٨٨م. وتعرض لمظلمة حقيقة لا لشيء إلا أنه صادر باللغة العربية ولكاتب من العالم الثالث الذي أصبح يعرف بعالم الجنوب!

ورد في الكتاب بالنص في ذلك التاريخ: «الجديد، جديد القرن الواحد والعشرين إنه للمرة الأولى منذ ثلاثة قرون لن تكون جميع القوى الرئيسية قمة التوازن العالمي منتمية إلى الجنس الأوربي الأبيض، أو إلى الحضارة الأوربية الغربية، فلأول مرة في تاريخ العالم الحديث تقوم قوة حضارية غير مرتبطة بميول الغرب وانحيازاته، وغير مرتبطة بأي عداء تاريخي

للعرب والمسلمين، أعني بها القوة الآسيوية في الشرق الأقصى هذا التحول الخطير في بنيان القوة العالمية هل يستوعبه العقل الاستراتيجي العربي.. وتضمن الكتاب شرحاً مسهبا لهذه الرؤية يمكن الرجوع إليه في موضعه.

كانت هذه محاولة في طرح فكرة تواجه الحضارات من وجهة عربية وقبل ظهور صيغة ديفيد هنتنجتون لها بسنوات والتي عرفت بنظرية صدام الحضارات. إضافة إلى ما تضمنه الكتاب المذكور من إرهاصات بشأن المتغيرات في المعسكر الشرقي وقيام ألمانيا الموحدة وذلك قبل سقوط جدار برلين بعام ونصف العام.

ضاعت هذه الإرهاصات- بطبيعة الحال- في زحمة اهتمام المثقفين العرب بنظرية هنتنجتون. إذ لابد أن يأتينا «الجديد» من الغرب ليبهرنا.

ثم نتحدث عن ضرورة الاستقلال الفكري!

هذه إشارة أسجلها فقط للمؤرخ الموضوعي لتاريخنا الفكري، ولا أريد من خلالها شهادة أنصاف، لعلمي أن هذا من أندر الأشياء في حياتنا العربية وعلينا أن نتعايش مع قلة الإنصاف في معظم الحالات، خاصة من ذوي قربانا!

أنتقل أخيراً إلى أهم المرافيء التي توقفت فيها في السنوات الأخيرة.

إنه مرفأ البحث عن حقيقتنا العربية في جانبيها: مستوى الوعي (البنية الفوقية) ومستوى الواقع (البنية التحتية).

فيما يتعلق بالمشروع الأول، دراسة البنية الفوقية، يمثل كتاب (الفكر العربي وصراع الأضداد: تشخيص حالة اللاحسم في الحياة العربية)- المرجع الأساس لهذا التشخيص، بالإضافة إلى كتاب (تحولات الفكر والسياسة) الصادر مطلع الثمانينيات.

يستند هذا المشروع البحثي بتبسيط شديد إلى الفرضيات التالية:

أولا: الفرضية الرئيسية في هذا المشروع أن الفكر التوفيقي في الحياة العربية الحديثة يمثل أيديولوجيا اللاحسم في هذه الحياة.. وهي ظاهرة

مستمرة منذ ما عرف بفجر النهضة إلى يومنا هذا، وذلك نظراً لتعددية النقائض والأضداد في واقع هذه الحياة- حيث لم يتيسر الحسم التاريخي بينها- بعد- جاء الفكر التوفيقي في البنية الفوقية تعبيرا عن «حالة اللاحسم» في البنية التحتية على أرضية الواقع الاجتماعي والسياسي والحضاري الذي لا يزال يعاني من تعارض تلك الأضداد دون حسم يذكر: بين الوطني وما دون- الوطني، ثم بين الوطني والقومي، ثم بين القومي والديني، ثم بين الديني والعصري، إلى آخر هذه السلسلة من الثنائيات غير المحسوم بينها في الحياة العربية الحديثة.

ثانياً: وهنا لابد من تنويه منهجي، وهو أن هذا المشروع لا يمثل دعوة إلى التوفيقية ولا يبشرها بها- كما توهم البعض- وإنما هي محاولة معرفية في التشخيص والتوصيف، ثم التحليل والنقد لظاهرة أعتقد أنها من أخطر الظواهر في الحياة العربية واقعاً وفكراً. إن هذا المشروع في حقيقته هو دعوة لتجاوز التوفيقية، بعد تشخيصها ونقدها.

ثالثاً: هذا التوفيق السياسي الأيديولوجي ليس غريباً عن البيئة الفكرية السائدة في مجتمعات المنطقة العربية وفكرها بعامة، فمن تعادلية توفيق الحكيم الكاتب الفرعوني المصري إلى مدرحية أنطون سعادة مؤسس الحركة القومية السورية في المشرق، في الأوساط غير المتفتحة أساسا للأغلبية الدينية أو المذهبية السائدة، يرتسم هذا المنشور التوفيقي الواسع، بحيث يمكن أن ندرج ضمن هذا المجرى تيارات فكرية وسياسية بدت متناقضة أمامنا على صعيد السياسة الآنية، لكنها تنتمي بنسب فكري واجتماعي مشترك وجامع بينها وهو حالة اللاحسم وعدم القدرة عليه على أرضية الواقع.

أما المشروع البحثي الثاني الذي استحوذ على اهتمامي في السنوات الأخيرة فقد كان بالمقابل، تشخيصاً للبنية السوسيولوجية التحتية لمجتمعاتنا العربية- بعد أن درست البنية الفوقية (الوعي) في المشروع الأول. وأستطيع

الزعم بأني أتميز بهذا المشروع البحثي بالذات عن معظم زملائي وأساتذتي من المفكرين العرب. فإذا انصبت مشاريعهم الفكرية في نقد «الفكر» أو نقد «العقل» فإن مشروع البحث هذا يتصدى لنقد الواقع، الواقع بمعناه التكويني والتركيبي العميق في الكيان العربي الجمعي ماضياً وحاضرا، إن «نقد الواقع» بهذا المعنى هو مطمحي البحثي الكبير، ليقيني أن جميع أشكال الفكر والنظم والسلوك هي في التحليل النهائي نتاج ذلك الواقع الذي لابد من تفكيكه واختراقه للخروج من وطأته.

والفرضية الأساسية للمشروع الثاني أن التأزم السياسي الشامل وما أفرزه من هزائم ونكبات في الحياة العربية لا يمكن تفسيره كلياً بصور الأنظمة السياسية ومؤامرات الأعداء على ما لهذه العوامل من تأثير- وإنما يجب الرجوع إلى تأمل طبيعة تكوين «القاع السوسيولوجي» العربي وبناه العشائرية والطائفية، إلخ التي تفرز تلك الأنظمة والمسلكيات المختلفة والظواهر السياسية السالبة. وأنه ما لم يتم تشخيص تلك النية القبلية والريفية المعيقة لنمو المجتمع المدني/ المدني وتطوره الديمقراطي وتحوله إلى دولة المواطنة الحديثة، دولة المؤسسات والنظام والقانون، فإن مجتمعاتنا العربية ستبقى في أوضاعها الراهنة من التخلف السياسي والتخلف الحضاري الشامل وستظل تفرز النوع ذاته من الأنظمة مهما تغيرت تسمياتها.

وقد تمثل هذا المشروع البحثي في ثلاثة مؤلفات:

* تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية (١٩٩٤).
* التأزم السياسي عند العرب وسوسيولوجيا الإسلام (١٩٩٥).
* العرب والسياسة: أين الخلل ؟ (١٩٩٨).

ومؤدى هذا المشروع أنه على الرغم من التألق الروحي والعقلي والعمراني للحضارة العربية الإسلامية، فإن تاريخها السياسي وفكرها السياسي ظلا أضعف عناصرها على الإطلاق واشدها ارتباكاً.

وباختصار شديد، يمكن إجمال الصورة المعقدة على النحو التالي:

١- لم يحدث في أي منطقة من مناطق العالم أن تواجهت البادية والحضارة، الصحراء والمدينة كما تواجهت هيكلياً في المنطقة العربية. فحيث أحاطت البوادي والصحاري بأطراف الصين والهند والقارة الأوربية دون تأثير حاسم في دواخلها حول الاختراق الصحراوي والرعوي المراكز الحضرية العربية إلى جزر منعزلة في بحر من الرمال حسب تعبير علي الوردي، مما خلق جدلية بالغة التوتر انتقلت من الواقع الجغرافي والاقتصادي إلى صميم المجتمع والثقافة والسياسة، وهي خصوصية عربية مثقلة بالأعباء إن كان الدارسون قد مروا بها لماماً فإنه لم يتوقف حيالها كموضوع للدرس الدقيق- بعد ابن خلدون- غير المفكر الاجتماعي العراقي الراحل علي الوردي في دراسته للشخصية المجتمعية في العراق بخاصة والوطن العربي بعامة.

٢- هذه الجدلية نتجت عنها في مسار الحضارة العربية قطيعتان:

أ- قطيعة المكان بمباعدة الفراغات الصحراوية الهائلة بين مراكز التحضر مما حال دون نشوء النسيج العمراني المتصل الذي يعتبر الشرط الأول لقيام الدولة واستمرارها، وهذه القطعية المكانية المتطاولة هي العامل الانفصالي الطبيعي الأكبر في الوطن العربي، سواء في التكوينات الاجتماعية أو السياسية.

ب- قطعية الزمان بحدوث الاجتياحات الرعوية المتتابعة لعواصم الحضارة مما أعادها مع تراكمها الحضاري ومؤسساتها السياسية إلى ما يقرب من نقطة الصفر حقبة بعد أخرى. هذا بالإضافة لموجات التصحر المتكررة التي دفنت حضارات ودولاً بأكملها تحت الرمال.

اسهمت هاتان القطيعتان (قطيعة المكان وقطيعة الزمان) في إعاقة النمو المستمر للمجتمع الحضري المستقر الذي هو قاعدة الدولة وأساس تطورها وحدتها. ونجمت عن ذلك التعديات القائمة في الواقع العربي: تعددية المراكز الحضارية، بدل مركز رئيس واحد، تعددية البنى المجتمعية

من قبائل وطوائف ومحلات، تعددية الكيانات السياسية المصطرعة تبعاً لذلك.

وهي تعدديات لا تعاني منها بالدرجة ذاتها كيانات حضارية وسياسية كبيرة في آسيا الموسمية المطيرة كالصين واليابان والهند التي ساعدت مجتمعاتها النهرية الحضرية ذات النسيج العمراني المتوحد على احتواء ما فيها من تعدديات أخرى لصالح وحدة المجتمع الكبير ودولته الواحدة. (ففي الصين مثلا نرى التطابق بين دائرتها الحضارية ودائرتها السياسية المتمثلة في الدولة الصينية المستمرة، بينما تعددت الدوائر السياسية من دويلات وكيانات داخل الدائرة الواحدة للحضارة العربية الإسلامية).

٣- هذه الخصوصية الجغرافية والمجتمعية في المنطقة العربية أثرت في تكوينها السياسي على النحو التالي:

تقطعت استمرارية الدولة، وتأرجح العرب بين وضعية الدولة واللادولة عبر تاريخهم السياسي. وترحل المركز السياسي لدولهم الغالبية كما لم يحدث في تاريخ أي أمة أخرى، الأمر الذي لم يتح لهم خبرة العيش في دولة مستقرة ومستمرة والتمرس بالتعامل السياسي في إطار مؤسساتها وقوانينها ومفاهيمها. وإذا أخذنا في الاعتبار أن الدولة مدرسة السياسة، وأن ممارسة السياسة خارج نطاق الدولة تبقى قاصرة وناقصة، حيث لا ممارسة سياسية حقيقية خارج الدولة أدركنا قصور التجربة السياسية لأغلب المجتمعات العربية التي توزعت تجربتها السياسية بين الخضوع لسلطة خارجية كالسلطة المملوكية الوافدة في المجتمعات الحضرية الزراعية والتجارية، أو الخضوع للسلطات القبلية التي هي نقيض الدولة في المجتمعات الرعوية. وفي الحالتين فإن الممارسة العربية الذاتية لسياسة الدولة على المدى التاريخي كانت تفتقد التمرس الإيجابي بهذه التجربة الدقيقة في حياة الأمم.

٤- في ضوء ذلك يمكن القول إن الدولة الوطنية الراهنة في العالم

العربي. بكل أوجه القصور فيها، ومع الإقرار بأنه تمثل تجزئة استعمارية في بعض الحالات، فإنها من حيث الواقع التاريخي وعلى النطاق الشامل للمجتمعات العربية أول تجربة للعرب في الدولة وفي الوحدة، في الدولة بمعنى ممارسة العيش في نطاق دولة ثابتة بصفة مستمرة، وفي الوحدة في الدولة بمعنى الشروع في توحيد التعدديات والبنى المجتمعية وانصهارها في نطاق مجتمع مدني ودولة وطنية واحدة. وهي خطوة تاريخية لابد منها للوحدة القومية التي لن تكون غير حاصل جمع الوحدات الوطنية. وحيث لم تشهد المنطقة العربية اقطاعا إنمائيا حقيقيا في تاريخها- بالمعنى الفيودالي الأوربي والياباني فقد جاءت الدولة الوطنية في بعد من أبعادها لتمثل هذه المرحلة الاقطاعية المفتقدة تاريخيا والممهدة للوحدة القومية في تاريخ المجتمعات الأخرى. فالدولة القطرية العربية يمكن النظر إليها بتجريد فكري كمرحلة إقطاعية مؤجلة في عصر الرأسمالية العالمية والسيادات الدولية. (تكوين العرب السياسي).

٥- إن الاختيار التاريخي لهذه الدولة الوطنية يتمثل في مدى قدرتها على صهر التعدديات والبنى والمجتمعات التقليدية في بوتقة مجتمع مدني موحد يستند إلى تمدين الريف والبادية، بدل بدونة المدينة وتريبفها ويفتح المجال أمام القوى المدنية الوطنية المشتركة إمكان العمل السياسي المعقلن الحديث في وجه العصبيات السياسية التقليدية. وما لم يتم تمدين هذه القوى ودمجها في مجتمع مدني الطابع، مديني القاعدة، فإن الحديث عن الديمقراطية في البلاد العربية سيبقى حديث خرافة.

وبالمقابل فإن الوحدة العربية ستبقى شعاراً طوباويا إذا واصلت استنادها إلى ظاهرة الوحدة المعنوية في الثقافة والشعور عند العرب ولم تجد لتوحيد بناها وتعددياتها المجتمعية الحقيقة المعيشة عبر هذه الدولة الوطنية التي تمثل الإمكانية العملية والمعبر التاريخي لأي وحدة عربية ممكنة ومن هذه الزاوية يمكن أن نرى مثلا أن الوحدة اليمنية المتحققة اليوم على الأرض

اليمنية كلها هي بلا جدال أكثر واقعية وفائدة وديمومة من انضمام اليمن الشمالي إلى ما عرف باتحاد الجمهوريات العربية في يوم من الأيام. من هنا فإن العمل الوطني من هذا المنظور، وإن بدا أقل احتفالية من الإعلانات الوحدوية القومية العارمة، فإنه قد يكون أكثر نفعاً على المدى الطويل. وما يبدو لنا أنه عصر انحطاط عربي نعيشه الآن يجعله دهاء التاريخ ومكره بداية لعصر عربي أفضل بشرط أن نعرف كيف نفكك هذا المكر التاريخي ونمتلك الوعي القادر على كشف آلياته المواربة والمخادعة.

هل بدأ هذا المرفأ الأخير شديد الوطأة بمراسيه الثقيلة لربما كان كذلك، لكن لا مفر من الغوص إلى أعماق العربية لاكتشاف الذات، وبعد مرفأ «الحقيقة العربية ينازعني شوق عظيم ومقيم لمقاربة مرفأ «الحقيقة الإنسانية» و«الحقيقة الكونية».

فلا بقاء إلا للفكر الذي - يبدأ من حقيقة الإنسان وينتهي إليه الإنسان كظاهرة وجودية كونية.

ذاك «مرفأ» أتطلع إليه وأتامل فيه كل يوم منذ صباي قاربت الآن الستين من العمر، لكني لم أبلغه بعد، أعني «مرفأ اليقين»، وإن كنت آمل أن أكتب عنه آخر كتبي قبل انتهاء رحلة العمر والعبور إلى ما وراء الأفق.

---

* العربي - العدد ٤٨٧ - يونيو ١٩٩٩م.

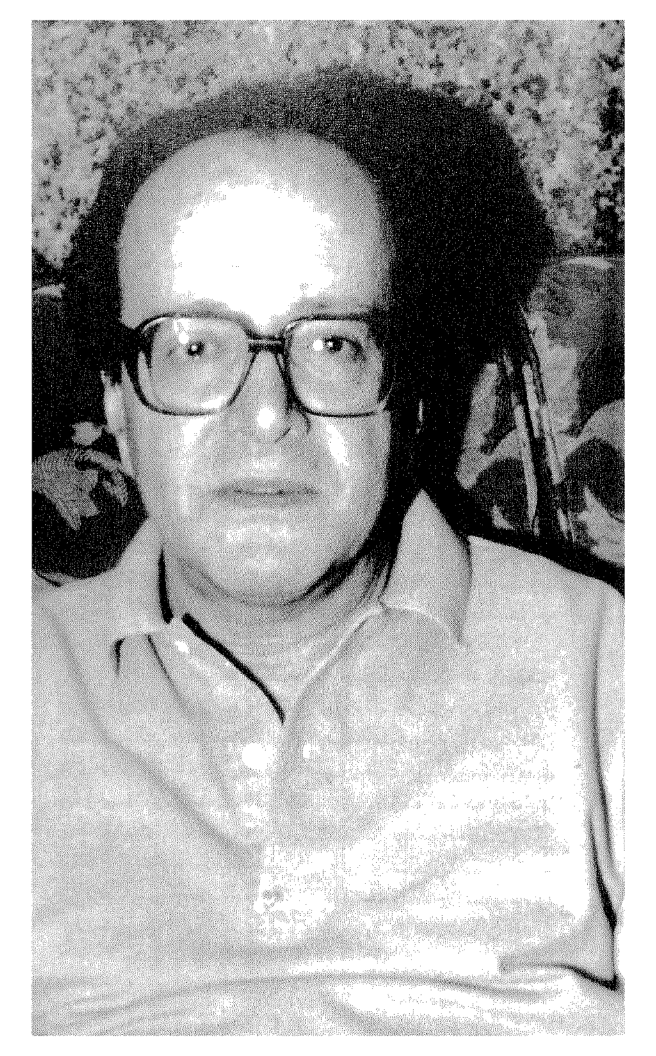
مرفأ الذاكرة | د. محمد برادة

بل إنها مرافئ للذاكرة *

مجرّد محاولة استعادة لحظات بارزة يختزنها جراب الذاكرة، يجعلني أرتاد متاهة متشابكة المسالك، ذلك أننا لا نعيش الزمن منتظماً في إيقاعاته وأحداثه، واضحاً في دلالاته وحدوده. ونحن، فضلاً عن ذلك، لا نتوفّر في (بداية) علاقتنا بالزمن، على وعي يستطيع أن يمايز بين التجارب، ويصنّف الوقائع والذكريات. إننا، بالأحرى، نكون طوال ما نعيشه لأول مرّة، أشبه بمن يمشي ملتفّاً بغلائل الضباب حسب الصورة التي رسمها لنا الروائي تولستوي، والذي يضيف أن الرؤية الواضحة، المميزة تكون أثناء العبور الحياتي الأول متعذّرة، مختلطة، وأننا نبدأ في الفرز والتدقيق والتقييم بعد مؤالفتنا للحياة وتعوّدنا على (منطق) الزمن المعقّد.

لكنني أجد أن الأشياء لا تتضح تماماً بعد (العبور) لأن الذاكرة التي تسعفنا على استحضار ما عشناه هي انتقائية بطبيعتها ولا تستطيع أن تفلت من قبضة التخييل والتلوين، من ثم يصعب القول بوجود تذكّر (موضوعي) يقود خطواتنا إلى مرافئ واضحة المعالم.

وأكثر ما تكثف الرؤية وتتبهم الملامح، عندما يتعلق الأمر بفضاءات المدن



التي عشت في جنباتها ردحاً من الزمن، إنها ليست مجرد أمكنة ذات حيّز وأسماء معروفة، بل هي فضاءات آهلة بالشخوص والكلام والمشاهد ولحظات المسرّة والألم، تتسرّب إلى أعماقنا وتستوطن ثنايا الذاكرة، فلا يعود ممكناً الانفصال عن صورها الملوّنة التي يزدهي بها ألبوم الذكريات، ومرافئ الفضاءات، عندي، أربع مدن تشعّ مناراتها باستمرار، موقظة شهوة الحياة ورغائبها المهددة بالغسولة والقنوط وطول السفر: فاس، الرباط، القاهرة، باريس.

هذه المدن الأربع، على اختلاف مواقعها وحمولاتها التاريخية، لا أستحضرها إلا مقترنة بغلائل خرافية انتسجت، خلسة، وأنا أعيش في كنفها لحظات أساسية من عمري. وغالباً ما كانت كل واحدة من تلك المدن عتبة نقلتني إلى تجربة جديدة ومرفأ تفيّأت شواطئه بانتظار إقلاع جديد.

تقترن فاس، في ذاكرتي، بالطفولة في معناها الواسع والعميق لأنها تُحيلني إلى معين لا ينضب من اللحظات المشرقات التي كثيراً ما أستعين بها لأبدّد ما يعترضني من كآبة ووحشة. وأظنني حظيت بطفولة (سعيدة) في ظل حنان خالي الذي احتضنني وأنا في الثانية من عمري، وفي رحاب فاس العريقة بأزقّتها (المتاهية) المعتمة وحياتها التراثية المتجددة.

كانت جامعة القرويين، ومسجد مولاي إدريس، وجامع الأندلس فضاءات مألوفة لديّ ولدى زملائي من الأطفال لأننا كنا نرتادها لنلعب في صحونها الواسعة ونبلل وجوهنا وأرجلنا بالماء المتدفق، دوّماً، من نافوراتها، ولم تكن فاس مرفأ فقط للشيطنة والطفولة المرحة، بل كانت أيضاً فضاء اكتشفت فيه وجود الآخر، المستعمر، أثناء المظاهرات التي نظمتها الحركة الوطنية سنة ١٩٤٤ للمطالبة بالاستقلال والتي اتخذت من جامعة القرويين مقرّاً لتعبئة سكان فاس وقراءة (اللطيف).

وكانت فاس، أيضاً، بالنسبة للطفل الذي كنته مرفأ للتعرّف على جمال الطبيعة المحيطة بالمدينة، خاصة أيام الربيع حين تنتقل العائلات إلى الجنان

القريبة من الضواحي لتمضية بضعة أيام احتفاء بأجمل الفصول، وأحسب أن الانتباه إلى سحر المرأة وحضوره تولّد لديّ بتلك المدينة أثناء ما كنتُ أستمع، مشدوهاً، إلى بعض حكايات ألف ليلة يسردها علينا شاب متعلم اختاره الكبار لتأثيث أسمار الليالي الربيعية.

حين عدت إلى الرباط، وأنا أقترب من التاسعة، فوجئت بوجود البحر واتساع الشوارع وتجاور المدينتين الرباط وسلا يفصلهما نهر (أبورقراق) فانجذبت مخيّلتي إلى الامتدادات التي ستأخذها فسحات اللعب والجري والاستكشاف.

لكن الرباط وسّعت أيضاً من فضاءاتي الخاصة: لم تكن المدرسة التي التحقت بها عادية، بل كانت تابعة للحركة الوطنية، تعتمد اللغة العربية في التدريس وتربّي التلاميذ على مبادئ حبّ الوطن والاقتناع بحقه في الاستقلال، من ثم بدأ انخراطي، أنا وزملائي، في السياسة، ونحن لم نتجاوز سن الثانية عشرة، إذ كان أساتذتنا المناضلون يخصصون ساعات في الأسبوع ليحدّثونا عن (قضية المغرب أمام الأمم المتحدة)، وعن مطالب الحركة الوطنية وعن ممارسات السلطة الاستعمارية.

إلاّ أن المرفأ الرباطي الأهم، هو لقائي بالكتابة عبر المناخ التنافسي المشجّع الذي عشتُه بالمدرسة الثانوية مع أساتذة كانوا يحضّوننا على القراءة ويمدّوننا بكتب جبران خليل جبران، وطه حسين، وتوفيق الحكيم والعقاد... وكانت حصّة الإنشاء فرصة للتعليم والتجلّي، خاصة أننا كنا في فصل مختلط يزدهي بحضور بعض التلميذات الجميلات والقاهرة مرفأ آخر، حاسم ومؤثر، إنه يرافق نهاية المراهقة، ويدشّن نقلة جذرية صوب امتدادات ملموسة لما عشته على مستوى المتخيّل في الكتب والمجلات والإذاعة والأفلام، لم تكن مصر، بالنسبة لي آنذاك، مجرد قطر عربي آخر درسنا جغرافيته وبعضاً من تاريخه، وإنما كانت صورتها في مخيلتي مؤسطرة، متألقة، تشع بالإغراءات والفتون، وكانت نوافذ الأمل مشرعة والإحساس بالصعود القومي التحرّري

يملأ الكيان، ووعود النصر القريب يؤكدها صوت عبدالناصر الرنّان. أبداً لم أكن بمثل تلك الثقة والتفاؤل وأنا بمرفأ القاهرة الناصرية إلى بداية الستينيات، ولعل مصدر ذلك الامتلاء يعود إلى تساوق وتناغم بين ذاتي العميقة المتطلعة، وبين الوجدان العام الآخذ بالتبلور آنذاك، عقب استقلال المغرب وتسامق القومية العربية المنادية بتحرير الأرض والمواطن والفكر، وكانت إقامتي، طوال خمس سنوات، على مقربة من الكُتّاب والشعراء والفنانين المبشّرين بإبداع عربيّ جديد، تقوّي في نفسي نزوعاتها إلى الكتابة والحلم والمغامرة. وعندما غادرت مصر سنة ١٩٦٠، كان لديّ إحساس بأنني يمكن أن أعيش، إلى نهاية حياتي مكتفياً بما حصّلته وعشته في مصر. ولذلك أمضيت وقتاً غير قصير وأنا لا أصدّق أن بداية الانكسار العربي قد انطلقت من مصر سنة ١٩٦٧.

ولم تكن باريس مجرد فضاء مقترن بالمتعة والتحرر من القيود والمحرّمات، بل هي مرفأ أساسي أغنى ذاكرتي بما شاهدته واستمعت إليه وعايشته، سواء عند الزيارات العابرة، أو خلال إقامتي الدراسية طوال ثلاث سنوات (١٩٧٠-١٩٧٣). ولألخّص تأثير باريس، أقول إنها الفضاء الذي علّمني شيئين: الحرية هي فردية قبل كل شيء، أي أنها لا تعيش إذا لم يؤمن الفرد بها ويدافع عنها، ويدرك أن لا أحد يتحمّل أعباءها بدلاً منه، ومن هنا تحتاج الحرية إلى أن يصارع الفرد المجتمع حتى لا تنطفئ شعلتها.

والشيء الثاني، هو نسبية الحقائق والمقاييس، مشخّصة في العلائق والتحليلات والخطابات والمعارك السياسية والثقافية، وهذا ما جعلني أشعر في باريس، خاصة خلال زيارتي لها سنة ١٩٦٨، أن النزوع إلى المطلق الذي اكتسبتُه في تجاربي السابقة كان يحول بيني وبين إدراك الأوليات المتجدّدة للمجتمعات الأوربية وإدراك الدينامية الموجّهة للصراعات وإعادة النظر المستمرّة في المواقف والمقاييس والتقييمات. وداخل المناخ الثقافي الفرنسي لا تستطيع أن تتحصّن وراء المسلّمات والمطلقات والأحكام المسبقة، لأن الفكر الانتقادي المعتمد على المقارنة والتّسيب يُحتّم عليك المغامرة في عوالم المجهول

والانسياق نحو الحدود القصوى للتجارب جسداً وروحاً.

هذا هو المرفأ الأول، مرفأ المدن التي اختزنت ذاكرتي فضاءاتها وتفاعلت مع ميثولوجيتها – إذا صحّ التعبير –. ذلك أنه من الصعب أن نستحضر المدن القريبة إلى نفوسنا دون أن يتدثّر ذلك الاستحضار بتطريزات أقرب ما تكون إلى أجواء الأساطير، خاصة عندما يتعلق الأمر بفاس والقاهرة وباريس، وأظن أن فضاءات الأمكنة تلوّن بقوة الذكريات والأفكار التي تترّسب بأعماقنا، ومن ثمّ فنحن لا نحنّ إلى استرجاع الماضي وإنما نحنّ، في الواقع، إلى صور معينة من ذلك الماضي جعلتنا نحسّ بتوافق وانسجام مع ذواتنا، وجعلت مشاعرنا، آنذاك، تبدو صادقة غير متكلّفة.

والمرفأ الثاني يتصل بالزمن/الأزمنة وبالحمولات التي كانت تشغل الذاكرة والوجدان والعقل. ولا أتردّد لحظة في أن أضع مقولة التغيير على رأس قائمة الموضوعات التي شغلتني إلى حدّ الهوس، سياسياً وثقافياً وحياتياً. عندما عدتُ إلى المغرب سنة ١٩٦٠، كانت فوْرة ما بعد الاستقلال تجعل النجوم قريبة من أيدينا، وحماس الجماهير التي بذلت التضحيات الجسيمة يسند قوى التغيير والتحديث، وكان هناك مناضل قائد هو المهدي بن بركة، يجسّد أفق التغيير فكراً وممارسة وحضوراً، وقد تعرّفت على المهدي وأنا ولد لم يتجاوز العاشرة حينما كان يمرّ، ممتطياً درّاجته الهوائية، بأحد أزقّة مدينة الرباط القديمة أثناء لعبنا كرة القدم، فكنّا نوقف المباراة تلقائياً ونتبادل معه الابتسامات باحترام، لأن حضوره، قبل الاستقلال، كان ملء السمع والبصر. ثم التقيته في مناسبات وطنية، وحين زار القاهرة سنة ١٩٥٩، وفي مؤتمر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالدار البيضاء سنة ١٩٦٢، مع الأيام، وبعد محنة اختطاف المهدي بن بركة واغتياله، ومن خلال قراءتي كتابه (الاختيار الثوري في المغرب)، ومحاضراته واستجواباته، تكوّن لديّ شعور قوي بأن المهدي هو صورة أنايَ الأعلى، لأنه كان بذكائه وديناميته الخرافية، وقدرته على إقناع الناس، ومرونة تحليلاته المتماهية مع تطلعات الشعب

العميقة، أفضل مَنْ يجسّد التغيير الذي كان يملأ جوانحي الشابّة آنذاك. وأظنّ أن هذه الرمزية العالية للمهدي بن بركة، عندي وعند فئات واسعة من المغاربة، تعود أيضاً إلى كونه اختفى وهو يحمل عالياً مشعل النضال على مستوى العالم الثالث، ودون أن يشارك في الحكم وما قد يستتبعه ذلك من تنازلات وانقياد لمنطق التبرير، وهذا لا يعني أن المهدي كان وُثوقياً، متحجّراً في مواقفه، على العكس، كان سريع الالتقاط للتبدّلات الداخلية والخارجية، متتبّعاً لما تحبَل به الساحة العالمية من إرهاصات وأفكار ومذاهب. ومن ثم فإن التغيير الذي كان يشدّني إلى الفعل السياسي، عرف من خلاله تحوّلات منفتحة على الواقع وتعقيداته، لكن من دون تنازل عن (العقد غير المكتوب) مع الأغلبية الواسعة المضطهدة، المحرومة، التوّاقة إلى كسْر وصاية القرون الوسطى.

والمرفأ الزمني الآخر، يمكن أن أسمّيه (زئبقية التاريخ)، ذلك أن انتمائي إلى جيل مخضرم (فترة ما قبل الاستقلال ثم ما بعده) وانخراطي في العمل السياسي النضالي مدة غير قصيرة، وسعيي مع زملاء آخرين إلى التبشير بالأدب والثقافة المغربيين الجديدين، كل ذلك أتاح لي أن أعيش لحظات (تاريخية) على جانب من الأهمية، غير أنني، في مرحلة التمثّل والغرْبلة، خاصة عندما عدت إلى الكتابة الإبداعية، بدأت أتبيّن أن ما عشته على أنه وقائع تاريخية، يأخذ تجليات ثانية مغايرة من خلال ما يسرده المشاركون في (صنع) تاريخ المغرب، ومن خلال التأويلات والروايات الرسمية. ليس هناك تاريخ واحد، بل تواريخ متعددة الوجوه والحقائق، لذلك يتعذّر عليّ الاستمرار في الإيمان المطلق بالتاريخ كما كانت عليه حالي خلال فترة التمركس، خاصة أنني تبيّنت أهمية التفاصيل وتأثير المصالح في تحديد مواقف الأشخاص والفاعلين التاريخيين بصفة عامة، ويخيّل إليّ أن عدداً لا بأس به من المثقفين المغاربة والعرب الذين ينتمون إلى جيلي (الستّيني)، وجدوا أنفسهم – من غير أن ينخرطوا في الحزب الشيوعي – منجذبين إلى التمركس نتيجة

لقراءاتهم وتعطّشهم إلى تصوّرات نظرية (متكاملة) قادرة على تقديم أجوبة مقنعة على أسئلتهم المحرقة الباحثة عن طريق للخلاص من التخلّف والاستغلال الإمبريالي والتسلط الطبقي. لكن زمن الطرح الشمولي وزمن الأجوبة الجاهزة، الأيديولوجية، سرعان ما تلاشى بريقه أمام تعقيدات الواقع وإفرازاته المتأبية على التحليلات الخُطاطية، الفضفاضة، من ثمّ كانت ضرورة العودة إلى التفاصيل وإلى الطرح التجزيئي، الآني، للمشكلات، بوصفه مدخلاً لإدراك المعضلة في كلّيتها وتشابكاتها.

وهذه اللحظة الزمنية الكاشفة قادتني إلى تغيير ممارستي الحياتية على صعيدين أساسيين في نظري: العودة إلى الكتابة الإبداعية لأنها مسعفة على استبطان التجربة والتغلغل في تفاصيلها الحياتية بعيداً عن التقسيمات الازدواجية المميزة بين العقل والإحساس، بين التصوّر النظري والممارسة، ثم الإصرار، سياسياً وثقافياً، على طرح الظاهرات والمشكلات حين بروزها دون اللجوء إلى الإرجاء أو التغاضي بدعوى أن السياسة ومقتضياتها تستدعي السكوت على بعض الأمور وبعض الأسئلة إلى أن يتغيّر (ميزان القوى) وتسلس أزمّة الحكم فيسهل التغيير! هذا المنطق انكشف تهافته ولافاعليته عبر ما عشناه وعاشه العالم خلال السنوات الثلاثين الماضية، من ثمّ فإن مَن يسعى إلى التغيير، عليه ألا يفصل بين العاجل والآجل، بل إنّ الآني هو تعبير عن حاضر واقعي، والمواجهة على أرض الواقع الملموس هي ما يتيح لمواطنينا إدراك مسئولية التدخّل الواعي دفاعاً عن حاضرهم وعن مستقبل أبنائهم ووطنهم.

وأجد في تجربتي داخل اتحاد كُتّاب المغرب مرفأ زمنياً يعضد هذا الاقتناع بأهمية التجليات الخصوصية لكل مسألة وبضرورة المواجهة الفورية للأسئلة في سياقها الآني وفي امتداداتها المستقبلية. لقد تأسس اتحاد كُتّاب المغرب سنة ١٩٦١، وكان الاتفاق على أن يكون منبراً لجميع الاتجاهات الفكرية والإبداعية دون استثناء ودون تحيّز للسلطة الرسمية. ولم تكن التجربة سهلة،

لأن تلك الفترة جعلت الجميع يُعرض عن الأدب والثقافة وينصرف إلى (تشييد) مجتمع ما بعد الاستقلال، وقد راهنت، مع مجموعة من الكُتّاب والشعراء الشباب على تفعيل الاتحاد وصَوْن اختياراته الديمقراطية، وفوجئنا بمَن يريد استخدام الاتحاد لنيل مكاسب مادية والتقرّب من السلطة المطلقة للبلاد، آنذاك. لكن إصرارنا على استقلالية اتحاد كُتّاب المغرب أقنع المبدعين المغاربة بأن التجربة تستحق أن تعيش وأن يدافع عنها حتى لا يفقد الإبداع حرّيته التي هي شرطه الأول. وخلال الفترة التي انتُخبت فيها رئيساً للاتحاد من ١٩٧٦ إلى ١٩٨٣، حرصت على أن يسمع المبدعون صوتهم المتميّز انطلاقاً من النصوص والمناقشات والبيانات والمؤتمرات. ذلك أنني لا أؤمن بأن الانتماء السياسي للكاتب يُغنيه عن انتمائه إلى الأدب وإلى خصوصية هذا الحقل التي كثيراً ما تقتضي من المبدع أن يخالف أو يعارض مواقف سياسية تخضع للحسابات الضيّقة وللتنازلات الظرفية. هكذا استطاع اتحاد كُتّاب المغرب، منذ ذاك وإلى اليوم، أن يحافظ على استقلاليته وتمثيليته لجميع الاتجاهات رغم الأزمة السياسية التي عاشها المغرب أزيد من عقدين زمنيين. وأهمية تجربة اتحاد كتّاب المغرب، قياساً إلى تجربة معظم الاتحادات العربية (الرسمية) إنما تتجلى في أنها أقنعت الأعضاء بأن الأدب والخطاب الثقافي يستطيعان التعبير عن حقائق ومواقف غائبة عن بقية خطابات المجتمع المغربي، وطبيعي أن الاتحاد لا يستطيع أن يخلق مبدعين، إلا أنه يجب أن يظل دائماً منبراً مفتوحاً لجميع الأصوات، ومنظمّة تعتمد الحوار والصراع الديمقراطي، وهما القيمتان المفتقدتان في حياتنا السياسية إلى عهد قريب.

الآن، وأنا أنظر من مسافة العمر، إلى مرفأ التغيير الذي طالما أويت إليه وجعلته منارة أستدلّ بها، أدرك أن المغامرة أكثر تعقيداً وأن جوانب من مفهوم التغيير وتجلياته ظلت محجوبة عني بفعل وهج الشباب والاندفاع الفيزيقي الذي كان يوحي إليّ بأن التغيير صعود مستمر في طريق سالكة، ومن ثمّ لم أكن أتوقف كثيراً عند تبادل التأثير بين التغيير والتغيّر، إذ كنت أعتبر التغيير

مرتبطاً بالذات الفاعلة القادرة على التدخّل في كل شيء، مُغفلاً التغيّر الذي يحدث خارج إرادتنا بفعل الزمن ونتيجة عوامل مادية تتحكّم في توجيه مصائرنا وتكييف العلائق الفردية والمجتمعية.

هكذا يبدو أفق التغيير وزئبقية التاريخ مرفأين يلازمان ذاكرتي، لكنهما يحملان، دوماً، أسئلة مقلقة: هل تعلّقي بالتغيير مصدره وهج الشباب وانجذابي إلى الجديد أم أنه حصيلة ثقافة وتجربة وتطلّع إلى الأفضل وهل زئبقية التاريخ وتجليّاته متعددة الوجوه كافية للشك التام في مصداقيته ودروسه.

مهما يكن، فأنا أرتاد، الآن، مرفأ أقلّ تفاؤلية إلا أنه لا يتنكّر للتغيير، مادام هذا الأفق قد غدا جزءًا لا ينفصل عن كياني ووعيي، وإن كانت الأيام الكالحة قد حدّت من غلوائه.

ويبقى المرفأ الأهم في حياتي، هو الكتابة، في رحابها، أستطيع أن أحاور الذاكرة وأن أعيد صياغة ما عشته ممتزجاً، بشطحات الخيال وأصداء النصوص الغائبة، ونبرات الأصوات المسموعة، ليست هناك حدود تعيّن للكتابة موادّها الخام وموضوعاتها وأشكالها، ولذلك فهي مجال لممارسة الحرية بامتياز، وأيضاً لممارسة المسئولية، يصعب أن نكتب دون أن توجّهنا أسئلة ضمنية نسعى إلى الإجابة عنها أو إلى التعمّق في صوغها وتجسيدها بطريقة مغايرة لما تفعله طرائق التواصل العادية الأخرى. ومصدر اقتران الكتابة بالحرية هو أننا لا نكتب لاستنساخ ما هو قائم أو محاكاة ما عشناه. دائماً هناك قسط واسع للتخييل والتحوير والإضافة والحذف. لذلك كثيراً ما استعملت تعبير (اللجوء إلى حرية الكتابة) لأجيب عن أسئلة المستفسرين عن تحوّلي إلى كتابة الرواية بعد أن عرفوني ناقداً، والواقع أنني بدأت بكتابة القصة القصيرة والتأمّلات والتحليلات السياسية قبل أن أتفرّغ للنقد الأدبي طوال تدريسي بكلية الآداب، إلا أنني أحسست في نهاية السبعينيات، أن ما أكتبه من مقالات ودراسات، وما أترجمه عن اللغة الفرنسية لا يلتقط التجربة الحياتية التي تراكمت في الذاكرة والجسد موشومة بغير قليل من الانكسار

والخيبة، قياساً إلى آمال عريضة كنت أحملها في مطلع الشباب. ومن سؤال معرفة ذاتي ومعرفة مجتمعي واستيعاب ما عايشته، تولّد لديّ الشعور بضرورة اللجوء إلى حرية الكتابة الإبداعية رغم أنني لم أنقطع عنها. وعلى هذا النحو، جاءت نصوصي الروائية: (لعبة النسيان)، (الضوء الهارب)، مثل صيف لن يتكرر)، تأكيداً لانتصار الكتابة على النضال السياسي والثقافي الذي كثيراً ما قادني إلى كتابة عشرات المقالات والنصوص بأسماء مستعارة وجعلني ألقي العديد من المحاضرات الشفوية وأخوض في ندوات وجدالات لا حصر لها، وأظن أن مساري في الكتابة يعكس شروط معظم الكتّاب المغاربة والعرب الذين يخوضون مغامرة الإبداع لحسابهم دون أن يستطيعوا تحقيق علاقة منتظمة مع الكتابة لأن الاحتراف شبه مستحيل، ومبيعات الإنتاج الأدبي لا تضمن لصاحبها مردودات يتعيّش منها، ولذلك كثيراً ما تكون الكتابة عملاً إضافياً ننجزه في أوقات الفراغ ونقتطعه من فترات الراحة. وهذا ما يدفعني إلى اعتبار ما أكتبه ذا حضور رمزيّ لا يتيح لي التحاور المنتظم والمستمر مع الجمهور المتلقّي.

لكن رغم الشروط الصعبة، فقد حرصت على أن أجعل من الكتابة الإبداعية فسحة حقيقية لممارسة حريّتي. ووجدت في الرواية شكلاً مرناً يسعفني على الانطلاق في رحلة البحث عن الذات المتشظية، والاقتراب من الآخر ومن المجتمع متعدد اللغات والخطابات، وكانت نقطة البداية هي استحضار الطفولة عبر التخييل وبوعي الحاضر، وشيئاً فشيئاً تتّسع الطفولة لتسدل علينا ظلالاً وارفة تباعد بيننا وبين الهجير، وتضيء المسالك المختلطة، ونحن نجري وراء الذات العميقة التي أضحت غريبة عنّا. من خلل الطفولة، إذن، وبوساطة اللغة البكر التي أمدّتني بها، انطلقت لملاقاة ذاتي المضيّعة وسط زحمة الاجتماعات، والخطب المعادة، والمغامرات العابرة، كأنني أردت من الرواية أن تكون وسيلة معرفة قبل كل شيء، إلا أن الكتابة متعددة الهوية بطبيعتها ولا ترضى بأن (تسخّر) لأغراض يحددها الكاتب وحده. وهكذا

وجدتني أعيش، وأنا أكتب روايتي الأولى طوال سنوات عدة، مغامرة ممتعة ومعذّبة لأن الكتابة لم تكن لتستقيم دون إدراك الأبعاد اللعبية الملتصقة بها، ودون الاستسلام لسحر اللغة وتجليّاتها عبر مستويات متعددة، متشابكة تقود إلى المتاهات أكثر مما تعبّر عن دلالة محددة.

والواقع أن لجوئي إلى حرية الكتابة وضعني أمام شرك كبير، لأنني وجدت أن الكتابة التي أتطلبها مشدودة إلى ذاكرتي التي انطوت على جوانب كثيرة مسكوت عنها ولم أكن أعيرها التفاتاً بدعوى أن السياسة أسبق من بقية المجالات، أو ظنّاً مني بأن الممارسة ستوضح كل شيء، من ثم كانت الكتابة بالنسبة إليّ، وفي مرحلتي الثانية، مواجهة لا مفر منها بين الذات بما لها من تاريخ خاص، وعقد، ووعي، وبين المجتمع بمؤسساته وقوانينه وأخلاقياته الموروثة. وهذا تعارض جوهري ندركه عندما نحرص على أن نظل قريبين وأوفياء لتاريخنا الفردي الخاص. لأجل ذلك أؤيد القائلين بأن الرواية، في جوهرها، هي تشخيص صراع الفرد ضد المجتمع بحثاً عن توازن متعذّر في غالب الأحيان.

كيف أعتبر، إذن، الكتابة (ملجأ) يمدّني بالحرية؟

رغم صعوبة الكتابة، والجهد النفسي والمادي الذي تتطلبه، فقد وجدت أن المجال الوحيد الذي أستطيع أن أقول فيه ما أحسّه وأعتقده بحريّة، هو الكتابة التخييلية، من خلالها، أستطيع أن أتحدى جميع القيود والرقابات، مراهناً على قراء محتملين سيتجاوبون مع ما أكتبه. وهذا لا يعني أنني أعتمد الاستفزاز أو الإثارة. على العكس، أرى أن النص الصادر عن الأعماق لا يلتفت كثيراً إلى استمالة القرّاء، ولذلك فإن إمكانات التعبير لا تحدّ وتكون فاعلة رغم (حراسة) الرقابة. فأنا لست من الذين يراهنون على قراء سيأتون في زمن لاحق، بل أفترض أنهم يوجدون الآن، لكنني لا أرضى جلبهم عن طريق السهولة أو التنازلات. وفي مجالات أخرى للكتابة، أوثر الصمت على أن أكتب مالا يفصح عن الحد الأدنى مما أفكّر به، وليس خافياً أن القرن

الذي ودّعناه، لم يكن قرن حريّة بالنسبة للمواطن العربي رغم النضالات والمعارك والتضحيات الكثيرة، الجسيمة، ومن ثمّ فإن أحد أهم إنجازات الأدب العربي الحديث، أنه استطاع أن يُبدع عوالم ونصوصاً موازية ومعارضة للخطابات الرسمية والأيديولوجية السائدة والرامية إلى التخدير وغسل الأدمغة. ومنذ هزيمة ١٩٦٧ بالأخص، أخذت مجموعة لا بأس بها من الشعراء والروائيين والكتّاب العرب، على امتداد الوطن، تكتب دون الاتّكاء على سند أيديولوجي أو سلطوي لتقول المسكوت عنه، وتحرر الإبداع من الوصايات والممالأة. وهذا ما يجعلني أعتقد أن البوابة الموصلة إلى رحاب الوجدان العربي - لا فرق بين مركزه ومحيطه - هي نصوص الإبداع الأدبي المتوفر على الفنية والاستبصار والجرأة، ذلك أن الاختناق مهما اشتدّ، لا يستطيع أن يمنع المبدعين من (اللجوء إلى حرية الكتابة).

إذا كان صحيحاً أن معظم الذين يتابعون رحلة الحياة، يستندون إلى ما تختزنه ذاكراتهم من لحظات مضيئة تبدد تعبهم ويأسهم، فأنا أرى أن الكتابة، في أحد مقوماتها، هي استعادة لتلك اللحظات الهارية منّا باستمرار، والتي نجري وراءها لنحدّ من سطوة الزّمان ونشغّل التخييل لندلل على أن التجارب والأشياء كان يمكن أن تكون على غير ما هي عليه، وأن اللغة يمكن أن تتحرر من وظيفة التواصل المحدودة، وأن تنقلنا إلى عوالم الحلم. وهذه المكانة التي تحتلها الذاكرة في عملية الكتابة هي التي تطرح أمامنا أسئلة صعبة، فأنا لا أريد أن أصبح أسير ذاكرتي التي هي، مهما اتسعت، تظل محدودة، مسيّجة، ولذلك أجنح إلى طريق من يعتقدون بإمكان خلق (شعريّة الذاكرة) التي تمتح من الاحتمالات ومن التخييل ومن هدم الحدود بين الواقعي والمتخيّل. وعلى هذا النحو، تتحرر الذاكرة من سطوتنا، ونتعتق نحن من عبادتها واجتراراتها.

وفي العمق، فإن التطورات السريعة والمذهلة لوسائل الاتصال والمعرفة، تحتّم على ذاكرتنا أن تكون مفتوحة على مصراعيها وأن تجهد كثيراً من أجل أن تقتنص ما (تختص به) وتستثمره في البوّح والإبداع، وقد قرأت رأييْن

مختلفين لكاتبين معاصرين يتحدث كل واحد منهما عمّا يشغله، قال أحدهما إنه مهموم بالناس الخائفين الذين لا يقدرون على الانغمار في الحياة والتعاطي معها، وقال الثاني: إن ما يقلقه هو تزايد شعوره بأن الناس أصبحوا مخيفين، قساة، وأظن أن مرفأ ذاكرة الكتابة عندي لا يمكن أن يبتعد عن (منطقة الخوف) هذه، المنطقة التي تحكم على الإنسان بأن يصون وجوده وحريته من خلال مغالبة جروحه الداخلية ومن خلال التصدّي للمخيفين الذين يدوسون الحياة باحتقار ولامبالاة.

* * *

وأنا أخط هذه الكلمات عن مرافئ الذاكرة، أحسّ وطأة الانتقال إلى قرن جديد، وأتسامق بخيالي لأستشرف تجربة وطني المغرب وهو يعيش مرحلة انتقالية صعبة، أخذت معالم ماضيها الشائن تتلاشى، غير أن الأفق البديل لم يتبلور بعد بالقدر الذي يتيح تخطّي اللحظات المعتمة.

ورغم الأمل الذي تتخايل ملامحه في جوانحي، فإنني لا أعرف كيف سيندمل ذلك الجرح العميق الذي عايشته أيام الاعتقالات والقمع ومصادرة الحريات منذ أواسط الستينيات إلى بداية التسعينيات.

والآن، وأنا أقرأ، في الصحف الوطنية، شهادات بعض مَن كانوا ضحايا السجن الوحشي في (تازْمَامّرتْ)، وأولئك الذين نجوا من الموت البطيء داخل مراكز التعذيب وفي ظلمات السجن، أتساءل عمّا إذا كان ذلك الجرح العميق سيعرف طريقه إلى الاندمال والتضميد والنسيان؟

---

* العربي - العدد ٥٠٣ - أكتوبر ٢٠٠٠م.

مرفأ الذاكرة | د. نقولا زيادة

إيقاع على أوتار الزمن *



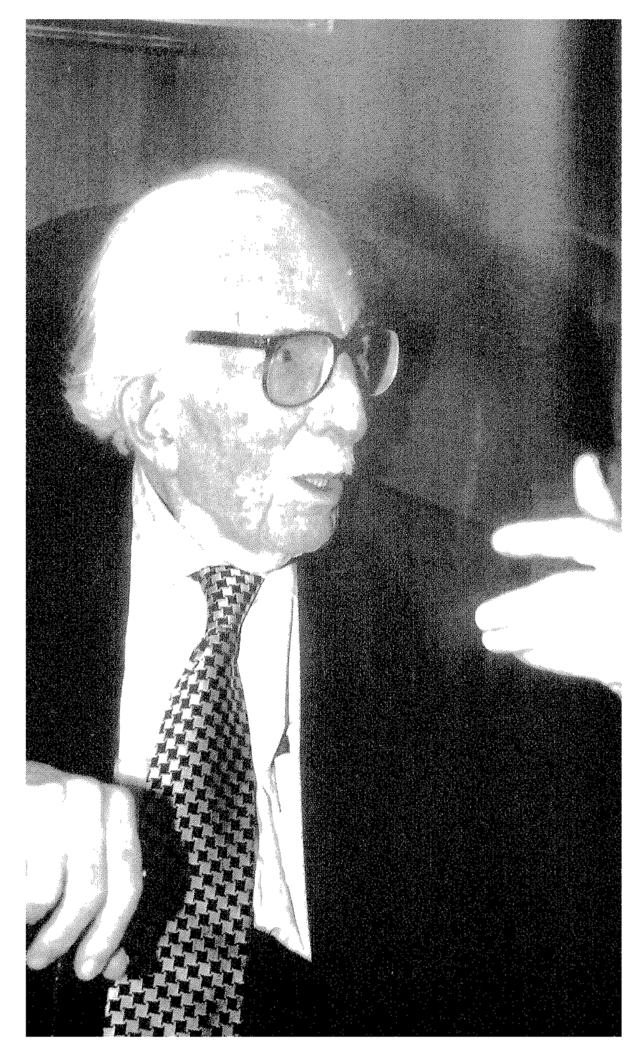
والزمن الذي أتحدث عنه هو فترة تمتد إحدى وتسعين سنة وبضعة أشهر، تبدأ في الثاني من ديسمبر ١٩٠٧، وتمتد إلى اليوم.

فأنا أبواي من الناصرة (فلسطين)، ولكن والدي كان موظفاً في قسم الهندسة في الإدارة العامة لسكة حديد الحجاز التي كان مركزها دمشق، ولذلك فأنا مولود في الميدان التحتاني بدمشق في التاريخ المذكور.

كانت طفولتي حلوة هنيئة في حمى أب رءوف، وأم رءوم، وصحبة أخت وأخوين أصغر مني سنّاً.

كانت للأسرة رحلات وسيرانات في أنحاء الغوطة، الفيحاء ودمر الغناء والهامة موحية الشعر والشعراء وفرة المغناء. وإذا اكتفينا بالمدينة نفسها، فهناك (جنينة الحليب) الضاحكة التي كانت تقع عند طرف شارع حلب الآن.

وأدخلت إلى مدرسة الفرير في الميدان التحتاني، فكان أول معلمي فئة من الرهبان لا تفارقهم «الطبشة» «وهي أداة العقاب»، التي لم ينلني منها نصيب. ثم بدّلنا بيتنا، فنُقلت إلى مدرسة إنجيلية كان



حصتي فيها معلمات لطيفات أنيسات. وفي هاتين المدرستين، مع عناية والدي بي، تعلمت مبادئ القراءة، الأمر الذي كان له في حياتي المبكّرة أثر كبير.

لكن هذه الفترة من الطفولة الهنيئة، انتهت فجأة لما أعلنت الحرب العالمية الأولى ودخلت «الدولة العلية» الحرب إلى جانب ألمانيا «١٩١٤»، فقد جُنّد والدي كما جنّد الآلاف من الشباب العثمانيين، وحُشروا في مواقع مختلفة في دمشق تمهيداً لإرسالهم مع الحملة التي كان يعدها جمال باشا «الحاكم العام لبلاد الشام والقائد العام للفيلق الرابع التركي» إلى الترعة «قناة السويس». وقد أطلق عليهم اسم «السوقيات». ولكن بدل أن يُدرّبوا على القتال، حُشروا في شبه معتقلات منتظرين الأمر بـ«السَّوق».

كان أبي مع الذين حُشروا في جامع المعلقة، ولأنه كان جامعاً لم تسمح السلطات لأمي بزيارته، فكنت أقوم أنا «وأنا في الثامنة من عمري» بزيارته، مرة في الأسبوع.

في أحد الأيام، ذهبت لزيارته، فقيل لي إنه مرض ونُقل إلى المستشفى، ولكن أيّ مستشفى لم يكن أحد يعرف. وإذن، فقد ترتّب علينا، أنا وأمي، أن نزور المستشفيات المختلفة بحثاً عنه. كنا نقوم بالزيارة متناوبين، فأخي الأصغر «جورج» كان في أوائل الثالثة من عمره، فلم يكن من الجائز أن يُترك وحيداً.

إن الذي عاينته في المستشفيات التي زرتها، والمرضى الذين شاهدتهم، وما كانوا يتألمون منه من أمراض وجروح فضلاً عن الإهمال والقذارة أمور لاتزال ماثلة في نفسي بعد مرور ما يزيد على ثمانية عقود من السنين.

في مساء أحد الأيام، عادت أمي إلى البيت ومعها كيس ألقت به إلى الأرض وقالت «نقولا أبوك مات، وهذه ثيابه».

وكان كل ما نملك يومها ليرة عثمانية ذهبية واحدة.

كان أول مَن أعاننا، إلى أن يأتي الفرج من الناصرة، غبطة البطريرك جريجوريوس حداد، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس. فقد كان خالي إيليا مطراناً لأبرشية صور وصيدا وتوابعهما التابعة للبطريركية، فكانت لنا بغبطة البطريرك صلة خاصة. «ولكن خالي المطران كان يومها غائباً في أمريكا الجنوبية». وأخيراً جاء خالي سامي من الناصرة ليحملنا إلى بلدنا الأصلي، إلا أن أمي كانت قد أصيبت بالتيفوس «من جراء زيارتها للمستشفيات»، فكانت ضعيفة، فتأجلت عودتنا بعض الوقت.

لما عدنا إلى بيت جدي لأمي في الناصرة، تعهد خالي (سامي) وخالتي (صوفيا)، وكان الاثنان يعملان في وظيفتين لهما راتب محترم، بأن يكونا عوناً لأمي، إلا أن الحظ السيئ كان بانتظارنا، فقد توفي الاثنان خلال بعض الوقت، ووقع على أمي عبء العناية بأسرة كبيرة.

***

انتقلنا إلى جنين (في شمال فلسطين) لأن أمي وجدت عملاً مريحاً، ولكن جابهتني، أنا شخصياً، مشكلة جديدة، كان بناء المدرسة الحكومية في جنين قد أعطي لصف ضباط الطيران الألماني (لأن جنين كان فيها مركز لهذا السلاح)، وأقفلت المدرسة، وقضيت نحو سنتين دون مدرسة، كنت، مع الكثيرين من الأولاد الذين في عمري، من أولاد الأزقّة والدوران في البساتين المحيطة بالبلدة الصغيرة، كنت قد أصبحت أستطيع القراءة (فقد أضفت في الناصرة إلى ما كنت قد تعلمته في دمشق) وأحبّها، لكن من أين الكتب؟ كانت جنين بلدة لا يتجاوز سكانها الأربعة آلاف. وفيها جميع أنواع الحوانيت - إلا ما يخص القراءة والكتابة. لكن يبدو أن الدنيا لم تتم قسوتها عليّ، فقد كان هناك جار قريب لنا عنده كتب، تكرّم علي بإعارتي ما

عنده، فكان أن قرأت (ألف ليلة وليلة) و (تغريبة بني هلال) وقصة (الملك سيف بن ذي يزن) وبعض أعداد من مجلات قديمة كان يحتفظ بها.

وأخيراً في سبتمبر ١٩١٨، دخل الجيش البريطاني جنين والناصرة وسار (وفي مقابله في الجهة الشرقية من نهر الأردن، كان الجيش العربي بقيادة فيصل) إلى دمشق.

الذي يهمّني من هذا الأمر، أنه في مطلع سنة ١٩١٩، فتحت مدرسة الحكومة في جنين أبوابها ودخلنا كلنا صفوفها التي كان توزيعها نتيجة امتحان في القراءة والحساب، فكنت أنا، ابن الحادية عشرة، أجلس في الصف إلى جانب طالب في السادسة عشرة!

المهم أنه أصبحت هناك مدرسة وثمة معلمون يعلم الله ماذا كانت درجة بعضهم من التحصيل، وكنا نتعلم، ولست أكتم القارئ أنني خلال الفترة التي قضيتها في المدرسة، إلى صيف ١٩٢١، جرّبت مرتين أن أحصل على عمل لأعين أمي، لأن العمل الذي كان قد حصل لها فيه الخير، انتهى بانتهاء الحرب.

في سنة ١٩٢١ تبدلت حياتي بالكلية، فقد نجحت في امتحان الدخول لدار المعلمين الابتدائية في القدس، وبعد ثلاث سنوات، حصلت على شهادتها (وعمري تماما ١٦ سنة وسبعة أشهر) وأصبحت معلماً ولي عمل مضمون. وقبضت المرتّب الأول لعملي في آخر شهر سبتمبر ١٩٢٤، وكان عن نصف شهر هو عملي الأول في التعليم - الذي ظللت فيه، أي في التعليم، إلى سنة ١٩٩١: معلماً في مدرسة قرية في ترشيحا (قضاء عكا) ومدرّساً في مدرسة عكا الثانوية (١٩٢٥ - ١٩٣٥) وأستاذاً في الكلية العربية في القدس (١٩٣٩ - ١٩٤٧) وأستاذاً في الجامعة الأمريكية في بيروت (١٩٤٩ - ١٩٧٣) وفي جامعة القديس والجامعة اللبنانية في بيروت والجامعة الأردنية

في عمّان، وفي كلية اللاهوت للشرق الأدنى في بيروت (١٩٧٣ - ١٩٩١).

في دار المعلمين في القدس، تعاقب على تدريسنا أكثر من عشرة مدرّسين كانوا متخرّجين من جامعات أمريكية (في الولايات المتحدة) ومن دار الفنون (في استانبول) ومن الجامعة الأمريكية في بيروت، ومن مدرسة القضاء الشرعي في القاهرة. وكانت إفادتهم لنا واستفادتنا منهم متباينة إلى درجة كبيرة. وهذا أمر طبيعي، لاسيّما أن (الدار) كانت في دور التأسيس والتنظيم.

وأشهد أنني أفدت من كل مَن كان باستطاعته أن يفيد أو ينصح أو يساعد، وأقول الآن، وأنا صادق فيما أقول، إن الكثير من صفات (الطالب) ظلت ملازمة لي طول عمري، ولذلك فقد كنت، في جميع المناصب التعليمية التي توليتها معلّماً وأستاذاً - ومن ثم باحثاً - ناجحاً.

***

لمّا نُقلت إلى مدرسة عكا الثانوية سنة ١٩٢٥، عهد إلي بتدريس مواد لم أكن أعرفها. فكنت أعدّ في المساء الدرس أو الدروس التي سأعلمها في اليوم التالي. وشر ما في الأمر أنني كُلّفت (إجبارياً) تدريس التاريخ والجغرافيا، وأنا لم أكن أحبّ الأول، كان ميلي إلى الرياضيات أقوى، وكنت آمل أن أتمّ دراستي الجامعية في هذا الموضوع.

لكنني بعد نحو ثلاث سنوات من تدريس التاريخ، أحببت الموضوع ثم هويته ثم عشقته، ولم أندم.

لكن المشكلة كانت تعليم نفسي التاريخ، وتثقيف نفسي في نواح أخرى، فعكا لم تكن فيها يومها دكان، ولو صغيرا، لبيع الكتب، الشيء الوحيد المطبوع الذي كان يصل إلى أيدينا هو الجريدة، بما في ذلك الصحف المصرية كـ(الأهرام والمقطم والسياسة الأسبوعية وهذه لمن

يطلبها خاصة). ولم تكن حالة حيفا، أقرب مدينة كبيرة إلى عكا، أفضل بكثير بالنسبة للكتب العربية. فكنت أطلب كتبي من مصر مباشرة، أما الكتب الإنجليزية، فكنت أحصل عليها من مكتبة فلسطين العلمية بالقدس.

ولكن ما الذي أفعله بالنسبة إلى الثقافة العامة إلى جانب قراءتي الكتب التاريخية؟ كانت مطبعة جامعة أوكسفورد بإنجلترا تنشر سلسلة كتب منسّقة متساوية الحجم تقريباً باسم (مكتبة البيت الجامعية) (Home University Library) وكان كل كتاب فيها يضعه أحد كبار المختصين في حقله. كانت تشمل كتباً في الاقتصاد والاجتماع وقضايا علمية وفلسفية وسياسية، ومع أن المؤلفين كانوا أصحاب اختصاص دقيق، فقد كُلّفوا أن يكتبوا للقارئ المثقف لا للمتخصص. وأشهد أنهم – جميعهم – نجحوا في ذلك.

كان أن اهتديت بالمصادفة إلى إعلان عن هذه المكتبة، فطلبت ثلاثة مما أصدرته، وأخذت بقراءتها، ولم يكن الأمر هيّناً عليّ، فمعرفتي باللغة الإنجليزية كانت محدودة، لكنني أعجبت بها، ولما تركت عكا سنة ١٩٣٥ كان قد توافر لي نحو مائة وخمسين من هذه الكتب، لعلني قرأت منها القسم الأكبر، وكانت عشرة مجلدات تنتظر دورها الذي لم يأت، فقد تبدّلت الأمور.

وكنت أجاري ما يصدر من مصر ولبنان من كتب وصحافة رصينة. فالمقتطف والهلال كانا رفيقي منذ أن دخلت دار المعلمين. ولن أثقل على القارئ فأعدد حتى أسماء المؤلفين الذين قرأت لهم، لكن يكفي أن أقول إن هذه الأيام شهدت (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبدالرازق وفي (الشعر الجاهلي) لطه حسين و (مستقبل الثقافة في مصر) له أيضاً.

ومما كان له في نفسي أثر كبير جريدة (السياسة الأسبوعية)

التي كان رئيس تحريرها محمد حسين هيكل، فقد نشرت خلال السنوات التي ظهرت فيها، والتي قرأتها كلها، مقالات لرجال العلم والفكر والأدب في مصر، وكانت نافذة المشرق العربي على الفكر الأوربي - الغربي - المعاصر.

لكن الأمر الذي كان يقض مضجعي في تلك السنوات أنني كنت أقرأ وحيداً، وأفكر وحيداً، وأستشف الأمور وحيداً. فلا الزملاء يقرأون ليناقشوا، ولا هم مستعدون حتى للسماع.

***

لما استقر في نفسي حبّ التاريخ، بدأت به من أولّه، فكانت مكتبتي فيها نحو أربعة أخماسها في تاريخ الشرق القديم - من العصور الحجرية حتى نهاية الإمبراطورية الرومانية - مع التركيز على الحضارات الأولى وتنقلها وانتشارها أسطورياً وتجارياً ورحلة. وكم نعمت بذلك.

واهتممت إلى جانب ذلك بالآثار، فزرت، أثناء عملي في عكا (١٩٢٥ - ١٩٣٥)، معظم الأماكن التي تمّ فيها حفر أو كان الحفر قائماً فيها، في فلسطين ولبنان. وكانت تجربتي مفيدة جداً، ففي سنة ١٩٢٥ زرت مع درويش المقدادي، جبيل، وكان الأستاذ مونته الفرنسي قد بدأ الحفر هناك، وبدل أن نقف وننظر إلى الآثار، أخذ مونته نفسه يقودنا من مكان إلى آخر ويشرح لنا ما عثر عليه ودلالته، على الأقل حتى يثبت غير ذلك على ما قال. ومثل ذلك حدث لي في بيسان (فلسطين). إذ زرتها لما كان آثاريون من جامعة بنسلفانيا يقومون بالحفر هناك، فاستضافوني ليلة وتحدّثوا إليّ عن أعمالهم وعمل مَن سبقهم.

في سنة ١٩٣٠ زرت تل مجدو (تل المتسلم) الواقع بين حيفا وجنين، أهمية هذا التل تعود إلى أنه كان أحد المواقع الحصينة للدفاع عن

مرج ابن عامر أمام مهاجميه، سواء جاءوا من الشمال أو الجنوب، في سنة ١٤٥٧ ق.م حدثت فيه معركة كبيرة بين فرعون مصر تحتُمس الثالث والأمراء الشاميين الذين اجتمعوا هناك لصدّ الفرعون المهاجم، لكن هذا انتصر عليهم، وكانت النتيجة أن تابع حملته دون صعوبات تُذكر حتى بلغ حمص وحماة. كنت قد قرأت النصوص القديمة (مترجمة إلى الإنجليزية) عن المعركة، لكنني أردت أن أتعرّف إلى أرض المعركة، فذهبت إلى المكان وصرفت يومين في قرية تل المتسلم، ودرت بالمكان من جهاته المختلفة، وكانت بعثة المعهد الشرقي في شيكاغو تقوم بأعمال التنقيب هناك، فزرت المكان وتحدثت إلى القائمين بالعمل، وقرأت تقريراً عن أعمالهم، ثم سرت من مجدو عبر وادي عارا (باتجاه غربي جنوبي) إلى الساحل الفلسطيني لأتأكد من الطريق الذي عبره المصريون في طريقهم إلى القلعة الحصينة (بحيث فاجأوا الأمراء الشاميين).

عندئذ، كتبت مقالاً في الموضوع نشر في المقتطف سنة ١٩٣٠، يومها حسبت نفسي (أنني أصبحت مؤرخاً تحت التدريب) - والذي ينقصني هو التدريب الدقيق! هل إلى ذلك من سبيل؟

كنت قد عرفت القدس ودمشق وحلب وبيروت، كانت هذه بالنسبة لي أمراً مهماً بعد الناصرة وجنين وعكا، لكن في سنتي ١٩٣٣ و ١٩٣٤ زرت القاهرة.

عندها تعرفت إلى المدينة بمعناها العمراني والاجتماعي والفني والمتحفي والمؤسسات العلمية والثقافية، القاهرة فتحت لي آفاقاً واسعة بعيدة، لا يتسع المقام لذكر كل ما خبرته في تينك الزيارتين. أود قبل كل شيء أن أقول إنني لأول مرة أدخل مدينة عدد سكانها كان يزيد قليلاً على المليون (وسكان فلسطين جميعهم حسب إحصاء ١٩٣٢ كانوا دون المليون). الحركة - التنقل - الأسواق - شارع الفن عماد

الدين - المسارح المتنوعة - المطاعم الأنيقة. زرت كلية الآداب في جامعة القاهرة (كان اسمها يومها جامعة فؤاد). حضرت محاضرة للشيخ مصطفى عبدالرازق. شهدت مناقشة رسالة ماجستير في الأدب العربي كان أحد الفاحصين فيها طه حسين، زرت المتحف المصري، وكانت آثار قبر توت عنخ أمون الذهبية اللمّاعة قد نقلت إليه ورتبت فيه. زرت المتحف الإسلامي ودار الكتب المصرية، تسلقت إلى قمة هرم خوفو في الجيزة.

زرت (في كل زيارة) لجنة التأليف والترجمة والنشر (في شارع الكرداسة) وتعرّفت إلى رئيسها أحمد أمين وبعض أعضائها - عوض محمد عوض ومصطفى زيادة وأحمد حسن الزيات وسواهم. وتوطدت بين بعضهم وبيني صداقة ظلت قائمة حتى توفوا. زرت مجلة المقتطف ورئيس تحريرها فؤاد صروف (الذي كان قد نشر لي مقالين من قبل).

أذكر هذه الأشياء لأقول إن هاتين الزيارتين فتحتا أمامي آفاقاً جديدة كان لها تأثير كبير في نفسي - أصبحت أشعر أن حياتي اتسعت!

فضلاً عمّا ذكرت، زرت ثلاثة وثمانين مسجداً في القاهرة، وسرت جنوباً إلى الأقصر، وركبت قارباً في النيل.

هل استطعت أن أنقل إلى القارئ الانطباع الذي أفدته من هذه الزيارة! لا أظن، لكن لعلي لفتّ نظره إلى ذلك.

***

كنت طموحاً، وكنت دوماً أتأمل، (ولعلي كنت أحلم)، بأن تُتاح لي فرصة للدراسة الجامعية، جرّبت غير مرة، ولكن كانت ثمة ظروف تحول دون تحقيق هذا الأمل!

وأخيراً، تحقق حلمي، ففي وقت لم أكن أنتظره، دعاني نائب

مدير المعارف (فارل) إلى مكتبه في القدس وعرض عليّ بعثة لدراسة التاريخ القديم في جامعة لندن، قبلت طبعاً.

وفي خريف سنة ١٩٢٥ وجدتني أبحر من بورسعيد إلى إنجلترا للالتحاق بكلية الجامعة (جامعة لندن).

قضيت أربع سنوات متتالية في أوربا، كانت أطول مدة، بطبيعة الحال، في لندن. لكنني درست نصف سنة في جامعة ميونخ بألمانيا، وكان علي، أثناء دراستي للتاريخ الكلاسيكي، أن أتعلم اليونانية واللاتينية، فضلاً عن أن قانون الجامعة كان يقضي يوماً على الطالب أن يتمكن من القراءة في لغتين أوربيتين (سوى الإنجليزية)، فاخترت الألمانية والفرنسية القديمة (لقربها من اللاتينية)، وخرجت بعد ذلك بشهادة البكالوريوس (الليسانس) وأنا في سن الثانية والثلاثين (١٩٣٩).

لن أحدّث القارئ عن هذه السنوات الأربع، لكنني لابد أن أشير إلى بضعة أمور، ولأسرع إلى القول بأنني لم أصب بصدمة ثقافية - لعلني كنت قد هيأت نفسي لذلك من قبل، لكنني أصبت بصدمة اجتماعية، بعد نحو شهر من وصولي إلى لندن والتحاقي بالجامعة، وكنت أعدّ نفسي لامتحان الدخول، أردت أن أستريح في إحدى الأمسيات، وكانت للسيدة التي تدير البانسيون الذي كنت أقيم فيه ابنة صبية جميلة، خطر لي أن أصطحبها إلى حفلة، وفي إحدى الأمسيات، تفردت بالأم، وسألتها فيما إذا كانت تسمح لجين بأن ترافقني إلى حفلة؟ نظرت إليّ السيدة مستغربة وقالت لي: (لماذا تسألني، اسأل جين!).

هذا ما حدث لشاب قضى عشر سنوات من شبابه في عكا، المدينة الصغيرة المحافظة، ثم يجد نفسه في لندن أم الستة أو السبعة ملايين يومها!

أما الصدمة الثانية، فقد كانت سياسية، كانت بريطانيا على وشك إجراء انتخابات برلمانية لما وصلت لندن، خرجت مرّات إلى الشوارع وحضرت اجتماعات انتخابية، حيث كان ممثلو الأحزاب الثلاثة الرئيسية يعرضون برامجهم السياسية بمنتهى الحرية، إن حكومة الانتداب في فلسطين لم تعطنا حتى مجلساً تشريعياً، ولو اسمياً، على نحو ما فعلت الحكومة الفرنسية في لبنان. لذلك لم يكن لنا عهد بمثل هذا العمل، لكن الأمر المهم الذي ترك في نفسي أثراً كبيراً هو حرية الرأي التي كان البريطانيون يتمتعون بها في بلادهم ويمنعونها في المستعمرات - عفواً حتى في مناطق الانتداب.

عدت إلى فلسطين صيف ١٩٣٩ قبل أن تبدأ الحرب العالمية الثانية ببضعة أسابيع، وخلال السنوات الثماني التالية، درّست التاريخ القديم وتاريخ العرب في الكلية العربية والكلية الرشيدية. واهتممت بالبحث العلمي، وصدر لي أول كتاب سنة ١٩٤٣ وعنوانه (روّاد الشرق العربي في العصور الوسطى).

في هذه السنوات، كانت تجربتي غنية جداً، فبعض ما أفدته في غربتي جرّبت أن أنقله، تعليماً ومحاضرات وكتابة، إلى طلابي وقرّائي.

في سنة ١٩٤٧، ذهبت إلى جامعة لندن ثانية للإعداد للدكتوراه، كان اهتمامي قد انتقل من التاريخ الكلاسيكي إلى التاريخ الإسلامي، وكنت شديدة العناية بقراءة كتب العرب القديمة لا في التاريخ فحسب، بل في الجغرافيا والأدب وما يشبه السياسة، ولأنني كنت قد تدرّبت من قبل، فقد كانت دراساتي وبحوثي تتسم بالكثير من الدقة، وفي هذه الفترة، كتبت مقالات في المقتطف والثقافة وسواهما تناولت فيها نواحي معينة من تاريخ العرب.

قضيت في لندن سنتين (١٩٤٧-١٩٤٩)، كتبت رسالتي عن (سوريا في العصر المملوكي الأول) منفرداً دون أي إشراف، فالمشرف الذي

عُين لي لم يقرأ منها حرفاً واحداً، وخلال السنتين، لقيني أربع مرات فقط، لكن في سنة ١٩٥٠ قدّمت الرسالة ونلت الشهادة، أثناء هذه الإقامة في لندن، كانت تصحبني أسرتي الصغيرة مرغريت زوجتي وابني رائد.

في سنة ١٩٤٩، كان الجزء الذي أنا ابنه من فلسطين قيد الاحتلال الصهيوني، ولكن كان من حسن حظي أن التحقت سنتها بالجامعة الأمريكية في بيروت، وظللت أدرس فيها حتى سنة ١٩٧٣، بعد ذلك، عملت في معاهد وجامعات أشرت إليها من قبل، وأنا الآن في الثانية والتسعين من عمري، ومازلت أكتب وأحاضر في الموضوع الذي عشقته شاباً، وظل عشقه جزءاً أساسياً من حياتي الفكرية.

***

لعله يترتب عليّ في نهاية هذا الحديث، أن أسوق إلى القرّاء بضعة أمور تتعلق بنظرتي إلى التاريخ.

يحشر الكثيرون من مؤرخينا أنفسهم في فترة معينة من التاريخ، ويصرّون على أنهم اختصاصيون في هذا الموضوع أو الفترة. هذا أمر صحيح، لكن أرى أن المؤرخ الحقيقي يجب أن يكون له اطلاع أساسي (ليس من الضروري أن يكون تخصصياً) على مجرى التاريخ العام كي يستطيع أن يضع فترته في مكانها الصحيح.

تعلمت من خبرتي الطويلة والمتنوعة الاتجاهات، أن التاريخ لا يمكن أن يفهم إذا اقتصر المتخصص فيه عليه فقط. الأرض جزء من التاريخ، السهول بخصبها، والسهوب بتقلّبها، والصحارى بجفافها، يجب أن تدرك بكثير من العناية والدقة كي يفهم التاريخ. الأدب بجدّه وهزله، والشعر بالجزل منه، والضعيف جزء من التاريخ. لايزال البعض منا يحسب أن التاريخ معارك، فاصلة أو غير ذلك، لذلك ينظر إلى أحداث الزمان من خلالها، أحسب أن المؤرخ الصحيح، حتى الذي

يؤرخ للشئون العسكرية أصلاً، يجب أن يتعرّف إلى جو المعركة الخارجي كي يفهم الأمر على علاّته.

تعلّمنا وعلّمنا، فيما يصر البعض على تسميته بالمنهجية التاريخية (وكم أسيء إلى هذه الكلمة)، اننا يجب أن نعنى بالوثائق، فالوثيقة هي أساس، لكنني أرجو الإخوان العاملين في حقل التاريخ أن ينظروا إلى الوثيقة نظرة دقيقة، إن ما دوّنه فراعنة مصر وملوك أرض الرافدين وأمراء بلاد الشام وأباطرة الرومان على جدر المعابد وعلى الصخور القائمة على الطرق التجارية وعلى الأعمدة التي زيّنت الميادين هو ما تم لهؤلاء من النصر. لم يذكر أيّ منهم أنه كُسر في معركة، أو أنه خسر في موقعة، لذلك يجب أن تؤخذ مثل هذه الوقائق بعين الاعتبار، وهذا الأمر لا يقتصر على مثل هذه المدوّنات، بل يشمل حتى كتب التاريخ، لنذكر أن بعض كتب التاريخ العربي القديمة، وهي مصادرنا، كتبت تحت تأثير بلاط السلاطين، لذلك يجب أن نكون حذرين في استعمالها والاعتماد عليها، فضلاً عن ذلك، فإن الأرقام التي ترد في الكثير منها فيها مبالغات ما أنزل الله بها من سلطان.

ولعل أشد الأمور خطراً على البحث التاريخي هو الالتصاق بمدرسة أو فلسفة معينة، ذات إيديولوجية محددة، عندها يصبح تفسيرنا للتاريخ (ألْوق، أعوج)، فيما إننا نحسب أننا دقيقون منصفون، وفي هذا غش للنفس، وبالتالي غش للتاريخ.

تجربتي في كتابة التاريخ أدت بي إلى أن أنظر إلى البحث أو الموضوع الذي أتناوله نظرة مستقلة فاحصة، وأن أحاول درسه من أصله لا من وسطه (معتمداً على ما كان غيري قد توصل إليه)، عندئذ – وبعد أن أفهم المكان والناس والزمان الذي يقع فيه موضوعي – أتقدم بتقصّي ما بيدي من وثائق ومصادر، وأود أن أذكّر زملائي المؤرخين، وخاصة المتقدمين منهم، أن يعنوا بعض العناية بالآثار –

زيارة (إن أمكن) وقراءة وتفهّما على الأقل، وأن يوجّهوا طلابهم إلى اهتمام بها أكبر. فالآثار بالنسبة للزائر العادي معرفة ورؤية مباشرة وثقافة، أما بالنسبة للمؤرخ فهي مصدر مهم.

وإذا نحن توقفنا بعض الشيء عند نواحي التاريخ العربي الإسلامي، تبين لنا أن ظهور الإسلام والفتوح السريعة وقيام هذه الدولة الواسعة في مدة لا تزيد على القرن الواحد، وأنها ضمت تحت جناحيها مختلف المناطق ومتنوع الأعراق، والعديد من الحضارات، والكثير من العادات الاجتماعية، كما يتضح لنا مدى ما تمّ في محيطها، وبسبب ما قام داخلها من الخلافات، من تبدّلات وتغيّرات واتصالات - إذا تذكّرنا هذا كله، بدا لنا أن الأساليب والطرق والوسائل والسبل التي يجب أن تتّبع في درسها، لابد أن تختلف عن بعض الأساليب التي اتبعت في دراسة حضارات أخرى سابقة ولاحقة، الغوص هنا أصعب ولكن النتائج مزجية.

وليسمح لي الزملاء والقرّاء أن أزجي هنا نصحاً - ولا أقول نصيحة - وهو ألا نقف من تراثنا موقف القداسة، وأن نصرّ أننا سبقنا غيرنا بقرون في القضية الفلانية والكشف الفلاني، هذا أمر لا ينكره علينا سوى المكابر، يجب أن ننظر إلى أنفسنا أننا قمنا بدورنا، وجاء بعدنا مَن سار على الدرب فوصل إلى محطات أخرى، إن وقوفنا عند التراث، وتقديسنا إياه قد يؤدي بنا إلى (مكانك عُدّ) - كما يقول الجند والكشافة.

اكتشفت أن في التطوّر التاريخي شيئاً أسمّيه (الجيولوجية الاجتماعية)، أي أن الشعب الذي وجد في مكان وكانت له مآت وإنجازات (مهما كان نوعها) لا تذهب مع الريح لمجرد أن يهزم هذا الشعب ويستولي شعب آخر على بلاده، إن الكثير من الإنجازات يظل في المجتمع الجديد وينتقل إليه اجتماعياً كما تنتقل شعيرات النبات

من طبقة من الأرض إلى أخرى.

ليس ثمة شيء يجُبّ ما قبله، وإن كان ينتصر عليه بحد السيف أو المدفع أو سواهما، الأساطير القديمة خير مثل على ذلك، لكن هناك أموراً أخرى تنتقل بالطريقة نفسها قبل أن يأتي مَن يهتم بتدوينها - كالقوانين والأخبار.

نحن أمام مشكلات كثيرة كبيرة معقّدة صعبة بالنسبة لفهم تاريخنا، فلنعن بالصغير والكبير من الأمور، كي نكتب لأنفسنا تاريخاً حرياً بالقراءة - سواء كنا نحن القرّاء أم كانوا سوانا.

لقد وضعت حتى الآن نحو أربعين كتاباً (منها اثنان بالمشاركة) بالعربية وستة كتب بالإنجليزية، وترجمت ستة كتب عن الإنجليزية، وكتاباً عن الألمانية (بالمشاركة مع الدكتورة سلمى الخماش). وهي كلها تمت إلى التاريخ الإسلامي بصلة، ولست أدّعي أنها كلها بلغت الغاية، فقد كنت أتعلم من أخطائي باستمرار.

ومازلت أكتب في الموضوعات التاريخية، وأنا أتعلم من أخطائي حتى الآن، ولا ضير علينا أن نستمر في التطور إذا كنا نريد أن نتقدم.

---

* العربي - العدد ٥٠٢ - سبتمبر ٢٠٠٠م.



مرفأ الذاكرة

محتويات الكتاب

ثمن النسخة

الكويت ١دينار، السعودية١٥ريالا،الأردن ١دينار،
سوريا٥٠ ليرة البحرين ١دينار، مصر ٢جنيه ،
السودان ٢٠٠ جنيه ، تونس ٢دينار،
الجزائر١٢٠دينارا، اليمن١٥٠ريالا،
قطر ١٥ريالا، سلطنة عمان ١ ريال ،
لبنان٥٠٠٠ ليرة ، الإمارات ١٥درهما،
المغرب٢٠درهما

سعر النسخة خارج الوطن العربي ٣ دولارات أمريكية
الاشتراك في الكويت ٥ دنانير
في الدول العربية ٨ دولارات أمريكية
خارج الوطن العربي ١٦ دولاراً أمريكيا.

كتاب العربي

يصدر عن مجلة العربي كل ثلاثة أشهر

مكتب العربي الرئيسي في الكويت

ص. ب ٧٤٨ الصفاة - الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨

عمارة برج الإنماء العقاري شارع عبدالله المبارك

- المرقاب - مدينة الكويت - مقابل المتحف العلمي

تلفون ٢٤٣٤٠٩٦ - ٢٤٣٤٠٦٦ داخلي (١٤٠٠ - ١١١٤ - ١١١١ - ١١٠٠)

فاكس التحرير ٢٤٣٤٢٠٩

المراسلات باسم رئيس التحرير

P.O. Box: 748 / Al Safat Kuwait.

E.mail: alarabimag@alarabimag.net

www.alarabimag.net

مكاتب العربي في الخارج

القاهرة: الدقي - ٢٢ شارع البطل عدنان عمر صدقي

متفرع من شارع مصدق - هاتف: ٣٣٧٢٩٣٨

بيروت: ص.ب ٧٠٨٢٧ أنطلياس / لبنان

هاتف: ٤٠٨٤٠٧ (٠٣) فاكس: ٤٠٥٠٧٢ (٠٤)

دمشق: ص.ب ١٢٠٣٥

هاتف ٢١٢٧٧٩٧ - ٢١٢٤٨٣١ - ٢١٢٨٢٤٨ فاكس ٢١٢١٥٣٢

الجزائر: ص.ب ١٤٤ المحطة الجزائر

هاتف ٦٩٣٣٩٣ - فاكس ٦٩١٨٤٧

الاشـتـراكـات

قسم الاشتراكات - مجلة العربي - وزارة الإعلام

ص.ب: ٧٤٨ الصفاة - الكويت الرمز البريدي ١٣٠٠٨

على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية

أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام.

صدر من

كتاب العربي

١- الحرية	د. أحمد زكي «يناير ١٩٨٤»
٢- العلم في حياة الإنسان	د. عبد الحليم منتصر «أبريل ١٩٨٤»
٣- المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٤»
٤- العروبة والإسلام وأوربا	د. محمود السمرة «أكتوبر ١٩٨٤»
٥- العربي ومسيرة ربع قرن مع: الحياة.. والناس.. والوحدة في دول الخليج العربي	مجموعة كتاب «نوفمبر ١٩٨٤»
٦- طبائع البشر	د. فاخر عاقل «يناير ١٩٨٥»
٧- حوار.. لامواجهة..	د. أحمد كمال أبو المجد «أبريل ١٩٨٥»
٨- آراء ودراسات في الفكر القومي	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٥»
٩- أضواء على لغتنا السمحة	محمد خليفة التونسي «أكتوبر ١٩٨٥»
١٠- الكويت ربع قرن من الاستقلال	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٦»
١١- نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر	د. حازم الببلاوي «أبريل ١٩٨٦»
١٢- السلوك الإنساني.. الحقيقة والخيال	د. فخري الدباغ «يوليو ١٩٨٦»
١٣- آراء حول قديم الشعر وجديده	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٨٦»
١٤- المسلمون والعصر	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٧»
١٥- من أسرار الحياة والكون	د. عبد المحسن صالح «أبريل ١٩٨٧»
١٦- دراسات حول الطب الوقائي	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٧»

١٧-	خطاب إلى العقل العربي	د. فؤاد زكريا «أكتوبر ١٩٨٧»
١٨-	المسرح العربي بين النقل والتأصيل	مجموعة كتاب «يناير ١٩٨٨»
١٩-	الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة	مجموعة كتاب «أبريل ١٩٨٨»
٢٠-	أندلسيات	محمد عبد الله عنان «يوليو ١٩٨٨»
٢١-	ماذا في العلم والطب من جديد؟	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٨٨»
٢٢-	الإسلام والعروبة في عالم متغير	د. عبد العزيز كامل «يناير ١٩٨٩»
٢٣-	الطفل العربي والمستقبل!	مجموعة كتاب «أبريل ١٩٨٩»
٢٤-	القصة العربية أجيال وآفاق	مجموعة كتاب «يوليو ١٩٨٩»
٢٥-	تاريخنا... وبقايا صور	د. شاكر مصطفى «أكتوبر ١٩٨٩»
٢٦-	الإنسان والبيئة صراع أو توافق؟	مجموعة كتاب «يناير ١٩٩٠»
٢٧-	نافذة على فلسفة العصر	د. زكي نجيب محمود «أبريل ١٩٩٠»
٢٨-	نظرات في الأدب والنقد	عبد الرزاق البصير «يوليو ١٩٩٠»
٢٩-	الإسلام وضرورة التغيير	د. محمد عمارة «يوليو ١٩٩٧»
٣٠-	الخليج العربي وآفاق القرن الواحد والعشرين	مجموعة كتاب «أكتوبر ١٩٩٧»
٣١-	القصة العربية.	مجموعة من الكتاب «يناير ١٩٩٨»
٣٢-	أرقام تصنع العالم	محمود المراغي «أبريل ١٩٩٨»
٣٣-	على جناح طائر	د. شاكر مصطفى «يوليو ١٩٩٨»
٣٤-	المسلمون من آسيا إلى أوربا	مجموعة من الكتاب «أكتوبر ١٩٩٨»
٣٥-	إسبانيا.. أصوات وأصداء عربية	مجموعة من الكتّاب «يناير ١٩٩٩»
٣٦-	ثورات في الطب والعلوم	مجموعة من الكتاب «أبريل ١٩٩٩»

٣٧- نبش الغراب في واحة العربي	محمد مستجاب «يوليو ١٩٩٩»
٣٨- المثقفون والسلطة في عالمنا العربي	أحمد بهاء الدين «أكتوبر ١٩٩٩»
٣٩- التعبير بالألوان	مجموعة من الكتّاب «يناير» ٢٠٠٠
٤٠- حضارة الحاسوب والإنترنت	مجموعة من الكتّاب «أبريل» ٢٠٠٠
٤١- شهرزاد تبوح بشجونها	مجموعة من الكاتبات «يوليو» ٢٠٠٠
٤٢- قوافي الحب والشجن	نخبة من الشعراء «أكتوبر» ٢٠٠٠
٤٣- الطب البديل	د. محمد المخزنجي «يناير» ٢٠٠١
٤٤- منمنمات تاريخية	سليمان مظهر «أبريل» ٢٠٠١
٤٥- الإسلام والتطرف	نخبة من الكتّاب «يوليو» ٢٠٠١
٤٦- الطريق إلى المعرفة	د. أحمد أبو زيد «أكتوبر» ٢٠٠١
٤٧- إيقاع على أوتار الزمن	د. نقولا زيادة «يناير» ٢٠٠٢
٤٨- دمار البيئة... دمار الإنسان	مجموعة من الكتّاب «أبريل» ٢٠٠٢
٤٩- الإسلام والغرب	مجموعة من الكتّاب «يوليو» ٢٠٠٢
٥٠- ثقافة الطفل العرب	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر» ٢٠٠٢
٥١- الثقافة الكويتية أصداء وآفاق	د. سليمان العسكري وآخرون «يناير» ٢٠٠٣
٥٢- جمال العربية	فاروق شوشة «أبريل» ٢٠٠٣
٥٣- كلمات من طمي الفرات	نخبة من الكتّاب «يوليو» ٢٠٠٣
٥٤- مرفأ الذاكرة	مجموعة من الكتّاب «أكتوبر» ٢٠٠٣

هذا الكتاب

في هذا العدد من كتاب العربي يلتقي القارئ بمختارات مما نشر في باب «مرفأ الذاكرة»، مما سمح به الفضاء الورقي المتاح للسلسلة، كتبها نخبة من أعلام وطنه العربي الكبير، من الكويت على الخليج العربي وحتى المغرب على المحيط الأطلنطي، ينسجون في هذه المساحة المكانية سجادة زمنية أخرى نقوشها الصدق مع الذات. سيجعلنا «مرفأ الذاكرة» نقلب في الدفاتر القديمة لنأخذ العبرة حيناً، والعبرات تجتاح العيون، ونحن نتذكر - كما يقول الشاعر - الأحداث الماضية، وأسماء الغائبين، هؤلاء الذين قال الشاعر عنهم:

مات المُداوي والمُداوَى والذي جَلَبَ الدو
اء وبـاعـه، ومَـن اشـتـرى!!





مرفأ الذاكرة

وزارة الإعلام: مطبعة حكومة الكويت